



مجلّة فكريّة ثقافيّة فصلية

العـدد ٢٧٨، المجلّـد ٣٣، شتاء ٢٠٢٠

المشـرق العربي .. إلى أين؟

ملف العدد: تحولات الواقع العربي في تجارب المبدعين والمثقفين

المنتدى

مجلّة فكريّة ثقافيّة فصليّة

منتدى الفكر العربيّ

عمّان – الأردنّ



Al Muntada

A Cultural Journal

Published every four months by

The Arab Thought Forum (ATF)

Amman - Jordan

العـدد (٢٧٨)

المجلّد ٣٣؛ شتاء ٢٠٢٠



لوحة الغلاف

للتشكيليّة الأردنية

غدير سعيد حدادين

ISC www.isc.gov.ir

اعتُمِدَت مجلّة «المنتدى»، ضمن قاعدة بيانات وملخّصات الدوريّات العلميّة العالميّة، في المركز الإقليمي للعلوم والتكنولوجيا في شيراز/إيران، وذلك وَفْقاً للمؤشّرات العلميّة المتّبعة لدى مركز المراجع الإسلاميّة الدوليّة، بحسب ما أقرّته المنظمة الإسلاميّة للتربية والثقافة والعلوم (الإيسيسكو) في المؤتمر الرّابع لوزراء التعليم العالي (تشرين الأوّل/أكتوبر ٢٠٠٨)، وهي مؤشّرات تتعلّق بتصنيف الأداء البحثيّ في البلدان الإسلاميّة.

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنيّة (١٣/٢٠٠٣/د)

إرشادات مهمّة لكُتّاب المجلّة

- تستقبلُ المجلّةُ الدّراساتِ المتعمّقةَ والمقالاتِ الفكريّةَ والمراجعاتِ النّقديّةَ الرّصينةَ لكتبٍ عربيّةٍ وأجنبيّةٍ صادرة حديثاً.
- يُعدّ أعضاء المنتدى حُكْماً مراسلين للمجلّة في أقطارهم.
- يسرّ المجلّةَ أنْ تنشر تقارير أعضاء المنتدى عن أنشطتهم الفكريّةِ والثّقافيّة؛ إضافةً إلى تقاريرهم عن أيّ أحداثٍ مهمّة يُتابعونها في أقطارهم.
- تخضعُ كلُّ مساهمة للتقييم.
- يُشترط أنْ لا يزيدَ طولُ المادّة المقدّمة للنّشر على عشرين صفحة (مقاس A4)، وأنْ تكونَ مطبوعةً على الحاسوب (الكمبيوتر).
- يُرجى إرسالُ المادّة بالبريد الإلكترونيّ.
- يُشترط أنْ تكونَ المادّة غيْرَ منشورة أو مقدّمة للنّشر إلى أيّة جهة أخرى.
- يُرجى من الكاتب ذكرُ عنوانه، بما في ذلك رقم الهاتف والبريد الإلكترونيّ والنّاسوخ (الفاكس)؛ كما يُرجى موافاتُنا بسيرته الموجزة.
- يُرجى العناية بالأسلوب وبمستوى اللّغة عنايةً خاصّة. وستعتذر هيئة التحرير عن قبول المواد التي لا يتوافر فيها الحدّ الأدنى من العناية باللغة.
- تحتفظُ هيئةُ التّحرير بحقّها في إجراء التّعديلات الملائمة على الموضوع المقدّم.
- تعتذرُ الهيئةُ عن عدم إعادة الموْضوعات التي لا تُقبل للنّشر إلى أصحابها.
- يُمنح الكاتبُ مكافأةً رمزيّةً على مساهمته.

دعوة للمشاركة بالدراسات والبحوث المحكّمة في المجلّة (ص ٢١٦)

منتدى الفكر العربي

ص ب ١٥٤١
عمّان ١١٩٤١ الأردنّ
تلفون: ٥٣٣٣٢٦١/٥٣٣٣٦١٧/٥٣٣٣٧١٥ (٦- ٩٦٢+)
ناسوخ (فاكس): ٥٣٣١١٩٧ (٦- ٩٦٢+)

Arab Thought Forum (Atf)

P. O. Box: 1541
Amman 11941 Jordan
Tel: (+962- 6) 5333261/5333617/5333715
Fax: (+962- 6) 5331197

E- mail: *atf@atf.org.jo*
URL: *www.atf.org.jo*
facebook.com/atf.jordan

المنتدى

المحتويات

العدد (٢٧٨) - شتاء ٢٠٢٠

شهادات ورؤى

- **كتب ومراجعات ونقد**

- **عن كتبهم بأقلامهم** (إعداد وتحرير: كايد هاشم)

المثقفون العرب وتحولات الواقع

د. محمد أبو حمّور
الأمين العام لمنتدى الفكر العربي
(رئيس التحرير)

عند الحديث عن تحولات الواقع العربي ولا سيما خلال العقدين الماضيين في تجارب المثقفين على الإطلاق، تبرز أمامنا عدة تساؤلات، منها: ما هي طبيعة هذه التحولات التي حدثت في الواقع العربي؟ وكيف أثّرت على مختلف جوانب الواقع الفكري، والثقافي، والاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي في العالم العربي؟

لقد كان تغييب الأساس الثقافي المشترك عاملاً حاسماً في التفكك المرير الذي أدى بمحاولات النهوض العربية إلى التراجع والنكوص، وبالتالي تفاقم التحديات والإشكالات على مختلف الصُّعد، والحدّ من إغناء الهوية والثقافة بالحيوية والتفاعل الخلّاق، مما انعكس سلباً على مجتمعاتنا بأشكالٍ من القصور التنمويّ، والجمود الاجتماعي، والتباعد السياسي، بل وتضارب القيم والمفاهيم على نحوٍ غير مُبرَّر ولا مفهوم، زاد في تعميق الفجوات والخلافات، والمزيد من الانعزالية والتقوقع على الذات.

إنَّ الإصلاحَ الثقافيّ في الحياةِ العربية هو ضرورة لا بدّ منها لإعادة البناء النهضوي في كل المجالات، سواء منها الاقتصاد أو السياسة أو المجتمع وطريقة التفكير... وإذا كانت دراسات كثيرة قد ركَّزت على تحليل الأسباب الاقتصادية والسياسية لتداعيات «الربيع العربي» في

منطقتنا، فإنّ الأحرى بنا الالتفات إلى السياقات الثقافية التي جرت من خلالها هذه الأحداث، ودلالاتها على حقيقة الأزمة في المجتمعات العربية، وهي مؤشرات كانت تتفاقم على السطح، وتظهرُ عبر أشكالٍ متعددة من المعاناه في المشهد العربي العام، قبل تلك الأحداث بعقودٍ طويلة.

لقد استشعر المثقفون والمبدعون العرب على مدى المراحل ما يمكن أن يؤدي إليه كل ذلك من خلل في البنى الثقافية ومختلف أبعادها، وعبَّرت الكثير من الأعمال الفكرية والإبداعية العربية عن هواجس الناس والمثقفين على خلفية ما شهدوه من تحولات.

وتعدّ تجربة المثقف العربي المعاصر ثرية في المقياس الإنساني، ويمكن القول إنها تعبّر إضافة إلى الأعمال الإبداعية والفكرية التي ينتجها، عن مزيج من التجارب التي تعكس صوراً حيّة للبيئة المكانية، والمرحلة التاريخية، ولا سيّما ضمن التحولات في البُعد المجتمعي العام، مما من شأنه أن يثري الثقافة ويساهم في تفعيل دورها بكل مكوناته، ليشكل دعامة للوعي وقاعدة لمواجهة التحديات.

ويظل المثقف والمبدع والكاتب العربي عموماً بتجاربه ورؤاه حاملاً لمشعل التقدم إلى الأمام، وصوت شعبه وضمير أمته الصادق نحو الحياة الحرّة الكريمة والكرامة الإنسانية. ورغم أن هذا المثقف لا يحمل سلاحاً ولا يقود دبابة، إلا أن قدره بحكم مسؤولية الفكر والتعبير والرأي تجعله الأكثر إحساساً إنسانياً بالمعاناة وإدراك أسبابها ومواضعها، والبحث عن سُبُل فتح منافذ الإصلاح. كما أن التنمية الثقافية هي أساس التنمية الشاملة وبناء الإنسان، وفي ضوء ذلك يتبلور دور المثقف وأهميته.



المشرق «تعزيز للجوامع بعيداً عن الفوارق»

الحسن بن طلال*

تختزن الذاكرة الجمعية لأعمدة الأمة الأربعة (العرب والتُرك والكرد والفُرس) خلاصة تجربة الحضارة العربية الإسلامية عبر التاريخ، وهي ذاكرة تقوم على إنجازات إنسانية عميقة في مجال الفلسفة والطب والعلوم والآداب. إن مجرد استدعاء هذه الذاكرة، واستعادة منجزاتها، يجعلنا نتساءل عن مبررات الدعوة لاستعادة دور «المشرق» في عالم اليوم، الذي يقوم على تكتلات عديدة لها أسبابها ودوافعها السياسية والاقتصادية؛ إنّ مبرّرات استعادة دور المشرق مشروعة في زمن استفحال صراع القوى السياسية الدولية على أرض المشرق التاريخية، ونعتقد أن هذا أوان استعادة دور المشرق الفكري والحضاري والإنساني، وبالتالي تأكيد دوره وتفعيل حضوره، الذي يتحقق في الجوامع الثقافية والذاكرة الجمعية لأعمدة الأمة الأربعة.

---

* رئيس منتدى الفكر العربيّ وراعيه.

إن العودة إلى أدبيات أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ومطلع القرن العشرين، بمراجعة الصحافة في بلاد الشام ومصر وصحافة المهجر أيضاً، تطرح فكر «النخبة» الذين كانوا ينادون بنهضة «الشرق» وباستعادة دور «المشرق» الحضاري، فقد كانت الأديبة ميّ زيادة والكاتب اللبناني المهجري أمين الريحاني وغيرهم من الشخصيات المبدعة، ينادون في محاضراتهم ومقالاتهم بنهضة «المشرق»، ويؤكدون أن للمشرق شخصية حضارية يجب أن يتم إيقاظها وبعثها من جديد، في إشارة إلى الإحساس بالحضور الفكري والتراثي لروح المشرق مع يقظة روح النهضة.

وقد كان جدّي الملك المؤسس عبدالله بن الحسين على وعي بدور المشرق، وبضرورة بعث دوره من جديد، فقام بطرح الفكرة في زيارته لطهران على شاه إيران، وجدّدها في زيارته لتركيا، وحرص على إقامة تمثيل دبلوماسي للمملكة الأردنية الهاشمية في أفغانستان، مع مطلع الخمسينيات من القرن الماضي، في حين كان مشروعه القومي يقوم على الوحدة الحتمية «لسوريا الكبرى» التي كان يراها قلب المشرق وروحه النابضة، وهذه مقدمات لا يمكن إغفالها عند الدعوة لاستعادة دور المشرق في عالم اليوم، إنها الركيزة التي تجعل من هذه الدعوة حالة لها خلفياتها التراكمية في وجدان شعوب المشرق.

و«المشرق» ليس مصطلحاً جغرافياً تقليدياً، فهو إقليم له مكوناته العميقة، بمساحات مركزية في قلب العالم، وتعداد سكاني يصل إلى مئتي مليون نسمة وبمكونات ديموغرافية تختزن تراثاً وفيراً وعميقاً من الفكر والثقافة والثراء الروحي، ومقومات اقتصادية هائلة لا يستغني عنها العالم، وهذا يجعله وحدة مركزية تقف جنباً إلى جنب مع التجمعات القائمة مثل دول الفيزا غرادو أسيآن، وهيئة أوروبا الاقتصادية، فلماذا نعطل كل هذه الفعاليات في هذا الإقليم ونُجمّد دورها في المشاركة بصناعة الزمن القادم؟

هل يصبُّ هذا التعطيل لكل هذه الفعاليات في مصلحة دول المشرق، أو في المصلحة الدولية والإنسانية؟ وإلى متى تبقى هذه الفعاليات بعيدة عن المشاركة في صنع القرار العالمي؟

نحن على وعي تام بالاختلافات والتحديات التي يمكن أن تقوم في وجه تحقيق وحدة «المشرق» فهذا عالم مختلف عن مطلع القرن الماضي ومنتصفه أو حتى ما قبل التسعينيات منه، لكن العالم المتغير ما يزال بحاجة إلى روح المشرق بالدعوة لإيجاد صيغة علاقات تستند إلى كرامة الإنسان والتكافؤ والاحترام المتبادل والعيش المشترك وإلى العدالة وسيادة قيم التسامح، والقبول بالتنوع وتعظيم الحق في الاختلاف، وتعزيز أهمية التعددية الثقافية واللغوية والدينية، باحترام الهويات الفرعية والخصوصية الثقافية، ورفض الإقصاء أو الإلغاء، كل هذه القيم الإنسانية التي اهتزت في زمن ممارسات أشكال الإرهاب والخوف، والتي جرى بعض أحداثها على أراض من إقليم المشرق بطريقة مؤسفة، يجعلنا أكثر إصراراً على تفعيل فكرة هذا التجمع، لاستعادة دور المشرق في التشكّل والتجدّد والبقاء وإثبات الحضور.

إن ما نحتاجه هو وضع قواعد لعقد اجتماعي لتنظيم دول إقليم المشرق، وتأكيد أهمية بناء دول تحكمها القوانين التي تقوم على احترام حقوق الإنسان وضمان كل أشكال الحريات. كما لا يغيب عن بالنا دور المجتمع المحلي في كل دول المشرق، والذي يشكل دعامة قوية لتفعيل دور الإقليم، فقناعة المجتمعات المحلية في دول إقليم المشرق هي الأساس لنجاحه، وهي الأرضية الصلبة التي تضمن رفض الإرهاب بكل أشكاله، وإقامة مجتمع القانون والعدالة والمساواة.

وأخيراً، فإننا نرى في استلهام تجربة «الدستور العربي الفيصلي» كدستور مدني متميز، قام على أسس احترام الآخر، في دولة القانون، حيث استوعبت هذه

التجربة قبل قرن، الاختلافات والتعدد الثري على الأرض، وهو نموذج يستحق القراءة وإقامة الحوار حوله، لطرح الصورة المستقبلية للعلاقات في إطار إقليم المشرق، ولا يغيب عن بالنا نجاح الحضارة العربية في الأندلس باستيعاب كل أشكال التعدد على الأرض، وكلها نماذج تستحق الاستلهام، والبناء عليها في استعادة دور دول المشرق، في القيادة الفكرية والروحية لعالم الغد.

فهل نُعظّم معاً الجوامع الكبيرة لدى أعمدة الأمة الأربعة، ونستشرف المستقبل بصناعته بدلاً من أن تجرفنا الأحداث؟ سؤال لا يمكن تجاهله أو تأجيل الإجابة عنه طويلاً.

دراســات ومقــالات

تعدّديّة المجتمع ووحدة الدّولة

أ.د. أديب صعب*

(١)

أنواع التعددية

لا بدّ لأي فلسفة اجتماعية أو سياسية، بل لكل فلسفة، سواء أكانت في الدين أم في العلم أم في الأخلاق أم في غير ذلك، من مفهومين جوهريَّين هما التعدد والوحدة. وقد دارت فلسفة أفلاطون -وهي الأصل الأقدم لكل الفلسفات اللاحقة في الدين والعلم والأخلاق والفن والاجتماع والسياسة- على هذين المفهومين. وجاء أفلاطون بنظرية المُثُل التي تجد مصدر الكثرة ومآلها ومعناها في مبدأ مركزي أَطلق عليه أسماء مختلفة، لكنها ذات مدلول واحد في نظره، هي: الخير، الجَمال، الحق، الله.

وما دمنا في صدد الفلسفة الاجتماعية، فلنتناول مفهوم التعدد أولاً ثم مفهوم الوحدة بالنسبة إلى المجتمع.

في كل مجتمع أنواع من التعدد أو التنوع. هناك، مثلاً، تنوع في العلم والمستوى التربوي. حتى في حال إلزامية التعليم، نجد أفراداً يتابعون الدراسة الجامعية وآخرين لا يفعلون. كما نجد فئات يذهب أفرادها إلى معاهد مهنية. وفي كلتا

---

* أُستاذ الفلسفة في معهد القديس يوحنا الدمشقي اللاهوتي في جامعة البلمند/لبنان.

الدراستين الجامعية والمهنية تنوعات وتشعبات كثيرة. وربما غَصّت مجتمعات معينة ببعض ذوي المهن، كالأطباء والمهندسين والمحامين، فبات بعضهم يسعى إلى أعمال أخرى أو إلى البحث عن عمل خارج مجتمعاتهم. وتقيم بعض المجتمعات تمييزاً بين ذوي الياقات البيض، أي العاملين وراء مكاتبهم أو العاملين بقدراتهم العلمية، وذوي الياقات الزرق، أي العاملين في المصانع والممارسين أعمالاً تنفيذية عموماً، لا تحتاج إلى درجات جامعية عليا أو مهارات ذهنية مميزة.

هناك أيضاً تنوع في الطبقات الاجتماعية، مثل طبقة الأرستقراطيين أو البورجوازيين، والطبقة الوسطى، والطبقة الدنيا. وفي القديم كانت هناك طبقة العبيد، في نظُم اجتماعية تقبل بالعبودية، أي شراء الناس وبيعهم وتسخيرهم للأعمال الشاقة أو التي يترفّع عنها أبناء المجتمع من أي طبقة كانوا. وإذ يرتبط الوضعان الطبقي والمالي على وجه العموم، إلا أن هناك استثناءات. فرُبَّ عائلة تحمل لقب شرف عَرف أفرادُها الفقر في أحوال معينة، وربَّ عائلة حَقَّق بعض أفرادها غنى مادياً كبيراً. وقد يكون هذا الغنى أحياناً سبباً في تدرُّج العائلة أو فرع منها إلى طبقة اجتماعية أعلى. وما يزال الواقع الطبقي على أشدّه في بلدان مثل الهند، حيث يرتبط ارتباطاً حميماً بالعقائد الدينية الهندوسيّة.

إذا انتقلنا إلى التعدد العرقي، لوجدنا في معظم بلدان شمال أفريقيا عنصرَين طاغيَين هما العربي والبربري، وفي العراق عناصر عدّة كالعربي والكردي والتركماني. وفي لبنان نجد أعراقاً عِربية وسريانية وأرمنية وغير ذلك. كما نجد هذا التنوع العرقي في بلدان أُوروبية مثل بريطانيا وفرنسا وإسبانيا. والغالب أن يكون لكل عرق لغته، مثل الأمازيغيّة والكرديّة والسريانيّة والغاليّة. ومن أقوى وجوه الواقع العرقي ضعف هذه اللغات أمام اللغة المركزية الجامعة، كالعربية والإنكليزية والفرنسية والإسبانية. وطالما كان الصراع العرقي في المجتمعات دافعاً إلى حركات انفصالية وحروب أهلية.

أما التعدد الديني والمذهبي فهو واقع مجتمعات كثيرة جداً حول العالم. فهناك تعدد إسلامي-مسيحي في بعض البلدان العربية والأفريقية وسواها،

وتعدد بوذي-مسيحي في بعض بلدان جنوب شرق آسيا، وتعدد هندوسي-سيخي-إسلامي-مسيحي في شبه القارة الهندية... ناهيك بالتعدديات المذهبية ضمن المسيحية الأُوروبية وغير الأُوروبية، وضمن الإسلام العربي وغير العربي، وضمن البوذية اليابانية وغير اليابانية، وناهيك بالأديان المسمّاة «بدائيّة» والتي ما تزال منتشرة بين قبائل أفريقيا وأُستراليا وأميركا الجنوبية وسواها. وعلى غرار التعدد العرقي، طالما أدّى التعدد الديني أو المذهبي في المجتمع الواحد إلى حروب أهلية كانت من أعنف الحروب في تاريخ الجنس البشري. والصراعات الدموية التي نشأت بين الكاثوليك والبروتستانت، خصوصاً في فرنسا وألمانيا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، مثَل صارخ على هذا الأمر. وهكذا الصراع بين الهندوسية والإسلام الهندي الذي أدّى إلى نشوء باكستان «الغربية» وباكستان «الشرقية»، وهي بنغلادش لاحقاً.

تبقى أنواع كثيرة من التعدد، لعل أبرزها التعدد السياسي. ونجد حول العالم نظماً سياسية مختلفة، كالجمهوري والوزاري والاستشاري والملكي المطلق والملكي الدستوري. ويزخر القاموس السياسي بمصطلحات قد يكون أحبّها إلى الحكام والمحكومين جميعاً مصطلح الديمقراطية، وإنْ فسّرته كل مجموعة على هواها. ومن المفاهيم السياسية-الاقتصادية مفهوم اليمين الرأسمالي واليَسار الاشتراكي، ومنها في الآونة الأخيرة «النظام العالمي الجُديد» و«العولمة». وهناك أنظمة سياسية تتيح قيام أحزاب وتكتلات، وأنظمة أُخرى تَمنع نشوء بعض الأحزاب أو تتقيد بالحزب الواحد. وقد عَرفت بعض الأنظمة العربية أحزاباً قومية، دينية أو علمانية، وأحزاباً إصلاحية، وأحزاباً كانت تميل ذات اليمين أو ذات اليَسار، فيما طغى على العالم العربي عموماً نظام الحزب الواحد التوتاليتاري الذي يختلط فيه السياسي والديني أحياناً كثيرة.

لكن هَبْ أنّ بعض أنواع التعددية، مع ما يرافقها من مشاكل وصراعات، كانت عديمة الوجود في مجتمع أو آخر... هَبْ أنّ أبناء مجتمع معين كانوا كلهم من عرق واحد، وهذا شبه مستحيل عملياً إلا إذا انحرفنا بمفهوم المجتمع عن

معناه المقبول، أو هَبْ أنهم كانوا كلهم من دين واحد أو مذهب واحد، وهذا ممكن إذا أخذنا الانتماء بمدلوله الإسمي، فلا يتوهَّمنّ أحد أن التعددية تزول إذ ذاك من المجتمع. لأنه مع هذا كله، يبقى للتعددية معنى راسخ لا يمكن أن يزيله شيء، هو المعنى العددي[1]. هكذا، كل مجتمع تعددي شاء أم أبى، وسوف يبقى على الدوام وتحت كل الظروف تعددياً شاء أم أبى، بمعنى تكوُّنه من أفراد، أي من عدد. قد يكون هذا المجتمع عربياً خالصاً أو كردياً خالصاً، مسيحياً خالصاً أو مسلماً خالصاً، سنّياً خالصاً أو شيعياً خالصاً، لكن هذا «النقاء» العرقي أو الديني لن يزيل عنه البتّة سمة التعددية.

التعددية بالمعنى العددي، إذاً، هي واقع كل مجتمع. وهذا هو المعنى الأصيل والأقوى لمفهوم التعددية الاجتماعية، حيث تبقى التعددية قائمة تحت كل الظروف، ويتعذر مَحْوُها أو تبديلها أو تعديلها. ويجدر بكل المنظِّرين في الاجتماع والسياسة والفلسفة والدين إدراك هذه الحقيقة البديهية. وهذا الإدراك يَستتبع أخذ الحقيقة المذكورة في الاعتبار من جانب المخططين والمنفذين وكل العاملين في إدارة شؤون المجتمع.

(٢)

أنواع الوحدة

لكن التعدد لا يمكن ولا يجوز أن يبقى منفلتاً من كل تنظيم أو توحيد. وما المعارف والعلوم والنظُم المختلفة التي تَوصَّل إليها الإنسان سوى محاولات لاكتشاف مبادئ تتوحد حولها الظواهر. لماذا توضع ظواهر متعددة تحت اسم واحد، مثل: جيولوجي، بيولوجي، فيزيائي، علمي، سياسي، ديني، فنّي، هندي، ياباني، أميركي، فرنسي، عربي، صيني، بوذي، مسيحي، مسلم، كاثوليكي، أرثوذكسي، سنّي، شيعي، ديمقراطي، جمهوري، شيوعي، اشتراكي...؟ أليس لأن ثمة حالات تتشابه، على تعددها وتباينها، في خصائص معينة؟ لو كان واقع الأشياء واقع تعدد مطلق، لأدّى هذا إلى التهافت وانغلاق أبواب الفهم والتفاهم بين الناس.

ثمة حاجة، إذاً، إلى اكتشاف مبادئ نظام أو وحدة في مختلف ظواهر الوجود، وأحياناً إلى افتراض مبادئ من هذا النوع أو حتى فرضها على بعض الظواهر. وأكتفي بمثلين عن هذه الوحدة، هما **الشخصية** على الصعيد الفردي **والدولة** على الصعيد الاجتماعي[٢].

في تجربة كل فرد تعددية هائلة، تتعاقب فيها تيارات الزمان والمكان والأشخاص والظروف والحالات. في غياب عملية تنظيمية تضبط هذا التعدد في وحدات معينة، من الطبيعي جداً أن يُصاب الفرد الذي تحصل له التجارب بالتهافُت النفسي. والكثير من الأزمات النفسية التي يعانيها بعض الأفراد ترتبط بالعجز عن تبنّيهم أو ابتكارهم قوانين توحيدية من شأنها حفظ خبراتهم المتنوعة ضمن مبادئ تنظِّمها أو توحِّدها.

إن الذين يطلقون العنان لتجارب الحياة تتقاذفهم من غير أن يتوقفوا بين الحين والآخر للتأمل فيها والبحث عن معناها يشبهون قوماً قال فيهم الشاعر تي. إس. إليوت: «كانت لنا التجربة لكن فاتَنا المعنى»[٣]. هذا المعنى هو بالذات ما نقصده بالوحدة أو بالمبدأ التوحيدي. وهو، بالنسبة إلى الأفراد، ذو مصادر متنوعة: فبعضهم يستمدّه من انتمائه الديني، وبعضهم من انتمائه السياسي، وبعضهم من انتمائه الفكري، فيما يستمده آخرون من تأملاتهم ومواقفهم الشخصية. حتى الذين ينادون بالعَبَث يرون في هذه العبثية أو اللامعنى نوعاً من المعنى. وبعضهم ممّن يجد معانٍ عظيمة للحياة مستمَدّة من مصدر ديني أو اجتماعي أو إنساني قد يَفقد المعنى على أثر خبرات معينة مثل الموت أو خيبة الأمل. وإذ يجد الفرد نفسه متروكاً وسط تعددية هائلة من التجارب لا ينظّمها أو يربطها أي رابط معنوي، فهو قد يلجأ إلى أُمور مثل الانتحار هرباً من مأزق لا قدرة له على احتماله. وفي علمَي النفس والاجتماع والعلوم السلوكية عموماً دراسات كثيرة لظاهرة الانتحار، حَدَّدت أحياناً دوافع هذه الظاهرة في فَقْد المعنى أكثر من تحديدها في اللامعنى.

وإذا كانت الشخصية مبدأ الوحدة على الصعيد الفردي، فالدولة هي مبدأ الوحدة على الصعيد الاجتماعي. بين الأمثلة التي أعطيناها عن التنوع أو التعدد الاجتماعي، ذكرنا التعدد الطبقي والعرقي والديني والسياسي. لكن كما في حال النفس البشرية، لا بدّ من أن يؤدي التعدد المطلق، أي ذاك الذي لا توحّده مبادئ معينة، إلى فوضى أو تهافت على الصعيد الاجتماعي. وهذا واقع بعض المجتمعات، حيث الأعراق المختلفة أو الأديان المختلفة أو المذاهب المختلفة أو الأحزاب والتكتلات السياسية المختلفة أقوى من الدولة. وطالما حاولت إحدى هذه الفئات أن تكون «دولة في قلب الدولة»، أحياناً بهدف فرض المبدأ التوحيدي الذي يلائمها. وطالما حصل، باسم الديمقراطية أو مفهوم الأكثرية، تغليب عرق على بقية الأعراق أو دين على بقية الأديان أو مذهب على بقية المذاهب، بهدف بثّ الوحدة في مجتمع معين. وليس من النادر تحقيق التوحيد السياسي عبر اعتماد نظام الحزب الواحد، أي حزب السلطة، وحظْر كل حزب آخر، مع ما يستتبعه ذلك من هيمنة «رسمية» على الإعلام والتعليم والجمعيات الأهلية وكل المرافق الاجتماعية. لكن في أنظمة سياسية أُخرى يتمّ التوحيد على أُسس تأمين الحرية والعدالة والمساواة للجميع، من غير إقصاء أي فئة، عرقية أو دينية أو مذهبية أو سياسية أو سواها، عن جسم الدولة.

يمكن أن تتحقق الوحدة الاجتماعية، إذاً، وفق نمطين رئيسيين: أحدهما يقوم على اقتطاع عنصر معين من عناصر التعددية الاجتماعية وبناء قاعدة الحكم عليه. وغالباً ما يحصل هذا الاقتطاع على أساس أغلبيّة ما: عرقية أو دينية أو مذهبية أو سياسية. لكن إحدى الأقلّيات قد تتولى السلطة أحياناً وتفرض إرادتها على الأكثرية. ولئن كان هذا النوع من التوحيد، خصوصاً ذاك الذي تبادر إليه إحدى تعدديات المجتمع بحكم تفوقها العددي عرقياً أو دينياً أو سياسياً، أبسطَ الأنواع وأكثرها مباشَرةً، إلا أنه ليس أفضل أنواع التوحيد على الإطلاق. فهو يبقى بعيداً عن هدف تحقيق العدالة، مهما حاولت الفئة «الغالبة» وضع الفئات الأُخرى «في ذمّتها» وادّعت «التسامح» في معاملتها. فالتسامح، في

مفهوم كهذا، ناقص جداً بل مشوَّه، إذ يرتكز إلى أن صاحب القوة أو الغلبة أو السلطة وحده في الحق أو في الحق الكامل، وأنه يتساهل مع سواه ممّن هم في بعض الحق أو حتى في انحراف عنه، لأن مبادئه، الدينية أو سواها، تملي عليه الشهامة تجاه الآخرين أو أَخْذهم بمبدأ «العفو عند المقدرة»[٤].

النمط الآخر من التوحيد هو ذاك الذي تتحقق فيه الوحدة الاجتماعية لا على حساب التنوع أو عبر طمس التنوع أو إضعافه، بل وسط التنوع أو ضمن التنوع. هذا يَستبعد أن تكون أداة التوحيد عنصراً من عناصر التنوع. وما دمنا نتكلم عن الوحدة الاجتماعية التي تجسّدها الدولة، فهذا النمط التوحيدي يقضي بأن تكون الدولة آلة إدارية لا داعية عقيدة[٥]. لأنها إذا تبنّت عقيدة دينية معينة، مسيحية مثلاً، فَقدت ولاء غير المسيحيين، وإذا تبنّت عقيدة إسلامية فَقدت ولاء غير المسلمين. وهكذا إذا تبنّت عقيدة سياسية، شيوعية مثلاً أو قومية من فئة معينة. وظيفة الدولة أن تستوعب تعددية المجتمع من غير أن تطمسها أو أن تُبرز فئة، مهما غلبت عددياً، على سواها. حتى في حال انتماء كل أفراد المجتمع إسمياً إلى مذهب ديني واحد، يجب أن تحقق الدولة وحدة المجتمع على أساس تعدديته بالمعنى العددي الذي هو، كما قلنا، المعنى الأصلي للتعدد. فالإكراه لا يجوز، إنْ في الإيمان وإنْ في التفسير الديني وإنْ في الموقف من العلاقة بين السياسة والدين.

هذا النمط من الوحدة الاجتماعية أو من النظام السياسي الذي نزكّيه، إذاً، وهو الوحدة في التنوع، يهدف إلى بثّ النظام والانسجام في الجسم الاجتماعي. وفي غيابه تتنافر تعدديات المجتمع وتتصارع، ويغيب السلام والأمن الاجتماعيّان لتَبرز الفوضى والحروب الأهلية، الدينية والعرقية وسواها. ولعل من الصعوبة القبض على هذا النوع من الوحدة ومحاولة تحديده وتسميته. فهو نوع من وحدة الجوهر أو الروح وسط تنوع المظاهر واختلاف الأسماء. وعندما حاول الفيلسوف البريطاني جون لوك تحديد هذا العنصر، قال إن «الجوهر شيء غامض يحمل الأعراض»[٦]. ولئن آثَر ديفيد هيوم الاكتفاء بالأعراض، أي بالتعددية المطلقة، والاستغناء عن الجوهر الذي يوحّدها وعن غموضه، خصوصاً لأن هذا الجوهر

لا يتكشف للحواس، وهي السبيل الوحيد إلى المعرفة لدى هيوم، إلا أن جورج باركلي، وهو أحد التجريبيين البريطانيين، كان قد جَعل من مفهوم الجوهر لبّ فكره، موضحاً أن هذا الجوهر، حتى بالنسبة إلى الأشياء المادّية، هو حقيقة روحية. ثم انبرى الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط ليعترف بفضل هيوم عليه في إيقاظه من «سُباته العقائدي» لجهة عدم القدرة على البرهان التجريبي الحسّي عن حقائق من نوع الجوهر وقانون السببية والانتظام الطبيعي، لكنْ ليشدد في الوقت نفسه على استحالة قيام أي علم وحتى أي سلوك عملي بعيداً عن هذه المفاهيم التي لا بدّ من افتراضها أو فرضها، باسم البديهة العقلية، على الوجود.

(٣)

الدين والقومية

اليوم يجد اللبنانيون أنفسهم معلَّقين بين عالمين، أحدهما مات والآخر لم يولد بعد. التحدي هو الآتي: كيف تتحقق الوحدة ويبقى التعدد؟ كيف نصون التعدديات ونجعل منها عامل استقرار بدل أن تكون عامل فوضى وصدام؟ ما هو نموذج الحكم المنشود، الذي تكون فيه الدولة وحدة وسط التنوع؟

لنأخذ نقطة انطلاقنا من العامل الطائفي بما أن له اليد الطولى على صعيد السياسة والوظيفة والشأن العام في لبنان. ما هو شكل الحكم اللبناني الكفيل بتحقيق الوحدة وسط تنوع الأديان والمذاهب؟ طبعاً، كلامنا عن الوحدة في التنوع يستثني أن تتولّى طائفة معينة عملية التوحيد باسم تفوقها العددي وبما يخدم مصالحها الشكلية. ومن الخطأ الفادح أن يظن بعضهم، من مسلمين معظم الأحيان ومن مسيحيين أحياناً، أن المسيحية لا تَرفع تحدياً حقيقياً في وجه قيام دولة إسلامية في لبنان لأن المسيحية، حسب ظنّهم، دين يحصر اهتمامه بالآخرة، وليس ديناً ودولة كالإسلام[٩]. إن المسيحية والإسلام، وكذلك اليهودية والهندوسية والبوذية والزردشتية والكونفوشيوسية وكل دين بلا استثناء، هو، بمعنى عميق جداً، «دين ودولة» في آنٍ معاً. فالدين نظرة إيمانية شاملة إلى

الوجود، تتناول كل شيء في حياة الإنسان، بما في ذلك المجتمع والسياسة والدولة، ولا تبقي شيئاً خارجاً.

ولئن أعلنت المسيحية تمسكها بالسماويّات في قولها: «ليس لنا هنا مدينة باقية»[١٠]، فالإسلام يؤكّد هذا الإعلان عبر قوله بأنّ «الآخرة خيرٌ وأبقى»[١١]. وهذا مصداق لقول المسيح: «مملكتي ليست من هذا العالم»[١٢]، الذي يفصله بعضهم عن سياقه ويدعمونه بقول آخر للمسيح: «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما للّه للّه»[١٣]، ليستنتجوا خطأً أن المسيحية غير معنية بهذا العالم. والأحرى أن المسيحية والإسلام وكل الأديان «ليست من هذا العالم»، بل هي من السماء أو من الله، لكنها وُجدت لهذا العالم أو من أجله، كي تحوّله بل تعيده، كما تستوجب النظرة الإيمانية، إلى ملكوت أو ملك اللّه، عبر كل الوسائل الممكنة، بما فيها سياسة المجتمع وإدارة الدولة ونظام الحكم.

لكن إذا كانت المسيحية ديناً ودولة والإسلام ديناً ودولة واليهودية ديناً ودولة والهندوسية ديناً ودولة والبوذية ديناً ودولة وكل دين، بمعنىً، ديناً ودولة، فلأي دين تحقّ سلطة الحكم في مجتمع ما؟ إلى حد كلامنا عن لبنان، حيث لا أكثرية غالبة مذهبياً بقوّة، من غير العدل أن يكون لمذهب معين الكلمة الفصل في الحكم. لكنْ وإنْ كان لبنان، أو غير لبنان، من غالبية مذهبية معينة، وحتى لو انتمى المواطنون إلى مذهب واحد، يبقى الحكم الديني غير مستحَبّ لتَعدُّد التفسيرات والاجتهادات والمذاهب الفقهية، ولأن الإيمان لا يُفرَض بقوانين، ولأن الحكم باسم الله يتولّاه بشر لهم حدودهم وأهواؤهم ومصالحهم. وفي كل مكان عِرَف الحكمَ الديني، كائناً ما يكون اسم الدين، حُكّاماً رَوَّعوا شعوبهم وشعوباً أُخرى وقمعوها واضطهدوها باسم الدين وتفسيراته القويمة، وبأخبار حركات «تصحيحيّة» انقلب فيها حاكم على آخر دموياً وحصلت كلها تحت شعار «الخط القويم». وأتذكّر هنا قولاً للفيلسوف الألماني لودفيغ فويرباخ: «حيثما أُقيمَ الحق على السلطة الإلهيّة، يمكن تبرير أشد الأُمور سوءاً وظلماً»[١٤]. وإذا كان الحكم باسم الله ظالماً للبشر، فهو بهذا يَهزم الدين وقضيته، كما يَظلم الله لأنه يحمّله نقائص الحكام وموبقاتهم.

لنذكر على الدوام أن كل مجتمع تعددي، شاء أم أبى، بالمعنى العددي، أي معنى تكوُّنه من أفراد، وأن لكل من هؤلاء الأفراد -وإن انتموا إسمياً إلى مذهب واحد- موقفه من الإيمان وفهمه وتفسيره للنصوص الدينية ونظرته إلى السياسة ونظام الحكم والعدالة الاجتماعية. وهدف الدولة إتاحة أفضل الظروف أمام جميع الأفراد الذين يتكوّن منهم النسيج الاجتماعي لكي يحققوا ذواتهم ويتعايشوا بسعادة وطمأنينة وسلام.

في سعي الأفراد والشعوب نحو هذه المطالب خلال التاريخ، تبيَّن أن أفضل الأنظمة الاجتماعية أو السياسية الكفيلة بتحقيقها هي تلك القائمة على قيم الحرية والعدالة والمساواة واحترام كرامة الإنسان. وهذا عين ما يدعو إليه، لا دين بعينه بل كل الأديان، التي تتلاقى على أن أعلى ما في الإنسان كرامته، وهي آتية من كونه مخلوقاً على صورة الله ومثاله. والدولة التي تنتهج هذه القيم من دون إعلاء دين على دين آخر أو مذهب على مذهب آخر أو موقف إيماني على موقف إيماني آخر أو تفسير على تفسير آخر هي الدولة الدينية الفعلية. وهذه أقرب إلى جوهر الدين من الدولة الدينية الإسمية، أي تلك التي تكتفي بالتفاصيل والقشور في حين تنتهك مبادئ الحرية والعدالة والمساواة واحترام كرامة الإنسان حفاظاً على أسماء ومظاهر مفرغة من محتواها.

وإذا كانت «العلمانية القاسية» أو «المتطرفة» هي تلك التي لا تكتفي بفصل الدين عن الدولة بل تحاول إقصاءه عن المجتمع، و«العلمانية الليّنة» أو «المعتدلة» هي تلك التي تفصل الدين عن الدولة لمصلحة الدولة والدين كليهما، فما سميناه «الدولة الدينية الفعلية» يتلاقى مع النظام السياسي العلماني بالمعنى الليّن أو المعتدل[١٥]. وإذا استطاع نظام الحكم الانسجام مع جوهر الدين فهو إنما يساهم في تحقيق أهداف الدين بعيداً عن التحجر ضمن شكليات لم ينتج منها سوى الويل خلال التاريخ، الأمر الذي يخون قضية الدين.

ثمة مسألة رئيسية أُخرى ذات علاقة بمفهومَي التنوع والوحدة: كيف تكون الدولة في لبنان أداة توحيد وسط ثلاث دعاوى قومية مختلفة تتوزع على معظم

الأحزاب السياسية وتنادي بالقومية اللبنانية والقومية السورية والقومية العربية؟ صحيح أن الحميّة القومية، في لبنان وحول العالم، شهدت ضعفاً أكيداً مع بداية الألفية الثالثة وسط دعوات العولمة وهيمنة القوة الأحاديّة التي تمثلها الولايات المتحدة الأميركية، وبعد الخيبات الكثيرة التي عرفتها الحركات القومية حول العالم. لكن تبقى التوجهات القومية للحركات السياسية في لبنان، خصوصاً في غياب التنظير المتفاعل مع الوضع العالمي الجديد، أسيرة أُطرها التقليدية عموماً. وإذا كان لكل من هذه الدعاوى القومية جذور تاريخية راسخة، فليس معنى هذا أن تتصارع الأحزاب القومية للسيطرة على الدولة، حيناً باسم القومية «الأقدم» في تاريخ لبنان، وهي السورية، أو باسم القومية المرتبطة بالغالبية العددية السنّية في المنطقة، وهي العربية، أو باسم قومية العصور الحديثة، وهي اللبنانية.

لكل من هذه الدعاوى القومية، كما قلنا، جذورها التاريخية. وإذا استطاعت إحداها تولّي الحكم في لبنان عن طريق حزب أو آخر من الأحزاب التي تمثلها، فالخوف من غلبة القوميين العرب، مثلاً، أو السوريين بالنسبة إلى القوميين اللبنانيين آتٍ من القضاء على الكيان اللبناني عبر تذويبه في جسم أكبر، مع ما قد يستتبعه ذلك من إخضاع للمسيحيين تحت راية إسلامية. وخوفُ القائلين بالقومية السورية من غلبة الدعوى اللبنانية الانعزالُ في الحاضر والتنكر للماضي، ومن غلبة القومية العربية إحلالُ الدولة الدينية مكان الدولة المدنية أو العلمانية. كل فئة، بدورها، تخشى أن يؤدي انتصار سواها إلى خيانة التاريخ الذي تظنه منحازاً إليها، هذا التاريخ الذي، كما في تعبير الشاعر تي. إس. إليوت مرة أُخرى، «قد يكون عبودية وقد يكون حرّية»(١٦).

إن هويّة شعب ما تأتي لا من ماضيه فحسب، بل من حاضره ومن مستقبله أيضاً، أي مما هو اليوم ومما يودّ أن يكون. لذلك يجدر أن تلطِّف الأحزاب «الجغرافية» في لبنان، وهي تلك التي تختلف في ما بينها حول تحديد حدوده، من غلوائها التاريخية. فالسؤال الذي طرحه أنطون سعادة يوماً، بمنهجيته العلمية الرصينة، «مَن نحن؟»، وأجاب عنه بأننا «سوريّون، والسوريّون أُمّة تامّة»(١٧)،

يمكن أن يأتي جوابه أننا «عرب» أو «لبنانيّون». كما لا تكفي الإجابة عما كنّاه يوماً لتقرير ما يجب أن نكون في المستقبل القريب أو البعيد.

المطران جورج خضر، بروحانيته الأصيلة ورؤيويّته العميقة وثقافته الواسعة، لاحظَ هذا الأمر وعالجه في غير موضع[١٨]. وكتب أنّ «عقدتنا هذه الرقعة الصغيرة التي نعوِّض عن ضيقها بتوسيع تاريخنا، برجوعنا إلى الماضي السحيق وقد انقطع أكثر من سبب بيننا وبينه»[١٩]. وهاله أنّ التاريخ يبتلع شعبنا الذي «يتعبَّد له حتى الأسر... وكأن هويّة الجماعات لا تذاق إلا في الذاكرة. لا أحد منا يفتش عن هوية يريدها مكونة من تطلعاته»، إذ «الهوية أصلاً في ما نعمله تنشأ من الحرية»[٢٠].

لكن إذ لا يمكن لكل الدعاوى القومية الثلاث أن تمتلك لبنان في آنٍ معاً، كما لا يجوز لإحداها امتلاكه عنوةً وإخماد الدعويَين الأُخريَين، يبدو أن الحل المنسجم مع مبدأ الوحدة في التنوع هو ذاك الذي يبقي هذه الدعاوى حية لدى اللبنانيين، لكن من غير أن تكون إحداها ملغيةً للأخرى أو مقصورة على فئة من اللبنانيين دون سواها. إن شرط إبقاء هذه الدعاوى حية، إذاً، هو تجريدها من إلغائيتها القومية والاحتفاظ بمحتواها الحضاري. فاللبنانيون كلهم «لبنانيون» وكلهم «سوريون» وكلهم «عرب». ويمكن أن يظهر الوفاء لهذا الواقع التاريخي في نظام عصري متطور للحكم يعزز إنجازات لبنان في الديمقراطية والحرية والتربية والثقافة والإعلام والاقتصاد وغير ذلك، وتنتصر فيه هذه الدعاوى الحضارية، بسلام وانسجام، عبر نظام تربوي تجسّده كتب التاريخ والإنسانيات على وجه الخصوص، كما تجسده سياسة الدولة العامة وأحلافها وولاءاتها.

صحيح أن لبنان كيان محْدَث أدّت إلى إنشائه ظروف معينة، وأنه قبل ذلك الحين كان جزءاً من كيان أكبر. غير أن المسيرة التي اختطَّها هذا الكيان الحديث لنفسه في المناحي المذكورة، السياسية والاقتصادية والتربوية والإعلامية وسواها، على ما شابَ هذه المسيرة من نقائص ومساومات وعيوب واستئثار أحياناً، جعلته طليعة البلدان العربية في اعتماد قيم الحرية والعدالة والمساواة، وجعلت منه

نموذجاً في مجالات كثيرة، يجدر بكل بلد عربي أن يحتذيه عندما يقرر هذا البلد أو ذاك أن يضع نفسه على خريطة العالم المتحضر[٢١]. لا بل إن لبنان، كما قال أنطون سعادة، إذا كان نوراً، وهو حقاً هكذا، فأحرى بهذا النور أن يشعّ ويَشيع في كل ما حوله[٢٢].

ثمة حاجة، إذاً، إلى لبنان الكيان، لا لأنه «أزَليّ» كما يتبجَّح بعضهم، بل لأنه أثبت أنه ضرورة لا يستغنى عنها في المجالات التي تحقق إنسانية الإنسان عبر احترام حريته وكرامته. إنه لمن قبيل الكفر أن نزعم أنّ أي كيان غير الله الخالق يتمتع بالأزلية، أي أنه كان في البدء، قبل أن يكون أي شيء آخر. الأزلية صفة الخالق وحده... «أفَمن يَخلق كمن لا يَخلق؟»[٢٣].

وكما أن كل شيء وُجد في الزمن يخضع لأحكام الزمن، فما ليس أزلياً يستحيل أن يكون أبدياً. لذلك كان استمراراً لمنطق الكفر نفسه نَعْتُ لبنان، وأي وطن آخر على وجه الأرض، بالأبدية. وحده لا نهاية له مَن لا بداية له، أي الله تعالى. ولئن كانت الأوطان قديمة جداً في التاريخ، فهي، على قِدَمها، تبقى حادثة في الزمن وخاضعة لأحكامه وحركته. لذلك تخيفني فكرة «الوطن النهائي» التي ابتكرها نفَر من المسيحيين وأقرّوها في مؤتمر الطائف، أو بالأحرى صلح الطائف، كي يردّوا عنهم خطراً طالما أخافهم، هو خطر إلغاء الكيان اللبناني عبر ارتهانه أو إضعافه أو تذويبه في وحدة سوريّة أو عربية من شأنها تأكيد أقليتهم العددية ووضعهم في ذمّة سواهم والقضاء عليهم شيئاً فشيئاً. وكان أن قَبِل هذا النفر المسيحي بعروبة لبنان إزاء قبول مواطنيهم المسلمين بكَون لبنان وطناً «نهائياً» لجميع أبنائه.

اليوم إذ تنحسر، مع الأسف، دعاوى العروبة حول العالم العربي باسم تجمعات مذهبية أو عرقية أو سواها، أرى لزاماً على المفكرين الاجتماعيين والسياسيين وعلى المثقفين عموماً العمل من أجل إعادة تحديد مفهوم العروبة، وهو وحده الكفيل بإقامة الوحدة السليمة وسط التنوع في العالم العربي وتأسيس كيان عربي قوي يَتَّخذ شكلاً أو آخر من أشكال الاتحاد الاقتصادي - الثقافي -

السياسي. والمعنى المنشود للعروبة يتجاوز العرقية، بحيث يكون أكراد العراق عرباً لا أقل من سواهم، وبربر المغرب عرباً لا أقل من سواهم، والسريان والأرمن في بلاد الشام عرباً لا أقل من سواهم، ويهود فلسطين عرباً لا أقل من سواهم... كما يتجاوز الطائفية ليكون السنّة والشيعة والمسيحيون بمختلف مذاهبهم وكل الفئات الدينية فوق الأرض العربية عرباً بالتساوي.

وما دمنا في ذكر العروبة، فلا يجوز أن ننسى دَور المسيحيين الجليل في صنع النهضتين العظيمتين فوق هذه الأرض: النهضة العربية الأُولى خلال العصر العباسي، والنهضة العربية الثانية في العصر الحديث، التي كان للبُّنانيين اليد الكبرى فيها. ويصف المطران جورج خضر هذه العروبة الحضارية بأنها «عروبة بيضاء لا تتنكّر للتراث الشرقي القديم ولا للإنسان المعاصر المبادر، وذلك في رقعة عربية تضيق أو تتّسع»[٢٤]. أجل، «تضيق أو تتّسع» لأن الأوطان لا يمكن أن تكون «نهائية» ولا «أزلية» ولا «أبدية»، مهما امتدّ ماضيها وأَوغل في حقَب التاريخ «غير الجليّ»[٢٥]. ويعلن المطران خضر رفضه أن تكون «مشكلة الإنسان الأخيرة مرتبطة بكيان أرضي»[٢٦]، وأنه «يكره فكرة الوطن المسيحي» لتَمسُّكه «إلى أقصى حد باستقلال المسيحية عن كل أرض وعن كل حضارة... المسيحيون، في النهاية، غرباء، لا يتوَطّنون. إنهم السؤال الملحاح يُطرَح على كل كيان»[٢٧]، إذ «المهمّ في الأوطان مضمونها الروحي، قربانها الإنساني»[٢٨]. لذلك وَجد أن «الأهم من بحث الكيانات العربية وتوحيدها أن نعرف مضمونها الروحي ولون الثقافة فيها»[٢٩]. ويرى أن حاجة الإنسان إلى وطن لا تتعدى الحاجة «إلى مدى ينتقل فيه، إلى رمز. وقد تكون البطولة في البقاء إذا كنا دائماً واقفين على أرض غربة»[٣٠].

هذا النوع من الفكر واللغة والثقافة نادرٌ جداً أن نجده في مجتمعنا، وأكثر ندرةً أن نجده عند رجل دين. من الطريف أن يتصدّى دارسون أكاديميون لتحليل الخطاب الديني والأدبيات الدينية العربية لدى كل الناطقين باسم الأديان والمذاهب. والراجح في هذا النطاق طغيان اللغة التقليدية والمفاهيم الموروثة وغياب الثقافة العصرية. أما جورج خضر فقد أقبلَ على الثقافة والكتابة

برسالة واعية، واصفاً مهمّته كمن يتكلم بضمير الغائب: «رأى أن المسيحية التي صمتت كثيراً بسبب الرزوح آنَ لها أن تتكلم الآن عن نهضة بلسان عربي فصيح. وقد رَفض قول القائلين أنّ أبَت العربية أن تتنصَّر»[٣١]. ولئن كان هذا الفكر موجَّهاً إلى كل اللبنانيين وكل العرب، وكذلك إلى كل قارئ، فهو منطلق من إيمان مسيحي وموقف مسيحي مسؤول. وهو باكورة ما يمكن أن يسمَّى فكراً أُرثوذكسيّاً عربياً، كان جورج خضر مبدعه ومطلقه، وما يزال، كما أرى، ممثله الأوحد.

هناك علمانيون أُرثوذكس سبقوا جورج خضر وكانوا طليعة ثقافية -فكرية- نهضوية في العالم العربي. ولعل أبرز هؤلاء أربعة، هم: أنطون سعادة، شارل مالك، قسطنطين زريق، ميخائيل نعَيمة[٣٢]. وقد تفاوَت هؤلاء في مواقفهم القومية، فدَعوا، على التوالي، إلى: القومية السورية، القومية اللبنانية، القومية العربية، الإنسانية الحضارية الجامعة المستقلة عن القوميات وإن ارتبطت بالموروث اللغوي الثقافي. هذا التنوع في مواقف الأُرثوذكس القومية جعل المطران خضر يصرِّح مراراً، خصوصاً إبّان الحرب الأهلية في لبنان، أن الأُرثوذكس «كنيسة، لا قبيلة»[٣٣].

إلى المفكرين الأربعة المذكورين، لمعت أسماء كثيرة لمثقفين ومفكرين وأُدباء وشعراء وصحافيين ومناضلين أُرثوذكس في الوطن والمهجر، ناصروا القضايا العربية وناهضوا الاستعمار. لكنّ يميِّز هؤلاء جميعاً عن جورج خضر أنهم كانوا علمانيين لا رجال دين. إنهم أُرثوذكس و مفكرون، أو مفكرون صَدَف أن كانوا من الطائفة الأُرثوذكسية[٣٤]. أما هو فكان مفكراً أُرثوذكسياً بل، كما قلنا، مبدع ما يمكن أن يسمى الفكر الأُرثوذكسي العربي. وهو، في فكره هذا، لم ينحرف طبعاً عن لاهوت كنيسته الذي وَجد أروع تعبير عنه لدى تلك المجموعة من المفكرين المعروفين بـ «آباء الكنيسة»، وبرز منهم أنطاكيّون سوريّون يمكن اعتبارهم، حسب مقولة العروبة الحضارية، عرباً قبل التعريب، إذ نشأوا على أرض أصبحت لاحقاً عربية. وخوفاً من طمس أي روافد تراثية من هذا النوع، الأمر الذي يؤدي إلى تغريب بعض المجموعات الدينية وسواها عن جسم العروبة، رأينا المطران خضر

يدعو إلى «عروبة بيضاء لا تتنكر للتراث الشرقي القديم». وإذ نتأسف لأن الفكر «الآبائي» الشرقي لم يجد طريقه بعد إلى الإحياء العصري المنهجي عبر نقله إلى العربية ودراسته على أيدي اختصاصيين[٣٥]، علماً أن الاختصاص اللاهوتي المحض في هذا المجال لا يجدي بانفصال عن الفيلولوجيا والفلسفة والإنسانيات عموماً، تكفي الإشارة إلى أن ما خَلَّفه جورج خضر من كتابات غزيرة متنوّرة يؤكد أن الفكر الآبائي لم ينقطع، وأن صاحبنا واحد من كبار آباء الكنيسة المعاصرين.

(٤)

مفهوم الوطن والمواطَنة

لا التعدد المطلق من دون وحدة، إذاً، كما رأينا في مثَل لبنان، ولا الوحدة التعسفية على حساب التعدد كما رأينا في مثَل البلدان العربية خارج لبنان – لا هذا ولا ذاك يشكّل فلسفةً لنظام سياسي سليم. لكننا نجد هذه الفلسفة، كما رأينا، في مفهوم الوحدة في التعدد. وإذْ يبقى ضرورياً جداً أن يعالَج هذا المفهوم على أيدي المثقفين ولا سيما المشتغلين في الفلسفة الاجتماعية والسياسية، فإننا نتمسك بنموذج الوحدة الذي أعطيناه على صعيدَي الدين والقومية. ونكرر أن الدولة العلمانية التي دعَونا إليها هي الدولة الدينية «الفعلية» تمييزاً لها عن الدولة الدينية «الإسمية». فهي لا تتبنى اسماً دينياً معيناً لئلا يستعدي عليها المواطنون المنتمون إلى أسماء دينية أُخرى، ولئلا تَفرض أي إيمان أو أي تفسيرات دينية خاصة على مواطنيها وإن انتموا إسميّاً إلى مذهب واحد، ولئلا تحمِّل الله وأنبياءه ورسله أوزار الحكام ومحدودياتهم. لكنها، في الوقت نفسه، تنتهج مبادئ الحرية والعدالة والمساواة واحترام كرامة الإنسان، «لأنّ هذا»، في أي حال، «هو الناموس والأنبياء»[٣٦].

أما نموذج الوحدة القومية بما يخص لبنان فهو إبقاء الدعاوى الحضارية السورية والعربية واللبنانية جميعاً حية، تربوياً وثقافياً وإعلامياً وسياسياً

واقتصادياً، لكن بعيداً عن رفع القومية أو الأُمّة أو الوطن إلى مقام الأُلوهة بإغداق صفات عليها من نوع «الأزلية» و«الأبدية» و«النهائية». حقّاً لقد حَقَّق لبنان إنجازات نهضوية، ثقافية وتربوية وإعلامية واقتصادية وسياسية، جعلته طليعةً في العالم العربي ونموذجاً يُحتذى في مجالات كثيرة. إلا أنه، لاتّباعه الحرية المطلقة وإطلاقه عنان التعدديات من غير ضوابط تؤلف في ما بينها، قَوّى نزوع بعض الفئات، الدينية وسواها، إلى التملص من سلطة الدولة المركزية وقوانينها والتصرف كما لو كانت «دولة في قلب الدولة». وهذا من شأنه أن يبقينا في التعددية الفوضوية المطلقة التي تحيل الدولة دولاً أو دويلات ويُحِلّ شريعة الغاب -مهما بدت الشرائع الخاصة جليلة في أعيُن أصحابها- مكان حكم القانون، ويضعِف مفهوم الوطن والمواطَنة.

ما يحتاج إليه لبنان لتحقيق الوحدة في التعدد على الصعيد السياسي هو دولة مركزية قويّة تجسِّد مفاهيم الوطن والمواطَنة. الإيمان الديني لا يشكِّل قضية على هذا الصعيد. وهذا يفسر قول الإنجيل بإعطاء ما لقيصر لقيصر وما للّه للّه. وفي القرآن آيات عدّة تشير إلى هذا الأمر، منها: «فمَن شاء فليؤمن ومَن شاء فليكفر»[٣٧]، و«لا إكراه في الدين»[٣٨]. وفي إحداها يخاطِب اللهُ تعالى نبيَّه ورسوله محمداً بقوله: «أفأنت تُكرِه الناس حتى يكونوا مؤمنين؟»[٣٩]. المطلوب، لحسن عمل الجسم الاجتماعي، قوانين تضمن الحرية والعدالة والمساواة وتردع تعديات الناس بعضهم على بعض، بصرف النظر تماماً عن تنوّعات إيمانهم وتجاربهم الدينية. ولئن كان لهذا الإيمان آثار إيجابية في تعزيز مفهوم المواطَنة الواحدة وسط مواقف المواطنين المختلفة من الدين والإيمان، فليبذل ذوو الإيمان ورعاتهم كل ما في وسعهم لتربية هذا الحس الديني النبيل في ذواتهم ولدى الرعية. بكلام آخر، إذا كان الإيمان الديني يعزز احترام القوانين المدنية والسلم الاجتماعي بجعل المؤمن مواطناً صالحاً يحترم القوانين ويحفظ الوعود والعهود أكثر من سواه، فهذا، في أي حال، يقع ضمن مسؤولية المؤمنين ورعاتهم. لكن يبقى أن ما يعني المواطن من مواطن آخر ليس دينه وإيمانه، بل احترام حريته وكرامته وعدم التعدي عليه.

إن مفهوم المواطَنة في لبنان لا يمكن أن يتعزز وسط تطلع بعض فئاته الطائفية خارج حدود بلدهم لاستلهام مواقف قد تعرقل سياسة الدولة المركزية، وإن باسم الدين أحياناً. كما لا يمكن أن يتعزز هذا المفهوم وسط دعاوى قومية مختلفة يشدّ كل منها في اتجاه على نحو لا يمكن أن ينتج عنه سوى تمزيق الجسم الاجتماعي. لذلك كان من أشد أمور الإصلاح السياسي إلحاحاً إصدار قانون جديد للأحزاب، يقام على القضايا الاجتماعية الإصلاحية ويؤخَذ فيه الكيان اللبناني كأمر مفروغ منه، وتُمنَع تلك الأحزاب «الجغرافية» التي تقوم دعواها الأساسية على رسم حدود لبنان، وتلك التي تشكك في شرعية الكيان اللبناني، كما تُمنَع الأحزاب «الطائفية» التي تقتصر عضوية أفرادها على دين واحد أو مذهب واحد. والمضحك في بعض هذه الأحزاب حالياً أن قادتها يتشدقون بقانون انتخابي وقوانين اجتماعية أخرى تحقق ما يسمونه «الانصهار الوطني». لكن كيف يتحقق انصهار من هذا النوع ما لم تقدِّم أحزابهم أولاً، وهي نموذج مصغر للوطن، المثال الصالح عن هذا الانصهار؟ إن مثال الوطن المنشود لا يمكن أن يتحقق قبل إلغاء الأحزاب والتجمعات الفئوية والطائفية، مع كل امتيازاتها وحساباتها ومحسوبياتها.

لقد أرهَقَنا الدين وأدعياؤه في لبنان، حتى كادت عبارة «الدين» تقتصر على مدلولات سلبية لكثرة ما استغلوها لمآرب خاصة. إذا سُئلتُ عن أنبل كلمة في القاموس لأجبتُ: «الدين»، وعن نقيضها لأجبتُ أيضاً: «الدين». ذلك أن الدين، حسب استخدام الناس له، أي حسب تمسكهم بجوهره الصحيح أو بقشوره التي أقحمها منحرفوهم عليه لخدمة مصالحهم الإلغائية، هو مصدر خير كما هو مصدر شر. أعطني «ديناً» - لا سمح الله - خالياً من الحرية والعدالة والمساواة واحترام كرامة الإنسان والمحبة والسلام، وأعطني من ناحية أخرى نظاماً تحت أيّ اسم، لكنْ نظاماً قائماً على هذه القيم، فلا شك أني أرفض الدين الإسمي وأختار ذاك النظام الآخر ديناً فعلياً. وهنا أعود إلى المطران خضر، داعياً كل الناطقين باسم الأديان إلى الاقتداء به في نَفْيه صفة القبَلية عن الجماعة الإيمانية، وفي تمييزه بين «أهل الله» الذين هم «قلّة عزيزة» و«أهل الدين» الذين هم «كُثر»[٤٠]، وفي نقده الكنيسة، أو المؤسسة الدينية عموماً، بمعناها الإسمي أو الشكلي، إذ رأى «استمرار البلادة والجهل والخنوع وانعدام الشخصية في صفوفها، كأنها المكان الأمثل لدحر العبقرية وإطفاء الموهبة»[٤١].

التحدي الأكبر الذي يواجه اللبنانيين اليوم هو خَلق الوطن اللبناني والمواطن اللبناني. وطن يكون فيه الناس، بكل أديانهم وطوائفهم ومواقفهم من الدين والإيمان والشؤون الأخيرة، وبكل أصولهم العرقية والإثنيّة، مواطنين متساوين أمام القانون في الحقوق والواجبات والكرامة الإنسانية. وإذا كان لبنان قطع شوطاً على هذه الطريق لكن ما تزال تعترض طريقه عراقيل، فإن تخطّي هذه العراقيل لن يحصل إلا بخطوة، لا بل بقفزة، جريئة. وهي قفزة لا يأخذها الرافضون عادةً ولا المترددون، بل تؤخذ عنهم. والتردد حيال قفزة جريئة من هذا النوع آتٍ من خوف المترددين إن هم تحولوا إلى مواطنين أن يَفقدوا ما يظنونه امتيازات تأتيهم من وضع قبَليّ يتيح لهم الانحراف عن قوانين الوطن الواحدة واتّباع نهج غامض يتولّونَ مَلء فراغاته، كلما دعت الحاجة، على النحو الذي يخدم مصالحهم. وهذا يعني إبقاءَ لبنان ضمن شريعة الغاب، والنأيَ به عن حكم القانون، وفقدانَ الإرادة لتأسيس وطن والمشاركةِ في المجتمع المدني بصفة مواطنين.

إن لبنان بعد الحرب الأهلية لا يمكن ولا يجوز أن يستمر في أخطاء كانت سائدة قبل هذه الحرب، لا بل كانت من الدوافع إليها. وأقسى تلك الأخطاء ما كان يعرقل تحقيق مثُل المجتمع المدني والوطن العصري، ويمنح الطوائف كل الامتيازات التي تعطل حياة المواطنين الموحَّدة ضمن روابط المواطَنة فوق أرض الوطن. وإذا كانت بعض الفئات لا تستطيع التملص من الماضي بل تحاول التشبث بعقلية الامتيازات الطائفية وعرقلة نشوء الدولة المدنية، فالحل المطلوب ثورة «من فوق»، تُفرَض على الكل فرضاً للخروج من الظلمة إلى النور تحت قيم الحرية والعدالة والمساواة واحترام كرامة الإنسان، هذه القيم التي تجسدها وترعاها دولة مركزية قوية تكون مثال الوحدة في التعدد على الصعيد الاجتماعي.

كثيرةٌ هي الوسائل لإيجاد دولة من هذا النوع وبسْط سلطانها، ولن نبحثها في هذه الدراسة(٤٣). لكن يجدر أن نختم بذكْر بعض صفات الحاكم الذي يستطيع إحداث القفزة الجريئة المنشودة من «المزرعة» إلى «الدولة»، من الفوضى إلى النظام، من شريعة الغاب إلى حكم القانون. وفي مقالات افتتاحية

ثلاثة نشرها المطران خضر حديثاً في صحيفة **النهار**، تساءل: «متى يصبح لبنان مدينة الله؟»(٤٤). ورفضَ أن تأتي هذه المدينة، التي يجب أن نبنيها فوق أرضنا كلها: «على الجبال وفي السواحل»، من «حلف الطوائف الذي يبدو في الأُفق»، لأنه يقتل الوطن(٤٥). وكان، في المقال الأول من هذه السلسلة(٤٦)، عَرَض صفات الحاكم المرجو لنهضة لبنان، قائلاً إن «الأقدر على المحبة والفهم هو الأقدر على المسك بالسلطة التي هي مقام الخدمة»، وإن «السلطان الصالح، العادل، المحب أيقونةُ الله أمامنا». وأضاف أن الحاكم الصالح هو مَن «اعتَبر الله حاكماً له». هذا لا يطلب شيئاً لنفسه ولا لعائلته ولا لطائفته. وهو لا يطلب غير رضى الله، بل يذلِّل نفسه أمام ربه من غير أن يذلّ الناس. كما يبتعد عن الفئوية ويكون للجميع ولا يتحزب إلا للحق. فالحق وحده يحرره من كل شهوة، وبهذه الحرية يتمكن من انتهاج «سياسة طاهرة». ويختم المطران مقاله متوجهاً إلى الحاكم المنشود: «كنْ في السياسة بسيطاً ببساطة الله وشفّافاً مثله. ومُتْ عن الأُمة كما مات الفادي. ففي هذا قيامتك وقيامة الذين استَعبدتَ نفسك لهم بالإخلاص. اضرب الكبرياء والتحكم والمجد الباطل ليكون الله وحده هو العزيز».

إن الصفات التي افترضها مفكرون مثل أفلاطون وكونفوشيوس والفارابي في الحاكم الصالح، وهي أن يكون مشبعاً بالمعرفة والحكمة وسموّ الأخلاق والتواضع والصدق والعدل والمحبة، تكتمل بفضيلة الزهد التي تكلّم عنها المطران خضر، والتي تلامِس القداسة وتجعل الحاكم واحداً من أولياء الله: «الحلول الأساسية هي تلك التي تأتي من النفس الزاهدة»(٤٧). والحاكم المقصود ليس شخصاً واحداً فحسب، بل هو آلة الحكم بأكملها، من حكومة وإدارة وقضاء وقوى أمنيّة وممثلين للشعب. إن «عَدوى» الحاكم الصالح: العارف، الحكيم، النبيل، المحبّ. الزاهد يجب أن تنتقل إلى هؤلاء جميعاً.

هوامش

١. أثَرْتُ مفاهيم الوحدة والتعدد والوحدة ضمن التعدد في كتابي **الدين والمجتمع** الصادر عام ١٩٨٣، يوم كانت بعض قوى «الأمر الواقع» في تلك المرحلة من الحرب الأهلية في لبنان تحظر عبارات من نوع «التعدد». ويجب أن أعترف بأن المعنى الأصلي الذي أعطيتُه للتعدد، أي المعنى العددي، هو ثمرة تحليل وموقف شخصيَّين لا ثمرة قراءات. انظر: أديب صعب، **الدين والمجتمع**، بيروت: دار النهار، ١٩٨٣، طبعة ثانية ١٩٩٥. وتجدر الإشارة إلى أن كل ما ورد في الدراسة الحالية ينطلق من مفهوم الوحدة في التنوع كما عالجتُه بدءاً من هذا الكتاب.

٢. أديب صعب، المرجع المذكور، ص ٨٨ – ٩٠ (ط ١) و٨٠ – ٨٢ (ط ٢).

3. T. S. Eliot, “The Dry Salvages” (verse 93), in Four Quartets, London: Faber, p. 39.

قارن مع ما يقوله الفلاسفة الرواقيون، وعلى الأخص ماركوس أوريليوس، حول فحص الذات.

٤. أديب صعب، **وحدة في التنوع**، بيروت: دار النهار، ٢٠٠٣، ص ٢٧ – ٣٣. انظر أيضاً: أديب صعب، «فلسفة للحوار الديني»، صحيفة **الحياة**، السبت ٣ تمّوز ٢٠٠٤، ص ١٤.

٥. أديب صعب، **الدين والمجتمع**، ص ٨ (ط ١) و١٦ (ط ٢).

٦. للاطّلاع على آراء لوك وهيوم وباركلي وكانط في هذا المجال، انظر الفصول ٢، ٤، ٨ من: أديب صعب، **المقدمة في فلسفة الدين**، بيروت: دار النهار، ١٩٩٤، (ط ٢، ١٩٩٥).

٧. أديب صعب، **وحدة في التنوع**، الفصل الرابع: «الدين والدولة» والفصل الخامس: «الدولة الدينية الفعلية»، ص ٤١ – ٥٤.

٨. رسالة بولس إلى العبرانيّين، ١٣: ١٤.

٩. سورة الأعلى (٨٧): ١٦ – ١٧. قارن مع: سورة الأعراف (٧): ١٦٩، سورة يوسف (١٢): ٥٧، سورة الرعد (١٣): ٢٦، سورة النحل (١٦): ٣٠.

١٠. يوحنّا ١٨: ٣٦.

١١. متّى ٢٢: ٢١، مرقس ٢٢: ١٧، لوقا ٢٠: ٢٥.

14. Ludwig Feuerbach, The Essence of Christianity, New York: Harper, 1957, p. 274.

١٢. أديب صعب، **الدين والمجتمع**، ص ١١٩ – ١٢٨ (ط ١) و١٠٦ – ١١٣ (ط ٢).

16. T. S. Eliot, “Little Gidding” (verses 162 – 163), in Four Quartets, p. 55.

١٣. أنطون سعادة، **مبادئ الحزب السوري القومي الاجتماعي**، بيروت، ١٩٧٠، ص ٧ – ١١. انظر شرحاً مفصلاً لهذا المبدأ في: أنطون سعادة، **المحاضرات العشر**.

١٤. ما يزال المطران جورج خضر يكتب، منذ ما يزيد على ثلاثة عقود، مقالاً أُسبوعياً افتتاحياً لصحيفة **النهار**، يتناول شؤوناً سياسية راهنة من منظار روحي يتجاوز المواقف الدينية «الرسمية». وقد أُعيد نشر هذه المقالات في مجموعات صدرت عن دار النهار: **الرجاء في زمن الحرب** (١٩٨٧)، **مواقف أحَد** (١٩٩٢)، **لبنانيّات** (١٩٩٧)، **الحياة الجديدة** (٢٠٠١). وتجدر دراسة هذه الكتب على نحو منهجي كنموذج لخطاب سياسي وديني في آنٍ معاً، عميق في رؤيويّته وفريد في تَنوُّره.

١٥. جورج خضر، **لو حكيت مسرى الطفولة**، بيروت: دار النهار، ١٩٧٩، ص ٢٠.

١٦. المرجع نفسه.

١٧. وَجد شارل مالك فرادة لبنان في عناصر مثل جباله وقراه وعاداته، في حين أن لبنان يتشارك في هذه العناصر مع عدد من بلدان الجوار والبلدان المتوسطية. والأحرى أن ما يميز لبنان آتٍ من مسيرة الحرّية فيه. انظر: شارل مالك، **لبنان في ذاته**، بيروت: مؤسسة بدران، ١٩٧٤.

١٨. جاء هذا في خطاب أنطون سعادة عند عودته إلى لبنان عام ١٩٤٧ بعد اغتراب قسري دام تسع سنوات. انظر: **سعادة في أوّل آذار**، بيروت: مطابع لبنان، ١٩٥٦، ص ٨٣.

١٩. سورة النحل (١٦): ١٧.

٢٠. جورج خضر، **لو حكيت مسرى الطفولة**، ص ٣٨.

٢١. صاغ أنطون سعادة المبدأ الرابع من مبادئ حزبه الأساسية على النحو الآتي: «الأُمة السورية هي وحدة الشعب السوري المتولدة من تاريخ طويل يرجع إلى ما قبل الزمن التاريخي الجلي». انظر: أنطون سعادة، **مبادئ الحزب السوري القومي الاجتماعي**، ص ٢٠ – ٣٠.

٢٢. جورج خضر، المرجع السابق، ص ٣٥.

٢٣. المرجع نفسه، ص ٣٥ – ٣٦.

٢٤. المرجع نفسه، ص ٣٧.

٢٥. المرجع نفسه، ص ٣٨.

٢٦. المرجع نفسه، ص ٧٠.

٢٧. المرجع نفسه، ص ٣٧. كتاب **لو حكيتُ مسرى الطفولة** هو بمثابة سيرة ذاتية، ثقافية – فكرية –روحية، يعبّر فيها المطران جورج خضر عن نفسه بلسان شخصٍ يسميه «صاحبي».

٢٨. أديب صعب، «الأثر الإنجيلي والأنكلوسكسوني في فكر الأُرثوذكس العرب»، دراسة لمؤتمر نظّمته جامعة البلمند وكلية اللاهوت للشرق الأدنى، وقُدِّمت في البلمند يوم الجمعة ٢١ أيّار ٢٠٠٤. وهي معَدَّة للنشر في كتاب يصدره منظمو المؤتمر.

٢٩. تردّدت هذه العبارة مراراً في مقالات المطران جورج خضر الافتتاحية في صحيفة **النهار** خلال الحرب الأهلية. انظر، مثلاً، كتابه: **الرجاء في زمن الحرب**، بيروت: دار النهار، ١٩٨٧.

٣٠. حاول بعضهم ردّ نزوع الكثير من الأُرثوذكس نحو القوميتين السورية والعربية إلى توزعهم الجغرافي في المشرق العربي وحرصهم على صَون وجودهم. لكن مهما كان من أثر لهذا التوزع وهذا الحرص، فهما لا يبدّلان أبداً من شرعية هذه الأفكار والمواقف. ويجدر التحرّي عن جوّ الكنيسة الأُرثوذكسية الأنطاكية الاجتماعي – القومي – السياسي وأثره في مواقف هؤلاء.

٣١. لا نجد في العربية مجموعات آبائية كاملة منقولة من أصولها اليونانية مع شروح ومقدمات مستفيضة، كما هي الحال في الإنكليزية والفرنسية والألمانية. وتقتصر الترجمات العربية على كتب قليلة، نُقل بعضها عن ترجمات إنكليزية أو فرنسية.

٣٢. متّى ٧: ١٢. جاء هذا في موعظة الجبل التي اختصرها يسوع بالآتي: «فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم. لأنّ هذا هو الناموس والأنبياء».

٣٣. سورة الكهف (١٨): ٢٩.

٣٤. سورة البقرة (٢): ٢٥٦.

٣٥. سورة يونس (١٠): ٩٩.

٣٦. جورج خضر، **لو حكيت مسرى الطفولة**، ص ٣٢.

٣٧. المرجع نفسه، ص ٤٨.

٣٨. من هذه الوسائل إصلاح التعليم الديني الذي اقترحناه في **الدين والمجتمع** (١٩٨٣) وتابعناه في الكتب الثلاثة اللاحقة: **الأديان الحية** (١٩٩٣)، **المقدمة في فلسفة الدين** (١٩٩٤)، **وحدة في التنوع** (٢٠٠٣).

٤٠. جورج خضر، «مدينة الله»، **النهار**، السبت ٤ حزيران ٢٠٠٥.

٤١. جورج خضر، «السياسة»، **النهار**، السبت ٢ تمّوز ٢٠٠٥.

٤٢. جورج خضر، «شهوة السلطة»، **النهار**، السبت ١٢ شباط ٢٠٠٥.

٤٣. جورج خضر، **لو حكيت مسرى الطفولة**، ص ١٠٢.

التنمية المستدامة والمواطنة في العالم العربي
(الواقع الراهن والمستقبل)

د. محمد أبوحمّور *

تمهيد

ثمّةَ علاقة وطيدة بين تطوّر مفهوم التنمية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية من تنمية تقليدية إلى مفهوم ونموذج جديد شامل أُطلق عليه «التنمية المستدامة»، وبين مفهوم المواطنة في الأدبيات الأمميّة الدولية والأدبيات الاقتصادية والسياسية والتنموية عموماً:

فقد جاءت خطة التنمية المستدامة لعام ٢٠٣٠ «تحويل عالمنا»، التي أقرّتها الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٢٠١٥/٩/٢٥، لتبلور صيغة هذه العلاقة ضمن أبعاد ثلاثة للتنمية المستدامة وأهدافها السبعة عشر في الخطة المشار إليها، وتتمثل في البُعد الاقتصادي، والبُعد الاجتماعي، والبُعد البيئي. ولخَّصت رؤية هذه الخطة مضمون الأهداف والغايات بالطموح لإحداث تحول نحو عالم خالٍ من الفقر والجوع والمرض والعوز تنتعش فيه أشكال الحياة، وكذلك خالٍ من الخوف والعنف، ويُتاح فيه للجميع الحصول على تعليم جيد، وعلى الرعاية الصحية والحماية الاجتماعية، فضلاً عن كفالة السلامة البدنية والعقلية والرفاه الاجتماعي، والحصول على مياه الشرب المأمونة وخدمات الصرف الصحي، وسبل النظافة الصحية، والأغذية الكافية

---

* وزير المالية الأسبق والأمين العام لمنتدى الفكر العربي/الأردن.

والمأمونة، والطاقة الميسورة والموثوقة. بحيث تكون الموائل البشرية آمنة وقادرة على الصمود والاستدامة، إلى جانب احترام حقوق الإنسان وكرامته، وسيادة القانون والعدالة والمساواة وعدم التمييز، واحترام الأعراق والانتماء الإثني والتنوّع الثقافي، وإتاحة تكافؤ الفرص، والتمتع بالمساواة الكاملة بين الجنسين، في عالم قوامه العدل والإنصاف والتسامح والانفتاح والمشاركة الاجتماعية للجميع، وتلبية احتياجات الفئات الأشد ضعفاً. ثم أن يتمتع كل بلد بنمو اقتصادي مطرد ومستدام يشمل الجميع، وتتوافر فيه فرص العمل الكريم، مع تأكيد أن تكون أنماط الاستهلاك والإنتاج وأوجه استخدام الموارد الطبيعية مستدامة.[١]

ونصَّت خطّة الأمم المتحدة أيضاً على ضرورة توافر «الديمقراطية، والحكم الرشيد، وسيادة القانون»، والبيئة المواتية على الصعيدين الوطني والدولي، كأمور أساسية لتحقيق التنمية المستدامة، بما في ذلك النمو الاقتصادي المطرد والشامل، والتنمية الاجتماعية، وحماية البيئة، والقضاء على الفقر والجوع، وتطوير التكنولوجيا وتطبيقها مع مراعاة المناخ واحترام التنوع البيولوجي في «عالمٍ تعيش فيه الإنسانية في وئام مع الطبيعة»[٢]... إلخ.

المواطنة والمشاركة في التنمية

توضح المقابلة بين حقوق المواطنة وواجباتها، ولا سيما في مجال المشاركة في التنمية، أن الممارسة الديمقراطية المستندة إلى المساواة هي ركيزة أساسية لهذه المشاركة وإتاحتها لأفراد المجتمع وفئاته كافة في ما يتعلق بالقرارات ووضع الخطط التي تعنيهم وتنفيذها. وقد أوضحت بعض الدراسات أن كثيراً من برامج التنمية ومشاريعها لم تنجح وآلت إلى الفشل في تحقيق أهدافها بسبب «غياب المجتمع المحلي» عن المشاركة في إدارة ما يتعلق به من العمل التنموي. بل إن التحديات الكبرى أمام التنمية المستدامة والمتمثلة في أن معظم سكان الدول النامية يقعون تحت خط الفقر، وأن أكثر من ١٥٪ من سكان العالم مهددون بالمجاعات ومعرضون لأمراض سوء التغذية،

(١) يُنظر: الجمعية العامة للأمم المتحدة: «قرار اتخذته الجمعية العامة في ٢٥ أيلول/ سبتمبر ٢٠١٥: ١/٧٠- «تحويل عالمنا: خطة التنمية المستدامة لعام ٢٠٣٠»، ص٤٩/١، ٤٩/٣- ٤٩/٤ (منشور على الموقع الإلكتروني للأمم المتحدة).
(٢) ينظر: المصدر السابق، ص ٤٩/٥.

دعت الخبراء والباحثين إلى تأكيد معالجة مشكلة الفقر العائد للأميّة والجهل من خلال محو الأميّة وتخفيف حدّة المرض عن طريق برامج التوعية ومشاريع التنمية بتبادل المعلومات حول البرامج والمشاريع التي تعنيهم، أو إبداء رأيهم فيها، وأيضاً المشاركة في التنفيذ عبر تنظيم أنفسهم في مجموعات عمل أو من خلال ممثليهم.[٣]

هنالك وجه آخر للفقر يتمثَّل في تفاقم معدلات البطالة في الوقت الذي تتباطأ فيه معدلات النمو الاقتصادي بعد سلسلة التراجعات التي أصابت هذا النمو خلال العقد الحالي من الألفية الثالثة. ويؤكد تقرير صادر حديثاً عن مجموعة البنك الدولي أن منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا بحاجة إلى تطبيق إصلاحات اقتصادية أكثر جرأة وعمقاً. ويحذر التقرير من تزايد الشعور بالإحباط لدى الشباب نتيجة قلّة الفرص الاقتصادية؛ مُذكِّراً بأن اضطرابات الربيع العربي عام ٢٠١١ كانت مدفوعة بمشاعر الإحباط تلك، ولا سيما أن نمو إجمالي الناتج المحلي في هذه المنطقة لن يتجاوز ٠,٦٪ عام ٢٠١٩ بحسب التوقعات، وهي نسبة ضئيلة لا تصل إلى المعدل المطلوب تحقيقه لتوفير فرص عمل كافية للسكان مع تزايد أعداد مَنْ هم في سنّ العمل (يقدر عددهم بأكثر من ١٠٠ مليون)، في الوقت الذي لم ينخفض معدل الفقر حتى في بعض البلدان التي شهدت فترات من تصاعد معدلات النمو.

ويركز التقرير المشار إليه، الذي يصف المنطقة بأنها «الأقل تكاملاً في العالم»، على أن المنافسة غير العادلة الناتجة عن هيمنة الشركات المملوكة للدول وتأثير الشركات ذات العلاقات السياسية على الأسواق، من شأنها أن تثبط الاستثمار الخاص وتخفض من فرص العمل، مما يتطلب تفكيك الاحتكارات في أسواقها، وتسخير الطلب المحلي الجماعي في اقتصاد كل دولة لتحقيق نمو يقوده قطاع التصدير إقليمياً ودولياً. ويزيد هذا التحدي خطورةً إذا علمنا أن عدد سكان المنطقة سيتضاعف بحلول عام ٢٠٥٠ ليصل ٦٠٤ ملايين نسمة.[٤] لقد سبق أن بيَّنت بعض تقارير برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، ومنها «تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠١٦»، عدداً من العوامل التي

(٣) ينظر: د. محمد مجيد محمود: «التنمية المستدامة في الوطن العربي-المعوقات والمتطلبات»، المجلة الليبية العالمية، جامعة بنغازي/ كلية التربية المرج، العدد ٢٥ – ٢أغسطس ٢٠١٧، ص١٤-١٥. (دراسة منشورة على الإنترنت).

(٤) مجموعة البنك الدولي: «أحدث المستجدات الاقتصادية لمنطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا (الارتفاع إلى آفاق أعلى: تشجيع المنافسة العادلة في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا)، أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠١٩. (تقرير منشور على الإنترنت).

تعطِّل تمكين الشباب، والتي تأتي في سياق تنموي يتسم بالتفاوت في ارتفاع الدخول، والاتساع في عدم تكافؤ الفرص، وتباطؤ معدلات النمو، وتقلص القدرة على إيجاد فرص العمل، مما يؤثر على الاستقرار الاجتماعي والسياسي، ويُضعف الالتزام بالمشاركة لدى هؤلاء الشباب بشكلٍ خاص، ويجعلهم في وضع لا يلبي احتياجاتهم وتطلعاتهم. وحذَّر هذا التقرير نفسه من أنه إذا لم يطرأ تغيير حقيقي على تلك الأوضاع، فإنَّ المعاناة ستطول لعقود طويلة. وتندرج العوامل التي تعيق الشباب وتُضعِف من مساهمتهم في عمليات الإصلاح والتنمية تحت ستة عناوين رئيسية، هي: ندرة فرص العمل، وضعف المشاركة السياسية، وانخفاض جودة الخدمات العامة في التعليم والصحة، وسوء إدارة تنوّع الهويات في المجتمع، وانتشار مفاهيم وممارسات موروثة لا تساوي بين الجنسين، والصراعات المسلحة التي تقضي على مكتسبات التنمية. ويضاف إلى ذلك ضعف الإنتاجية والتنافسية الاقتصادية، وثقافات مجتمعية تقف حائلاً بينهم وبين فرص العمل (مثل ثقافة العيب؛ وانتشار الواسطة والاعتماد على العلاقات الاجتماعية).[٥]

الصراعات وتقويض مكتسبات التنمية

من أشد التحديات التي تواجه المنطقة العربية والتنمية الاقتصادية فيها أن عدد سكان هذه المنطقة الذين يعيشون في بلدان معرضة للنزاعات مرشح للارتفاع من حوالي ٢٥٠ مليون نسمة كما كان في عام ٢٠١٠ إلى أكثر من ٣٠٥ ملايين نسمة في عام ٢٠٢٠، ويتضاعف هذا الرقم بحلول عام ٢٠٥٠. ولا يقتصر الأمر على مثل هذه الحالات إذا احتسبنا أن الخسائر في الأرواح تزيد بين المدنيين -وبينهم الأطفال- بسبب الحروب والصراعات المسلحة، وتتحدث بعض الأرقام عن أنه مقابل كل شخص يقع ضحية العنف المسلح، هنالك ٣-١٥ حالة وفاة نتيجة أمراض كان يمكن أن تعالج، أو مضاعفات طبية، أو سوء تغذية.[٦]

(٥) برنامج الأمم المتحدة الإنمائي/المكتب الإقليمي للدول العربية: «تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠١٦ – الشباب وآفاق التنمية الإنسانية في واقع متغيّر»، بيروت، ٢٠١٦، ص١٩.

(٦) المصدر السابق، ص٢٨.

سبق أن أشرت إلى أن تقديرات البنك الدولي بينت أن إجمالي الخسائر الناتجة عن العنف والنزاعات المسلحة في تونس وسورية ومصر واليمن وليبيا خلال حوالي أربعة أعوام ما بين (٢٠١١-٢٠١٤)، بلغت نحو ١٦٨ مليون دولار، أي ١٩٪ من إجمالي الناتج المحلي لهذه الدول. وبلغت خسائر الدخل القومي العربي في الأعوام ما بعد ذلك ١,٥ تريليون دولار، وارتفعت خسائر البنية التحتية إلى ٥٠٠ مليار دولار، عدا خسائر تحملتها الدول المستضيفة للاجئين من الدول الدائرة فيها النزاعات، وذلك على مستوى الكلف المادية والبنى التحتية من تعليم ورعاية صحية ومياه وإسكان، وغيرها.

نظرة وتحليل

إنَّ من أهم ما كشفت عنه الأحداث على الساحة العربية خلال العقود الثلاثة الأخيرة كان أكبر من مجرد ظواهر آنية؛ وربما الوصف الصحيح لذلك هو أن ما حدث جاء كنتائج لتراكمات وتحولات متسارعة على مختلف الصعد أفضت إلى اختلالات هيكلية اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وتشوهات ثقافية انعكست سلباً على علاقة الفرد أو الإنسان بمجتمعه وإطاره الأوسع الدولة، وقصور المكوّنات الأساسية لهذه العلاقة الدينامية في تحقيق التنمية المستدامة الحقيقية أو الواقعية، التي لا تزال غير متحققة على النحو المطلوب في مقابل ما يسمّى التنمية الإحصائية وقد تحقق منها الكثير على صعيد الأرقام.[٧]

فالغاية الأسمى من وجود الدول هي «تحرير الإنسان من الخوف، بحيث يعيش كل فرد في أمان بقدر الإمكان، أي أن يحتفظ بحقه الطبيعي في الحياة»[٨]. وهذا الحق يعني حكماً استدامة ممارسته في إطار المواطنة الفاعلة والمشاركة ما دام الإنسان موجوداً في الحياة، يطلب معاشهُ، وتقوم بينه وبين الآخرين علاقات لا تسلبه حقه، ولا يقع عليه إرهاب أو يقع هو تحت نير الآخرين. بمعنى آخر أن هذه الاستمرارية

(٧) د. جواد العناني: تعقيب على كتاب «التنمية الواقعية»، ندوة في منتدى الفكر العربي، عمّان/الأردن، الأحد ٢٠١٩/١٠/١٣.

(٨) العبارة للفيلسوف سبينوزا Spinoza، ينظر: جلال الدين سعيد: «معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية»، دار الجنوب للنشر، تونس، ٢٠٠٧، ص ١٧٦.

هي أساس التنمية القائمة على الفكرة الديمقراطية بأشكالها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وبالتالي الديمقراطية الدولية «التي توجب قيام العلاقات الدولية على أساس السيادة والحرية والمساواة».

لقد أصيبت المجتمعات العربية في العصر الحديث وفي مراحل متعاقبة بالانتكاس والتراجع بسبب الأحداث والحروب والنزاعات التي ألمت بنا في هذه المنطقة وعلى مدى أكثر من قرن، وتمثلت في الصدامات مع القوى المستعمرة، والمعاناة التي انبثقت من كارثة زرع الكيان الصهيوني في قلب الجسم العربي، وفشل التسويات السلمية للقضية الفلسطينية في ما بعد، عدا ما أصاب بعض الدول من تفتت في أحداث السنوات الأخيرة... وهنالك ثلاثة عوامل برأيي ما تزال تشكِّل أسباباً تحول دون تنمية مستدامة متكاملة في المنطقة العربية، وهي:

١. غياب الرؤية الوحدوية وتغليب التفكير القُطري.

٢. غياب الوعي بالجذور الحضارية نتيجة الاستقطاب السياسي للعمل الثقافي، وهذا ما أقصى الاعتراف بالتنوع الثقافي واستبعد التعددية السياسية لصالح أيديولوجيات مهيمنة، ومن ثم تراجع دور المثقف لصالح النفعية المصلحية التي تحارب كل ما عداها في سبيل مصالحها وتقوض هياكل الإصلاح.

٣. غياب الإنتاجية بسبب طغيان مفهوم الاقتصاد الريعي الذي يعطل التنمية، ولا يُفسح المجال لفرص التنافس والابتكار والإبداع.

إنَّ الأزمة العربية هي في الحقيقة حزمة مترابطة من الأزمات والتحديات والإشكالات، وغياب الرؤية الواضحة الشاملة وقف حائلاً دون تطوير الهوية والثقافة والمواطنة الفاعلة، الأمر الذي انعكس على الكفاءة التنموية للمجتمعات وأصابها بالقصور في مختلف جوانبها، وجعل الفكر والثقافة مستبعدين، مما أدى إلى مفاهيم مشوهة وهياكل غريبة في العلاقات داخل المجتمعات، كما أوجد جموداً في الهوية التي كان ينبغي أن تتطور طبيعياً لتشكل العامل المشترك الجامع لكل المكونات الواقعية للتنمية والقائمة على الانفتاح وليس الانعزال والتقوقع، وتقديم مفاهيم العدالة والنزاهة والمساواة المبنية على الاعتراف بهذه المكونات وفهم خصوصياتها، وليس على التعامل معها بالتهميش والإقصاء والاستبعاد مما لا يُنتج سوى الفشل تلو الفشل، وانعكاس اتجاه المسارات من التنمية والتقدم إلى الأمام؛ إلى الضمور والتراجع.

كما أن فشل الديمقراطية هو فشل لقدرة المجتمع على الإنتاج وتحقيق التقدم، لأن انتفاء العدالة الاجتماعية، وتركز الثروة بأيدي القلة، والفساد والمحسوبية، والانتماءات الفرعية، ستؤدي إلى شلّ مشاركة شرائح وقطاعات من المجتمع في عملية التنمية وتثمير الثروات الوطنية، وبالتالي رفد العمل المشترك على مستوى عربي قومي بأسباب تعزز قوته وتنافسيته في المجال الدولي، وتحييد النظرة القطرية التي لن تؤدي في النهاية إلا إلى الانحسار والانعزال عن محيطها ومجالها الحيوي.

خاتمة

إن تطوير نهج التنمية المستدامة يرتبط بإصلاح السياسات الاقتصادية، ووضع سياسات لتنمية الاقتصاد الرقمي وتعزيز الابتكار، وخاصة مع دخولنا حقبة الثورة الصناعية الرابعة، وأيضاً تنمية القطاع الخاص (في مجال المشاريع الصغيرة والمتوسطة)، وتشجيع الاستثمارات البينية بين الدول العربية، والارتكاز على توفير الأمن البيئي، والعدالة الاجتماعية، والتشاركية بين الحكومات والقطاع الخاص والمجتمع المدني.[٩]

وأقول نعم نحتاج إلى ذلك كلّه، ولكننا نحتاج في الأساس إلى استعادة قيم التماسك الاجتماعي المتمثلة في «الثقة» بين الفرد والجماعة، وبين الفرد والمؤسسة، وحتى بين الفرد ونفسه، بسبب ممارسات غير عقلانية أحياناً ساعدت على ترسيخ الإقصاء والتهميش، مما يفرض جهوداً كبيرة تركز على عملية إعادة بناء الثقة، وتطوير وسائل المشاركة في صنع القرار التنموي، وتطوير المنظومات التعليمية، وتطوير برامج عملية تشاركية لمكافحة البطالة والفقر والجوع، والتخطيط للتحول من الاقتصاد الريعي إلى الاقتصاد الإنتاجي والاقتصاد المعرفي، ووضع استراتيجيات لدعم الإبداع والابتكار والتأهيل والتدريب، والاستثمار المتوازن في الموارد البشرية والمادية، والعمل على تعديل تشريعات وقوانين الاستثمار الذي يعتبر أهم عامل في القضاء على البطالـة. كذلك لا بد من تعزيز الشراكة بين الحكومات والقطاع الخاص، وضمان

(٩) تقرير المنتدى العربي للتنمية المستدامة في الإسكوا «اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا»، بيروت (٢٤-٢٠١٨/٤/٢٦).

عدالة توزيع الفرص والمكتسبات التنموية، وتطوير إدارة السياسات والخطط التنموية التي تركز على بناء الإنسان وكرامته.

وضمن هذا الإطار فمن الضروري رصد مشكلات الواقع العربي الراهن بدقّة، ودراسة الأفق المستقبلي له بمنهج استشرافي، في ضوء تأثير التحولات التي شهدها هذا الواقع، ولا سيما دراسة ما يتعلق بتحليل الأسباب التي انعكست بالنتيجة المباشرة في التغيّر السريع الذي طرأ على البنى الاجتماعية والثقافية والاقتصادية العربية خلال العقود الثلاثة الماضية، وفهم أسباب التراجع في إطار من رؤية عربية مشتركة يُعاد فيها النظر في الخطط والاستراتيجيات وأساليب العلاج للمشكلات بنظرة شمولية على مستوى الإقليم وصيغ العمل العربي المشترك.

الاستلاب الوظيفي في زمن الثورة الصناعية الرابعة
من الصدمة إلى التوازن ومن اليأس إلى الأمل

أ.د. علي أسعد وطفة *

«بفضل القوة الهائلة للتكنولوجيا الرقمية، سقطت الحواجز الصمّاء التي كانت تفصل بين البشر، كالبعد الجغرافي واختلاف اللغات والافتقار المزمن للمعلومات، وتحررت القدرات الإبداعية الكامنة لبني البشر على شكل موجة هادرة جديدة تزداد قوّة دون انقطاع. وأصبحت هذه القدرات الضخمة تحت تصرف كل البشر وباتوا قادرين على تحريرها بلمسات أصابعهم»

(من كتاب تشارلز كيترينج «العصر الرقمي الجديد وإعادة صياغة مستقبل الشعوب»)

بدأت بوادر إعصار الثورة الصناعية الرابعة تنذر بتغيرات عاصفة لم يشهد لها التاريخ الإنساني مثيلاً من قبل. إنها عصف شديد الوطأة بكل ما عرفته الإنسانية من خبرات وتجارب وأنظمة وأفكار وقيم، وسقوط مروع لكل الأنظمة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية التي عرفتها الإنسانية عبر تاريخها المديد. إنها حالة من الانفجار الحضاري الشامل في مختلف أنماط الوجود الإنساني الذي ينذر بزوال جميع الأنظمة الاجتماعية والفكرية التي سادت عبر التاريخ الإنساني. إنه صورة مذهلة من صور الانصهار النووي بين ثورات متدافعة في مختلف مظاهر الوجود، انصهار تتقاطع فيه الثورات المعرفية بالطفرات التكنولوجية وتتحد ثورات الاتصال بالثورات المعرفية ليحدث نوع من الاندماج الأسطوري العجيب بين ثورات مدهشة في مختلف العلوم الإنسانية

* أستاذ في كلية التربية بجامعة الكويت وجامعة دمشق (سورية).

والفنون والعلوم الدقيقة. وتتحد هذه الثورات جميعها في صورة نظام معقد فائق الذكاء يفوق كل ما أبدعته الإنسانية من حكايات وأساطير وأوهام. وهي بعبارة واحدة حالة من التزاوج بين الذكاء البشري والذكاء الآلي بطريقة عبقرية ليس لها مثيل أو نظير.

وما على المرء إلا أن يطلق لخياله العنان في وصف معجزات الثورة الصناعية وسيرتد ومض الخيال خائباً مسحوراً. وتلك هي المرة الأولى في التاريخ التي يضعف فيها الخيال الإنساني عن قدرته على وصف صيرورة التغير في الحياة الإنسانية لأن ما يجري من حوادث واختراعات يفوق كل أشكال التخيّل ويرتد قاصراً عما نحن إليه آيلون في زمن الاندماج الثوري الرهيب بين مختلف الثورات الإنسانية في مختلف المجالات العلمية والوجودية.

فنحن نعيش اليوم في عالم متفجر بالذكاء الاصطناعي الذي يشكل الفضاء الذي نعيش فيه والذي يحيط بنا في كل مكان وفي كل لحظة من لحظات وجودنا، حتى في لحظات نمونا العميق وأحلامنا التائهة في ظلام الليل. ويتمثل هذا الذكاء الاصطناعي في تدفق هائل من المخترعات الذكية في عالم افتراضي عجائبي لم يسبق له مثيل، مثل: أجهزة تحديد المواقع (GPS) وبرامجه، والسيارات ذاتية القيادة، والطائرات المسيرة (بدون طيار)، وبرمجيات الترجمة، والحاسبات الذكية، والروبوتات المذهلة، والطابعات ثلاثية الأبعاد، وإنترنت الأشياء، والنانو التكنولوجي، والطبابة الرقمية بالحاسبات الذكية، والمحاماة البرمجية، ووسائل التواصل الاجتماعي المذهلة، والفضاء السيبرنتي، والمكتبات الرقمية، والسفر الافتراضي في دائرة الزمان، والمحاكاة الافتراضية في كل الأشياء.

ومن أجل تقديم تصور سردي بسيط للعالم الافتراضي الذي نشارف أن نعيش فيه في مستقبل قريب جداً ضمن فضاء سيبراني يدور كل شيء فيه حول الإنسان، سنستعير وصفاً أدبياً لأحد الكتاب الذي يصف صورة من الحياة اليومية في عالم الثورة الصناعية الرابعة التي تدق علينا الأبواب بكل ما هو مدهش ومثير وعجيب بقوله:

«تستيقظ في الساعة السادسة صباحاً، بعد نوم عميق على أنغام ساعتك الذكية، في ذات اللحظة تدب الحياة في بيتك، في غرفة النوم تبدأ الإضاءة في ساعة من الصباح تستنير الغرفة ذاتياً، ويبدأ الحمام بالاستعداد كي تأخذ حمامك الصباحي المعتاد، وكذلك الحال في المطبخ. وبعد أن تنتهي من إفطارك تبدأ بارتداء ملابسك التي فُصِّلت على مقاسك، وبعدها يبدأ محرك سيارتك بالعمل في الكراج استعداداً للذهاب للعمل. تحاول الاتصال بكبير المهندسين بالمصنع الذي تملكه، ولكنك تفاجأ بأن بطاريته على وشك النفاد، لكن الهاتف يعطيك تنبيهاً بأنه لا داعي للقلق فعملية استبدال البطارية تتم الآن داخلياً دون مشاكل. تستلم رسالة على هاتفك تفيد بأن إحدى الآلات في المصنع قد تعطلت وأن عملية التصليح الذاتي قد بدأت بالفعل وأنها ستنتهي خلال ساعة تقريباً. ليس من الضروري أن تذهب يومياً إلى المصنع فالمصنع يدير نفسه بالكامل ويعتني بنفسه في كل الحالات الطارئة التي قد تستجد، وأن اليوم ذاهب هناك لمجرد الرغبة بالذهاب لا أكثر. هذا ليس فيلماً من أفلام الخيال العلمي، نحن في عالم ما بعد الثورة الصناعية الرابعة، حيث أن كل ما تحتاجه مصنّع لك حسب طلبك ومن أجل زيادة رفاهيتك»(1).

وتتميز الثورة الصناعية الرابعة بفكرة محورية مفادها: «أن العالم يدور حولك، فكل شيء مصمم لك وحدك ومن أجلك». ففي ذاك الزمن، وهو قاب قوسين أو أدنى من يومنا هذا، سيقوم الزبائن باستخدام تطبيقات برمجية على هواتفهم الذكية للحصول على أي سلعة استهلاكية، ويكفي للمرء ببساطة أن يسجل مواصفات المنتج الذي يريده ليقوم المصنع بتصنيعه على المقياس وإرساله على الفور إلى أماكن السكن والعمل بصورة مبسطة لا عناء فيها. فعلى سبيل المثال «لو أن هاتفك الذكي عرف موعد نهاية عمره الافتراضي في المستقبل القريب، فسيقوم الهاتف بإعطاء ملاحظة للمصنع والذي سيقوم بدوره بتغيير مستويات

(1) ورد هذا الوصف في عدد من الدراسات دون الإسناد إلى المصدر الأساسي.

إنتاجه ليعكس المعلومات التي منحها إياه هاتفك الذكي. بمعنى آخر فإن عملية التغذية الراجعة الخاصة بالمنتجات المصنعة ستكون ذاتية مما يساعد المصنع بشكل تلقائي على تطوير طريقة تصنيعه». وبمجرد أن يتوقف هاتفك الذكي عن العمل فستجد هاتفاً آخر جاهزاً تم تصنيعه خصيصاً لك ليحل محله على الفور، وسيكون الهاتف الجديد على نفس الشكل الذي تفضله والذي كان عليه هاتفك القديم المفضل[٢].

وفي مثال آخر: «عندما يدخل الزبون (امرأة أو رجل) إلى مخزن البيع، يبدأ بانتقاء الزي المطلوب (الموضة) من الصور المعروضة عليه، ثم يختار نوع القماش المطلوب، ليدخل بعد ذلك إلى «غرفة القياس»، وهي غرفة سرّية مغلقة تشبه غرف التصوير الضوئي القديمة وتحتوي على عدد من «الكاميرات الرادارية» المثبتة في أماكن مناسبة من الجدران والتي تلتقط مقاس الجسم بطريقة تجميع أكبر عدد من النقط لمحيطه بطريقة «المسح الضوئي». وبهذا يتحول محيط الجسم إلى شبكة من النقاط المتوزعة في الفراغ ثلاثي الأبعاد. وخلال دقائق قليلة تنتهي عملية القياس لتنتقل البيانات إلى أجهزة القصّ والخياطة الذكية بحيث يتم الانتهاء من صناعة القطعة المناسبة خلال دقائق».[٣] وهذه الأمثلة غيض من فيض عن التطورات الحادثة في مجال الصناعة والإنتاج والتكنولوجيا في الزمن القادم.

وكما هي فرص الثورة الصناعية الرابعة فهناك تحديات جسام، ولا تعدو أن تكون الصورة التي قُدّمت أكثر من الوجه الجميل لهذه الثورة، فلكل ثورة، كما لكل شيء في الوجود جانب وجانب مقابل، أحدهما يومض بالضياء وآخر ينكمش في الظل والعتمة، ولا تشكل الثورة الرابعة استثناء إذ تحمل في ثناياها كثيراً من الويلات وفي طواياها كثيراً من الإكراهات التي لن تروق لكثير من بني البشر. وفي هذا الوجه المظلم تكمن إشكاليات العطالة عن العمل والاغتراب الإنساني أو ما

(٢) محمد نجيب السعد، الثورة الصناعية الرابعة.. هل نحن مستعدون؟ جريدة الوطن العمانية، ٦ فبراير، ٢٠١٦. متوفر: http://alwatan.com/details/97392

(3) Eric Schmidt & Jared Cohen, The New Digital Age: Reshaping the future of People, Nations and Business, (United States: Alfred A. Knopf, 2013).

يسمى بتشيؤ الإنسان، وقضايا الضياع وفقدان الإنسان لذاته في مواجهة تحديات الذكاء الاصطناعي، والانقسام الطبقي الحاد، والحروب الاقتصادية، والأزمات الخطيرة في الحياة والمجتمع. وفي هذا البحث سنتوقف لمقاربة التحديات التي تتعلق بسوق العمل وفقدان الوظائف وما ينجم عن هذه القضية من إشكاليات وقضايا إنسانية واجتماعية. والسؤال الرئيس الذي تطرحه دراستنا هذه: كيف ستؤثر الثورة الصناعية في سوق العمل؟ وهل يمكن في النهاية تحقيق التوازن في ميدان العمل مع مرور الوقت؟ وهل تحمل الثورة الصناعية في طياتها حلولاً للمشكلات التي تطرحها في هذا الميدان؟

مفهوم الثورة الصناعية الرابعة

تتميز الثورة الرابعة بقدرتها الهائلة على تدمير الحدود القائمة بين الأشياء، إنها نوع من التوجه لصهر مكونات الوجود في بوتقة واحدة تحيل الكون الذي نعيش فيه إلى كرة واحدة تتمازج فيه الثورات وتتكامل فيها الأشياء وكأنها كتلة واحدة من الوظائف والتكوينات، إنها باختصار تلغي الحدود الفاصلة بين كل ما هو فيزيائي ورقمي وبيولوجي وإنساني.

استخدم مفهوم الثورة الصناعية لأول مرة من قبل المؤرخ المعروف أرنولد توينبي (Arnold Toynbe) في كتابه «محاضرات في الثورة الصناعية»[٤]. ويرى توينبي في كتابه هذا أن الثورة الصناعية كانت تعبيراً عن تنامي في قوى الإنتاج الميكانيكية وأن هذه القوة أصبحت ثورة فقط لأنها تضافرت مع إرادة سياسية تنزع إلى القبول بالتغيير[٥]، وترافقت بتغيرات اقتصادية ورأسمالية جوهرية وتحولات اجتماعية نوعية. وكما يرى الكاتب فإن الثورة الصناعية لم تكن مجرد تسارع في النمو الاقتصادي فحسب بل كانت نتاجاً لعملية تنمية اقتصادية واجتماعية متضافرة في إحداث هذا التحول الكبير[٦].

(4) Toynbee, Arnold, Lectures on the Industrial Revolution.

(5) Eric Hobsbawm, Industry and Empire – The Birth of the Industrial Revolution (New York: The New Press, 1968).

(6) Ibid.

بدأت الثورة الصناعية الرابعة فعلياً مع بداية الألفية الجديدة، ولا تزال هذه الثورة مستمرة حتى الآن. وهي تقوم على عدد من الركائز الحضارية التي تمثل في الاندماج بين عدد من الثورات العلمية أهمها: التقدم في مجال الهندسة الوراثية، والإنترنت، وابتكار الطابعات الثلاثية الأبعاد، والذكاء الاصطناعي، والعملات الافتراضية، وإنترنت الأشياء، وغيرها. وتتسم هذه الثورة بدمج التقنيات التي ظهرت قبل ذلك، بالشكل الذي تمحى فيه الخطوط الفاصلة بين المجالات الفيزيائية والرقمية والبيولوجية[٧]. وهناك ثلاثة أسباب تجعل هذه التحولات متفردة في طبيعتها ومتميزة، وليست مجرد امتداد للثالثة. هذه الأسباب هي سرعة التغيير، ونطاقه، وتأثير هذه التحولات في النظم السائدة.

ويرى كثير من المؤرخين أن الثورة الصناعية الأولى (١٧٧٠-١٨٨٠) بدأت في بريطانيا في عام ١٧٧٠ وذلك مع اختراع المحرك البخاري. واستخدام الطاقة البخارية في الإنتاج الصناعي. وقد أدى هذا الاختراع دوراً كبيراً في معالم الحياة في ذلك الزمن وأحدث حالة ثورية هائلة في الإنتاج والتصنيع. وتحت تأثير هذا الاختراع تحول المجتمع من مجتمع زراعي إقطاعي إلى مجتمع صناعي بامتياز[٨]. ويبين المؤرخون أن العصر الصناعي الأول قد اعتمد على طاقة الفحم كقوة إنتاج رئيسة واعتمدت هذه الطاقة في تسيير القطارات التي أصبحت بفضل المحرك البخاري وسيلة النقل الرئيسية في ذلك الزمن. وامتد هذا التأثير ليشمل صناعات النسيج والحديد والصلب والسفن التي بدأت باستخدام المحرّكات البخارية في أدائها الصناعي.

وقد أسهم اكتشاف الطاقة الكهربائية في تفجير الثورة الصناعية الثانية (١٨٨٠-١٩٦٠) وقد شاع استعمال المصباح الكهربائي اعتباراً من ١٨٨٠، وانتشر استخدام الطاقة الكهربائية في المجال الصناعي على نطاق واسع[٩].

---

(٧) محمد عبد القادر الفقي، الثورات الصناعية الأربع: إطلالة تاريخية، مجلة التقدم العلمي، مجلة علمية فصلية تصدر عن مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، العدد ١٠٣، أكتوبر ٢٠١٨، ص٩.

(٨) المرجع السابق، ص٩.

(٩) المرجع السابق، ص٩.

ومع بداية القرن العشرين، بدأ استخدام المحركات الآلية والكهربائية في مجال السيارات والقطارات وشكل هذا الاستخدام تحولاً جذرياً في مفهوم الحياة. وبعد ذلك تقاطرت الإنجازات العلمية بظهور الهاتف والإذاعة والتلفزيون والطائرة. وقد استفادت الثورة الصناعية الثانية من الطاقة الكهربائية في تعزيز الإنتاج الضخم، وكان ذلك أهم سماتها، وبدأ ذلك مع إبداعات (هنري فورد) الذي ابتكر في عام ١٩٠٨ خط الإنتاج الشامل لصناعة السيارات. «واستمرت الثورة الصناعية في اختراعاتها تدريجياً، فدخل العالم عصر الميكنة بشكل موسع. وقد أدت الثورة الصناعية الثانية إلى تغيير أنماط حياة الإنسان على وجه الأرض. فإلى هذه الثورة يُنسب شكل النظام الاقتصادي الدولي الذي نعيشه حالياً. ويمكن القول إن هذه الثورة كانت اللبنة الأساسية لشكل النظم الاقتصادية الموجودة على مستوى العالم»[١٠].

أما الثورة الصناعية الثالثة فقد بدأت في عام ١٩٦٠، واستمرت حتى عام ٢٠٠٠ وكانت للحواسيب والروبوتات اليد الطولى في توجيه مسارات هذه الثورة، التي عرفت لاحقاً بتسميات متعددة مثل الثورة الرقمية وثورة المعلومات والثورة المعرفية وثورة الاتصالات. أما أعظم إنجازات الثورة الثالثة فكان استخدام الإلكترونيات وتكنولوجيا المعلومات والصناعات الرقمية، «مما جعل الهوة تزداد اتساعاً بين الدول المتقدمة والدول التي تحاول جاهدةً اللحاق بالتطورات المتسارعة. لذا فالمراقب التاريخي يستطيع أن يرى اتصالاً بين الثورات الثلاث بحيث بدأت بميكنة الإنتاج، ثم ضخامة الإنتاج، ثم أتمتة الإنتاج»[١١].

وفي ظل هذه الثورة أصبح التواصل المجتمعي، ونقل وتخزين وتداول المعلومات والبيانات منفتحاً بدون حدود. وتطور العالم الافتراضي بتفاصيل مذهلة، ابتداءً من ألعاب الأطفال ومروراً بالغرف الصفية والمختبرات

---

(١٠) المرجع السابق.

(١١) سلام أحمد العبلاني، وعود الثورة الصناعية الرابعة منعطف هائل في تاريخ البشرية، (الافتتاحية) مجلة التقدم العلمي، مجلة علمية فصلية تصدر عن مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، العدد ١٠٣، أكتوبر ٢٠١٨.

الافتراضية، وانتهاء بالفضاء. واحتلت الأنظمة الذكية والروبوتات مكانة متقدمة في الصناعة إلى درجة أن العديد من الأعمال والمنتجات أصبحت تنفذ من خلال الروبوتات والأنظمة الذكية، ابتداء من التصاميم المعمارية وانتهاء بدراسة الفضاء وأعماق البحار. وبدأ الذكاء الاصطناعي يحل محل الإنسان في كثير من الأعمال، وتطورت صناعات وعلاقات صناعية قائمة على هذه المعطيات. كما توسع الإنسان في استعمال مواد وأنظمة جديدة من خلال أنظمة رقابة وتحكم واتصالات محمولة، مما أتاح الفرصة للمنافسة العالمية على مستوى الوظيفة الواحدة والعمل الواحد. وأصبح التواجد الفيزيائي الفردي في مكان العمل ليس ضرورياً في كثير من الأحيان. وهذا أعطى فرصة جديدة لتطوير العقلية العلمية والتكنولوجية والفكرية والثقافية المجتمعية، واستلزم كل ذلك إعادة النظر في برامج التعليم المدرسي والدراسات في كليات الهندسة والعلوم والاجتماع، وفتح آفاقاً غير محدودة للتعلم عن بعد والتعلم الإلكتروني في شتى المواضيع، وجعل الإنترنت مكتبة عالمية مفتوحة. كل ذلك للتماهي والتجاوب مع التغيرات المرافقة للثورة الصناعية الرابعة.

ويتضح في هذا السياق «أن سرعة الاختراقات العلمية الحالية لا يوجد لها مثيل في التاريخ البشري، إذ نرى بأعيننا تطور التقنيات الرقمية بسرعة مذهلة مقارنةً بالثورات الصناعية السابقة. واستطاعت هذه التطورات الجديدة أن تقلب موازين ومفاهيم التكنولوجيا السائدة إلى عهد قريب. فما كان ينظر إليه على أنه تكنولوجيا متقدمة تم نسفه تماماً وأصبح بلا فائدة اقتصادية، فنحن نرى بلايين البشر يتواصلون بواسطة الهواتف المحمولة مع إنترنت ذات سرعات خيالية، وقدرات غير محدودة للوصول إلى المعلومة، إضافةً إلى إنجازات تكنولوجية غير مسبوقة في مجالات الذكاء الاصطناعي والروبوتات، وإنترنت الأشياء، والمركبات ذاتية القيادة، والطباعة ثلاثية الأبعاد، وتقنيات النانو، والتكنولوجيا الحيوية، وعلوم المواد، والحوسبة الكمومية»[١٢].

(١٢) سلام أحمد العبلاني، وعود الثورة الصناعية الرابعة منعطف هائل في تاريخ البشرية، مرجع سابق.

اختفاء الوظائف والشركات

ويشير شواب إلى التدفق التكنولوجي الذي سيغمر العالم بقدرته الفائقة، مثل: الحوسبة الفائقة، والهواتف اللوحية المتنقلة، والذكاء الاصطناعي، والإنسان الآلي، والسيارات ذاتية القيادة، والطب الدماغي، والهندسة الجينية، يشير شواب إلى أن هذه التغييرات بعيدة المدى واضحة في بيئتنا وبسرعة هائلة. وأكد شواب خلال كلمة الافتتاح على أن «الثورة التكنولوجية التي سنستقبلها قريباً ستغير نمط حياتنا وعملنا وعلاقاتنا الاجتماعية بشكل كامل. وهنا تجدر الإشارة إلى أنه على الرغم من أن التقدم التكنولوجي يشكل عموماً المصدر الرئيسي للتقدم الاقتصادي، إلا أنه كان وما زال يولد أيضاً قلقاً وتوترات ثقافية عبر التاريخ. فالتغيرات التكنولوجية المفاجئة تثير تساؤلات حول التأثير الذي يمكن أن تمارسه على سوق العمل والأجور، وتثير نقاشاً قلقاً حول زيادة مخاطر انعدام الأمن الوظيفي وتعميق التفاوت الاجتماعي وتكريس البطالة «التكنولوجية» الجماعية[١٣].

وينبئنا تاريخ الاكتشافات العلمية التكنولوجية أن الابتكارات الصناعية الرئيسية، مثل المحركات البخارية والكهرباء، وخط التجميع، يمكن أن تؤدي دوراً سلبياً ومدمراً أحياناً في الاقتصاد والحياة المجتمعية. فهي قد تسبب خسائر كبيرة في الوظائف على المدى القصير، على الرغم من أن هذه الخسائر يمكن تعويضها على المدى البعيد من خلال إيجاد وظائف ذات جدوى كبيرة وأكثر إنتاجية وأكثر قدرة على تقديم تحسينات ملموسة في نوعية الحياة. مثلما حدث عندما حلت الرافعات مكان العمال ولكنها في الوقت نفسه وخلال فترات ليست قصيرة أوجدت وظائف جديدة بالنسبة للمهندسين والمولين والتجارب في قطاع الخدمات. هذا وتبين الوقائع والأحداث القريبة أن التقنيات الجديدة التي

(13) Graham Brown-Martin, L'Éducation et la quatrième révolution industrielle, Préparé pourGroupe Média TFO, août 2017. URl: https://www.groupemediatfo.org/wp-content/uploads/2017/12/FINAL-Education-and-the-Fourth-Industrial-Revolution_FR.pdf

عرفناها في ظل الثورة الثالثة (ثورة الأنفورناتيك والمعلوماتية) قد أوجدت أيضاً وظائف جديدة، مثل: المبرمجين ومهندسي الكمبيوتر، ومهندسي المعلوماتية، وهندسات التصميم، وعشرات الوظائف التي تتعلق بالبرمجيات وتحليل المعلومات.

يعد مفهوم الثورة الصناعية الرابعة من المفاهيم المستخدمة كثيراً في المنتدى الاقتصادي العالمي في دافوس وفي مجال نشاطات رجال الأعمال. هذا وتصف بعض الدراسات الحديثة كيف ستقوم الثورة الصناعية الرابعة بتشكيل مستقبل التعليم والجنس والعمل وكيف ستعمل على إعادة توظيف القوى العاملة وتنظيمها بصورة مختلفة.

ويخبرنا تقرير المنتدى الاقتصادي العالمي الذي عقد في دافوس عام ٢٠١٦ [١٤] حول مستقبل التوظيف أنه «وفقاً لتقديرات الخبراء فإن ٦٥٪ من الأطفال الذين يلتحقون بالمدرسة الابتدائية اليوم سيحصلون على وظائف غير موجودة الآن. ويتضح أيضاً مابين (٧٠-٨٠)٪ من المهن والأعمال والوظائف ستختفي خلال العشرين سنة القادمة، صحيح أنه ستتوافر فرص عمل كثيرة، ولكن توفرها سيتطلب وقتاً أطول من ذلك. على صعيد الزراعة، سيقوم إنسان آلي قيمته ١٠٠ دولار فقط بالزراعة في الحقول بحيث يتحول مزارعو العالم الثالث إلى مدراء لمزارعهم بدلاً من الكدح طيلة النهار بحراثتها وسقيها.

وتبين إحصائيات أوردتها المجلة الأمريكية فورتشن (Fortune) إن ٥٠٪ من الشركات العالمية تم استبدالها بشركات جديدة كل ٥ سنوات. و أن متوسط العمر الافتراضي للشركات (بقائها في السوق) كان في حقبة السبعينيات من القرن الماضي ٧٠ عام؛ أما الآن فقد تقلص إلى ١٥ عاماً. وتبين التقارير أن المحامين

(١٤) عقد المنتدى الاقتصادي العالمي بمدينة دافوس السويسرية في ٢٣ يناير الجاري، وحضر المنتدى الذي استمر ٤ أيام، زعماء سياسيون ورؤساء دول من أكثر من ٤٠ دولة وأكثر من ٢٥٠٠ مسؤول حكومي ورؤساء شركات وأكاديميين من أكثر من ١٠٠ دولة. وناقش المشاركون آثار وتحديات «الثورة الصناعية الرابعة» على البشرية، كما ناقشت الاجتماعات الوضع الأمني العالمي، والنمو الاقتصادي ومشاكل البيئة، والنقاط الساخنة المتعلقة بالتحولات الاجتماعية وغيرها من المواضيع.

الشباب في الولايات المتحدة لا يستطيعون الحصول على عمل اليوم، لأن برنامج أي بي إم واتسون القانوني يقدم لك مشورة قانونية في القضايا العامة الأساسية خلال ثوان بدقة تصل نسبتها إلى ٩٠٪ وهي أفضل من المشورات التي يقدمها ٧٠٪ من المحامين العاديين وبناء على هذا التقدم في الذكاء الاصطناعي فإن عدد المحامين سيتناقص في المستقبل إلى نسبة ٩٠٪ ولن يتبق سوى المتخصصين منهم.

وقد يكون الأمر أكثر إيلاماً في المجال الطبي وتأثيراً في تغييب مهنة الأطباء وتقليص مجال عملهم. فعلى سبيل المثال: تقوم الشركات الطبية اليوم باختراع جهاز طبي يعمل على تطبيق برنامج على الهاتف النقال، حيث سيكون بإمكان الفرد أن يفحص بنفسه شبكة العين، وعينة من الدم، وقياس عملية التنفس في آن واحد. ويتمكن هذا الجهاز من تشخيص ٥٤ مرضاً بصورة دقيقة. والمدهش في هذا الاختراع أنه سيطرح بأثمان بخسة حيث يمكن لأي إنسان على هذا الكوكب أن يحصل عليه ومن ثم أن يجري تحليلاته الطبية المتطورة والدقيقة بالمجان تقريباً، وهذا يبشر بوداع مؤكد للمستوصفات والمستشفيات. ويضاف إلى ذلك أن برنامج «واتسون» الطبي يستطيع تشخيص مرض السرطان بدقة متناهية بل و أفضل من تشخيص البشر أربع مرات. وسيكون الحاسوب في العام ٢٠٣٠ أكثر ذكاء من أي إنسان عرفته البشرية كما تنبئ التوقعات المستقبلية.

وليس اختفاء الوظائف هو ما يقلق ويخيف فحسب بل اختفاء الشركات الصناعية والاقتصادية وزوالها. فالذكاء الاصطناعي يهدد الشركات التقليدية بالزوال والانقراض أيضاً. ففي عام ١٩٨٨، كانت شركة كوداك توظّف ١٧٠ ألف موظفاً وتبيع ٨٥٪ من الصور الورقية في العالم! بعدها بسنوات قليلة، أفلست الشركة وفقدت قوتها التنافسية بشكل كبير جداً. وما حدث لشركة كوداك، سيحدث لكثير من القطاعات في السنوات العشرة القادمة، وهذا الأمر سيكون مخيفاً جداً في السنوات القادمة، ولا سيما في العقدين الثالث والرابع من القرن الحادي والعشرين. ويلاحظ في هذا السياق أن البرمجيات ستدمر كثيراً من الصناعات التقليدية في مدة زمنية تتراوح بين خمس وعشرة سنوات. فشركة Uber أكبر شركة تكسي في العالم اليوم، وهي لا تملك سيارة واحدة. وشركة Airbnb أكبر شركة فندقية في العالم، وهي لا تملك عقاراً واحداً.

ولن يقتصر تأثير الثورة الصناعية الرابعة فقط في معدل خلق الوظائف، ولا في نسبة إحلال الوظائف الجديدة محل الوظائف القديمة، وإنما سيمتد أيضاً إلى نوعية المهارات المطلوبة لأداء الوظائف، وستزداد نتيجة لذلك فجوة المهارات وفي مثل هذه البيئة المتغيرة للتوظيف يصعب التنبؤ بنوعية المهارات المطلوبة في المستقبل، ومن دون الفهم الصحيح لنوعية المهارات والتعليم المطلوب مستقبلاً لن يستطيع الأفراد والشركات والحكومات تحقيق الاستفادة القصوى من مزايا الثورة الصناعية أو حتى مجرد تفادي الآثار الجانبية غير المرغوبة فيها.

مخاوف مشروعة

يشكل اختفاء الوظائف مصدراً كبيراً للقلق والخوف بين السكان. ومخاوف الناس إزاء التقدم التكنولوجي المرتقب تختلف وتتنوع، ويمكن تصنيف هذه المخاوف عموماً إلى ثلاث فئات: مخاوف تتعلق باستبدال العمال بالآلات لتحسين الإنتاجية وخفض التكاليف، ومخاوف تتعلق بالعواقب والآثار السلبية الأخلاقية التي يحملها التقدم التكنولوجي، وأخيراً مخاوف تتعلق بعملية تباطؤ التقدم الاقتصادي الذي قد يصل إلى حدّ الركود الاقتصادي[١٥].

ويرى بعض المحللين الاقتصاديين أمثال (Mokyr, 2015 Vickers, Ziebarth)[١٦] في مسار تقييم تاريخي للتجارب في مجال التقدم التكنولوجي أنه على الرغم من المخاوف التي تثيرها هذه التغيرات والاضطرابات قصيرة الأجل التي تحدثها فإن التقدم التكنولوجي طويل الأجل قد يكون مفيداً وإيجابياً في حركة التقدم الإنساني.

خلال الثورة الصناعية الأولى، كان القلق يولد من مستجدات العمل الذي يجرد العمال من إنسانيتهم ويغتربهم. أما اليوم فإن الخوف الأكبر هو عالم يكون

(15) Graham Brown-Martin, L'Éducation et la quatrième révolution industrielle, op. cit.
(16) Mokyr, Joel, Chris Vickers, et Nicolas L. Ziebarth, The History of Technological Anxiety and the Future of Economic Growth: Is This Time Different? Journal of Economic Perspectives, 29(3) 2015, P 31-50. url: http://pubs.aeaweb.org/doi/pdfplus/10.1257/jep.29.3.31

فيه غياب، أو تغييب الوظائف، هو المصدر الأكبر للخوف والقلق، لأن البطالة هي أخطر أنواع الاغتراب الإنساني المعاصر. فالبطالة تشكل اليوم مصدراً رئيساً للخوف والقلق وانعدام الأمن الاجتماعي. ومن جهة ثانية ما زال الانطباع بأن عصر التقدم التكنولوجي الكبير ما زال حاضراً، وفي هذا الصدد يشير روبرت جوردون (Robert Gordon)[17] عالم الاقتصاد الأمريكي، في كتابه «صعود وهبوط النمو الأمريكي» إلى أن نمو الاقتصادات الغربية سوف يتباطأ تحت تأثير متغيرات: ركود التعليم وتراجعه، والشيخوخة السكانية، والديون الكبيرة التي تثقل كاهل طلاب الجامعات والحكومة[18].

ويشير التقرير الاقتصادي لمنظمة التعاون والتنمية المتعلق بمستقبل التوظيف إلى أن التكنولوجيا الجديدة المتمثلة في الذكاء الاصطناعي والأتمتة والرقمنة ستؤدي إلى تغييب عدد كبير من الوظائف التقليدية المعهودة. وكما هو معروف لقد سبق للآلة أنها أقصت العمالة اليدوية وحلت محلها في أداء عدد كبير من المهام التي يقوم بها العمال المتخصصون ولاسيما هذه التي كانت تتطلب قدراً محدوداً من الكفاءة العلمية والمهارة وذلك بدرجة أكبر بكثير مما كان متوقعاً (OCDE, 2013)[19]. وضمن هذه الرؤية فإن التقدم السريع في الذكاء الاصطناعي المعاصر سيؤدي فعلياً إلى زيادة احتمال إحلال الأتمتة الآلية مكان عدد كبير جداً من الوظائف الفنية والمهنية.

(17) Robert Gordon “The Rise and Fall of American Growth: The US Standard of Living since the Civil War” (Princeton University Press, 2016).

(18) Robert J.Gordon, The End of Economic Growth, Prospect Magazine, janvier 2016. URl:https://www.prospectmagazine.co.uk/magazine/growing-pains-united-states-end-of-economicgrowth-productivity.

(19) Briefing de politique de l'OCDE sur le futur de l'emploi, mai 2016.

في يناير ٢٠١٧، كشفت دراسة أجرتها شركة (McKinsey & Company)[٢٠] إن ٣٠٪ من الوظائف التي تشمل ٦٠٪ من المهن سيتم حوسبتها تقريباً. وأشار كبير الاقتصاديين في بنك إنجلترا إن ٨٠ مليون وظيفة في الولايات المتحدة و١٥ مليون وظيفة بريطانية يمكن أن تكون وظائف تقوم بها الروبوتات الذكية[٢١]. وفي عام ٢٠١٣، أظهرت دراسة أجراها أكاديميون من جامعة أكسفورد بعنوان «مستقبل التوظيف» على ٧٠٢ وظيفة مشتركة أن بعض المهن مثل: مهن البيع التجاري والمتاجر، ومهن حسابات الضرائب، والتحكيم الرياضي، مهن معرضة لخطر الزوال أكثر من غيرها ولاسيما المهن العلمية هذه التي تخص علماء النفس، وأطباء الأسنان، والأطباء بعامة. وهذا التوقعات تأتي على سبيل المثال وليس الحصر[٢٢].

وفي هذا الشأن حول تأثير الأتمتة الآلية والذكاء الاصطناعي في سوق العمل، نشر الاقتصاديان الأمريكيان دارون أسموغلو (Daron Acemoglu) من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (M.I.T.) وباسكوال ريستريبو (Pascual Restrepo) في جامعة بوسطن (Université de Boston) دراسة بعنوان «السباق بين الآلة والإنسان» (The Race Between Man and Machine) تبين أنه من المحتمل أن يؤدي التشغيل الآلي إلى إيجاد وظائف جديدة وأفضل بحيث سيعود مستوى البطالة والأجور في نهايةٍ المطاف إلى مستوياتها السابقة. وهذا يعني الذكاء الاصطناعي لن يكون مخيفاً إلى هذه الدرجة، وذلك لأنه يؤدي إلى توليد وظائف جديدة[٢٣].

ولكنهما بعد أقل من عام عدّلا رؤيتهما بدراسة رصينة نشرت في المكتب الوطني

---

(20) Harnessing automation for a future that works, McKinsey, janvier 2017. url: http://www.mckinsey.com/global-themes/digital-disruption/harnessing-automation-for-a-futurethat-works

(21) Labour's Share - discours par Andy Haldane, Économiste en chef, Bank of England, novembre, 2015. http://www.bankofengland.co.uk/publications/Pages/speeches/2015/864.aspx

(22) Frey C.B., Osborne M.A., The Future of Employment - How Susceptible are Jobs to Computerisation, Université d'Oxford. url: http://www.oxfordmartin.ox.ac.uk/downloads/academic/The_Future_of_Employment.pdf

(23) Acemoglu D (MIT), Restrepo P (Université Boston), The Race Between Man and Machine: Implications of Technology for Growth, Factor Shares and Employment, MIT, mai 2016.url: https://economics.mit.edu/files/13179

للأبحاث الاقتصادية (National Bureau of Economic Research) بعنوان «الإنسان الآلي والعمل» (Robots and Jobs)، وقد وُصفت هذه الدراسة من قبل صحيفة New York Times بأنها «الدليل على أن الروبوتات تفوز بالسباق في الوصول إلى العمالة الأمريكية». ويتضح في ضوء الدراسة الثانية (الإنسان الآلي والعمل) أن البحث الأول كان ممارسة نظرية وتمريناً مفاهيمياً، ولكن البحث الثاني الذي نشر من المكتب الوطني (NBER) اعتمد بيانات حقيقية ومعطيات واقعية منذراً بمستقبل للعمالة أكثر تشاؤماً. في هذا البحث الأخير فوجئ الباحثان برؤية زيادة ضئيلة للغاية في عدد الوظائف في المهن الجديدة التي يمكن أن تعوض خسائر الوظائف في التصنيع، وبينوا هذه المرة وبطريقة ميدانية أن مثل هذه الزيادة في الوظائف الجديدة يمكن أن تحدث، ولكن في الوقت الحالي وجد عدد كبير من الموظفين أصحاب الياقات الزرقاء الذين لا يحملون شهادة جامعية أنفسهم خارج سوق العمل بصورة نهائية[٢٤]. وقد عقب أسموغلو (Daron Acemoglu) على جريدة النيوز تايم بقوله: «وبالنتيجة حتى لو حدثت هناك زيادة في الأجور سيكون هناك خسارة في هذه العملية، ويجب أن ننتظر وقتاً طويلاً جداً كي يستعيد المجتمع عافيته جراء الحضور الواسع للأتمتة الآلية في سوق العمل».

في كتابهما «عصر الماكينة الثانية: العمل، التقدم، والازدهار في زمن التقنيات البارعة» "The Second Machine Age: Work, Progress, and Prosperity in a Time of Brilliant Technologies"، يقرّ إريك برينجولفسون (Erik Brynjolfsson)، الأستاذ في كلية سلون للإدارة في معهد ماساتشوستس

(24) Acemoglu D (MIT), Restrepo P (Université Boston), Robots and Jobs, Evidence from the US Labor Market, National Bureau of Economic Research, mars 2017. url:https://irs.princeton.edu/sites/irs/files/event/uploads/robots_and_jobs_march_3.17.2017_final.pdf -

للتكنولوجيا، وأندرو مكافي (Andrew McAfee)، بأنه في «قلب الرأسمالية يكمن مفهوم التدمير الخلاق» (Au coeur du capitalisme existe le concept de destruction créative). وقد اتضحت هذه الظاهرة من خلال التقدم التكنولوجي الذي يصول ويجول الآن في الوسط الإنساني. أدت الابتكارات مثل البخار والكهرباء وأجهزة الكمبيوتر وغيرها الكثير إلى تغيرات جذرية في الطريقة التي نفكر فيها ونعمل بموجبها كما أثرت في طبيعة المهن التي يؤديها البشر.

هذه التطورات الهائلة في «الروبوتات» وغيرها من التقنيات الرقمية تسبب القلق الفعلي بين العاملين وفي وسائل الإعلام. فهناك الكثير من الخوف المبرر، فعلى سبيل المثال، يرى كثيرون أن الروبوتات لن تدمر الوظائف الموجودة فقط، بل ستكون الأفضل في أدائها بالمقارنة مع البشر في معظم أو كل المهام المطلوبة في المستقبل، وهنا يكون الأسوأ. وهذه ليست أكثر من نصف الحقيقة، فالروبوتات يمكنها في حقيقة الأمر أن تؤدي دورها بشكل أفضل في عدد من الوظائف والمهام المكلفة بها، ولكن وبالمقابل سيكون أداء البشر أفضل في كثير من الوظائف الأخرى[٢٥].

إنه من السهولة بمكان اليوم الإشارة إلى الوظائف المهددة بالتغير التكنولوجي، ولكن من الصعوبة بمكان حتى على الاقتصاديين وعلماء المستقبل تحديد الوظائف الجديدة التي ستظهر، وما إذا كان من يريدون شغلها مؤهلون فعلياً لملئها وما إذا ستكون أجورهم مرضية كفاية.

يرى برينجولفسون (Brynjolfson) وماكافي (McAfee) أن كلمة محاسب (accountant) كانت عنوان المهنة وظيفية حقيقية حيث كان الموظف المحاسب بقوم بمعالجة أعمدة طويلة من الأرقام. وعندما أخترع الحاسوب (Ordinateur) اختفت مهنة المحاسب واختفت معها مهام أخرى تتصل بالحسابات مثل علماء

(25) Graham Brown-Martin, op.cit.

البيانات: ذلك لأن أجهزة الكمبيوتر بدأت تعالج أطناناً من البيانات الضخمة من المعلومات بسرعات خيالية ودقة مثالية. ومن ثم فإن الحاسب نفسه أوجد عدداً كبيراً من المهن التي تتعلق بتكنولوجيا الحاسب وبرمجته ووظائفه. وهذا يعني في النهاية أنه في الوقت الذي يتم فيه القضاء على الوظائف القديمة عن طريق الأتمتة الآلية فإن الاقتصاد يستمر في خلق فرص عمل جديدة وصناعات جديدة لم تكن موجودة من قبل.

ويمكن القول هنا وفي هذا السياق أن الوظائف التي يمكن قياس أداءها أي هذه التي تستند إلى قواعد واضحة ودقيقة يمكن أن تؤتمت وهي مرشحة أكثر من غيرها للأتمتة الآلية. أما المهن التي ستكون آمنة ومستقرة في المستقبل وبعيدة عن خطر الأتمتة هي الوظائف والمهن التي لا تستطيع الآلات أن تقوم بها. وهناك ثلاثة مجالات يتميز فيها البشر ويتفوقون على الآلة وهي: الجهود والنشاطات الإبداعية، والتفاعلات الاجتماعية، والوظائف التي تتطلب مهارات بدنية وقدرة على الحركة.

العدالة الاجتماعية

تشكل مسألة العدالة الاجتماعية مصدر قلق وجودي واقتصادي بالنسبة للشعوب والأمم في زمن الثورة الصناعية الرابعة. وتبين الدراسات في هذا الصدد أن أكثر المستفيدين وظيفياً في الثورة الرابعة هم أصحاب المواهب الفكرية والفنية من المخترعين والمساهمين والمستثمرين وهو ما يفسر اتساع الهوة في الثروة بين أولئك الذين يعتمدون على رأس المال أو العمل. لذا ستكون التكنولوجيا واحدة من الأسباب الرئيسية لركود الدخل، أو حتى تراجعه بالنسبة لغالبية السكان في البلدان ذات الدخل المرتفع، حيث يزداد الطلب على العمال ذوي المهارات العالية في حين ينخفض الطلب على العمال الأقل تعليماً والأدنى في مستوى المهارات. ويتضح في هذا السياق أن الطلب في سوق العمل سيكون من نصيب أصحاب المهارات العالية وسينخفض الطلب بوتائر متسارعة على غير المؤهلين علمياً وفكرياً[٢٦].

(٢٦) محمد نجيب السعد، الثورة الصناعية الرابعة، مرجع سابق.

ولا يبخل الخبير الاقتصادي البريطاني جون ماينارد كينز (Maynard Keynes,1930) في تقديم النصيحة حول سؤال المصير إذ يقول: «في مرحلة الانتظار علينا أن نتخذ الاستعدادات البطيئة لمواجهة مصيرنا عبر تشجيع فنون الحياة وممارسة الأنشطة الخلاقة». ويرى كينز في هذا السياق أن التكنولوجيا تسمح بتركيز أكبر للثروة على عدد أقل من الأفراد والمؤسسات العالمية. وقد أظهر تقرير نشرته منظمة أوكسفام (يناير ٢٠١٧) أن ٨ أشخاص فقط يملكون من الثروة ما يعادل الثروة التي يمتلكها ٣,٦ مليار أي النصف الأفقر من سكان الكوكب. ويوضح التقرير أن ٥ من هؤلاء الأشخاص الأغنى في العالم يديرون شركات التكنولوجيا والمعلوماتية[٢٧].

ويعتقد غاي ستاندنغ Guy Standing الأستاذ في كلية الدراسات الشرقية والإسرائيلية بجامعة لندن، أن زيادة الفوارق الاجتماعية واتساع الهوة الطبقية بين الناس ستؤدي إلى ولادة طبقة جديدة يطلق عليها كلمة جديدة «بريكاريا» "precariat"[٢٨] وهي توليف لغوي جديد يجمع بين كلمتي البروليتاريا prolétariat والهشاشة précarité، ويمكن أن نترجمها بالبروليتاريا الرثة، أو العمالة الهامشية، أو العمالة المتحولة. ويصف ستاندنغ في كتابه عام ٢٠١١، الكيفية التي عززت فيها العولمة المنافسة في الأسواق على حساب الأمن الوظيفي. حيث بقيت الأجور الحقيقية راكدة لعقود، وأصبح العمل «المرن» "flexible" هو المعيار في الحصول على العمل، وقد أدى هذا إلى حرمان ملايين الناس حول العالم مِن الأمن الوظيفي أو الدخل المالي الآمن بوصفه مصدراً للاستقرار أو مِن الشعور بالحرية والاجتماعية أو الإحساس بالدلالة والمعنى. ويحذر ستاندنغ من مخاطر تزايد العمالة الهامشية «البريكاريا» "precariat" على الاستقرار في المجتمع، وينبه إلى محاذير تزايد مخاطر التطرف السياسي.

(27) Une économie au service des 99 %, Oxfam, janvier 2017. url: https://www.oxfam.org/fr/rapports /une-economie-a u-service-des-99

(28) Précariat est un néologisme de la sociologie, formé à partir des mots précarité et prolétariat, et définissant les "travailleurs précaires" comme une nouvelle classe sociale.

وفي مواجهة هذه الوضعية يطالب ستاندنغ بوضع استراتيجية فعالة ومتدرجة لإعادة توزيع الثروات الاقتصادية، وتحقيق العدالة الاجتماعية، وترسيخ الأمن الوظيفي، لحماية المجتمع وترسيخ لحمته السياسية والاجتماعية. ويمكن أن نقع على مثل هذا التصور الاستراتيجي في يوتوبيا (Utopia) توماس مور Thomas More عام ١٥١٦، أي قبل ٥٠٠ عاماً حيث يعتقد توماس مور أن ارتفاع الدخل في المجتمع يؤدي دوره كترياق ضد الانحرافات والجرائم ويشكل مناعة طبيعية ضد كل أشكال الاضطرابات في المجتمع. والفكرة هنا بسيطة إلى حد كبير، إذ يجب على الدولة أن تخصص راتباً لكل شخص راشد في المجتمع بغض النظر عن وضعه المهني. ويرى أصحاب هذه الرؤية أن هذه الاستراتيجية ستوفر شبكة أمان حيوية لجميع المواطنين كما تؤدي إلى إزالة نظم الاستحقاقات غير الفعالة القائمة حالياً في المجتمع. ولكن هذه الفكرة تعرضت للنقد الكبير من قبل عدد كبير من الاقتصاديين الذين يرون أن هذا النهج صعب المنال ولا يمكن تحقيقه ومن شأنه أن يؤدي إلى التكاسل ويضعف إرادة العمل في المجتمع[٢٩].

ويعتقد بعض الباحثين بأنه يمكن لمعطيات الأتمتة الاصطناعية في مضمار الثورة الصناعية الرابعة أن تحدث تغييراً جوهرياً في وضعية العمل وقد تؤدي إلى إلغاء الشعار المعروف «العيش من أجل العمل»، واستبداله بشعار «الحياة من أجل الترفيه» وممارسة الهوايات، فعندما تؤدي الآلات الذكية معظم الأعمال والوظائف في المجتمع، يمكن للمواطنين تكريس مزيداً من الوقت للعمل التطوعي، وريادة الأعمال، والعيش مع الأسرة، والمشاركة المدنية، والنشاطات الإبداعية.

يلاحظ المراقبون أنه على أثر الأزمة المالية التي ضربت جنوب أوروبا في عام ٢٠٠٨، ارتفعت معدلات البطالة بين الشباب لتصل إلى نسبة تراوحت ما بين ٥٠٪ و ٦٠٪، وهذا يعني أن حوالي نصف جيل الشباب وجد نفسه خارج

(29) Graham Brown-Martin, op.cit.

سياق العمل بلا أهداف ومن غير حرية اجتماعية أو كرامة إنسانية أو قدرة على المشاركة في المجتمع، ومثل هذه الوضعية ترقى إلى مستوى المأساة. ومع خطورة هذه الوضعية ومأساويتها يحق لنا أن نتساءل: ألم يكن هناك عمل يحتاجه المجتمع؟ ألا يوجد أطفال في فصول مدرسية مكتظة ويحتاجون إلى معلمين وخدمات تعليمية؟ ألا يوجد هناك أشخاص مريضون ويحتاجون إلى علاج؟ ألم يكن هناك مباني مدرسية تحتاج إلى ترميم أو تجديد؟ ألم تكن هذه المجتمعات بحاجة إلى تشكيل البنية التحتية وتجديدها؟

هذه الأسئلة كما تمت صياغتها تأخذ في الغالب طابعاً أدبياً. فالمجتمع لا تنقصه مشكلات ليعالجها ولا فرصاً ليشارك فيها. فالمسألة ليست هنا في مناحي هذه الأسئلة المتفرقة إنها مشكلة صميمية تتعلق بالبنية الاقتصادية الاجتماعية في المجتمع والتي تعاني من الإخفاق. وهذه الوضعية تشجعنا على التفكير في مستقبل التكنولوجيا الجديدة التي تتمثل في الذكاء الاصطناعي والأتمتة الذكية وهذا التفكير يتناول كل القوى الاجتماعية التي يمكن أن تشارك بطريقة يستطيع معها المجتمع تجاوز هيئته القديمة.

فالفعالية الحقيقة للدخل الأساسي في المجتمع مهمة جداً، لأنه مع غياب الدخل الأساسي وضماناته من قبل الحكومات سيعاني المجتمع من غياب الأمن والحرية الاجتماعية، وسيكون عندها مجتمعاً سيئاً للغاية. وفي عديد من البلدان: الولايات المتحدة، وفنلندا، والهند، وإيطاليا، وأوغندا، وكندا وغيرها، التي تشهد تطبيق برامج تجريبية لاختبار فكرة الدخل الأساسي، يتضح أن شروط الحياة قد تحسنت في مستويات الغذاء والنشاطات التربوية والاقتصادية وانخفضت نسبة الأمراض والديون[٣٠].

ومن التجارب المهمة في هذا المجال يشار إلى التجربة الكندية حيث يتلقى ٤٠٠٠ شخص في أونتاريو حوالي ١٧٠٠٠ دولاراً كندياً في السنة دون شروط أو

(30) Universal Basic Income Pilot Schemes, Futurism. url: https://futurism.com/images/universal-basic-income-ubi-pilot-programs-around-the-world/

قيود[٣١]. وعند إطلاق هذا المشروع التجريبي، قالت رئيسة وزراء أونتاريو كاثلين وين (Kathleen Wynne) إن مثل الخطة كانت ضرورية للرد على «التحديات الجديدة» التي فرضها التطور الحديث. وتصف كاثلين وين هذه المرحلة بأنها مرحلة تحمل في طياتها درجة كبيرة من اللايقين والتغيير.

وما هو أدهى وأشد أن التحديات التي تواجهها المجتمعات الإنسانية في القرن الحادي والعشرين لا تقف عند الحدود التي يفرضها التقدم التكنولوجي للثورة الصناعية الرابعة، فالعالم سيواجه تحديات مخيفة ومتزامنة مع التحديات التكنولوجية لهذه الثورة الصناعية، مثل: تغير المناخ (changements climatiques)، النمو السكاني (croissance démographique)، شيخوخة السكان (le vieillissement de la population)، مقاومة المضادات الحيوية (résistance aux antibiotiques)، وتزايد عدم المساواة، وهذا كله غيض من فيض قادم.

وفي مواجهة هذه التحديات كثيراً ما تعتقد بعض الدول أنها يمكنها مواجهة هذه التحديات بصورة منفردة ولكن الحقيقة الدامغة هي أن أياً من هذه الدول لن تستطيع مواجهة هذه التحديات بمفردها، ولا حتى مجموعات منفصلة من الدول، فالمواجهة يجب أن تأخذ طابعاً عالمياً كي تتمكن البشرية من مواجهة المصير الإنساني بصورة عامة.

كيفيات المواجهة: ويبشر كلاوس شواب[٣٢] (Klaus Schwab)[٣٣] رئيس المنتدى الاقتصادي بمستقبل متفائل حيث سيصبح الابتكار التكنولوجي، وكذلك

(31) Projet pilote portant sur le revenu de base (mai 2017). URL: https://www.ontario.ca/fr/page/projet-pilote-portant-sur-le

(32) Professor Klaus Schwab was born in Ravensburg, Germany in 1938. He is Founder and Executive Chairman of the World Economic Forum, the International Organization for Public-Private Cooperation.

(33) The Fourth Industrial Revolution: url: https://www.weforum.org/agenda/2016/01/the-fourth-industrial-revolution-what-it-means-andhow-to-respond/

قدرتنا على استغلاله، محركاً قوياً للنمو الاجتماعي والاقتصادي. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: كيف ستواجه هذه المسألة من قبل الحكومات والعمال؟ ليس أمراً صعباً تقديم إجابة عن هذا السؤال الجوهري، كما يرى كراهام مارتن (Graham Brown-Martin) إذ يتوجب على الأفراد وبمساعدة الحكومات اتخاذ وضعية استراتيجية يتجنبون فيها الوظائف التي يحتمل أن تختفي أو تستبدل بالأتمتة أو بـ «الروبورات» أو غيرها من الأجهزة. ويتوجب عليهم الالتزام بتجديد وتحديث مهاراتهم المهنية والعلمية على مدى الحياة، سواء من خلال الاطلاع والحصول على دروس إضافية عبر الإنترنت أو التعلم في المؤسسات العلمية وفي المعاهد مباشرة. ولا بد من القول هنا: «بأن مبدأ التعلم مدى الحياة، والمرونة، والتعليم المستمر، وإعادة التعليم، والتعلم الذاتي تشكل العناصر الأساسية في مواجهة تحديات الأتمتة والإحلال الآلي للوظائف. وهذا يعني في النهاية السباق الدائم مع الذكاء الاصطناعي والروبوتات الاصطناعية المستقبلية»[٣٤].

ويتوجب على الحكومات من ناحية أخرى خلق مناخ موات يمكن أصحاب المشاريع ورجال الأعمال من تطوير أعمالهم على النحو الذي يمكن المؤسسات الجديدة من ابتكار وظائف جديدة، وهنا يجب أن نعلم أن دور الحكومات لا يكون في إبطاء وتيرة التقدم التكنولوجي وتعطيلها بل يجب أن يكون في مساعدة المؤسسات الصناعية والتجارية وسوق العمل ورجال الأعمال والعمال على تحقيق أعلى درجة تطور ممكنة، وتمكينهم من توليد استراتيجيات جديدة تواكب هذا التطور وتحافظ على مكانة الإنسان فيه في مواجهة خطر الأتمتة الآلية والحضور الكبير للذكاء الاصطناعي.

في مواجهة هذه المعضلة الناجمة عن التقدم التكنولوجي، طرح الملياردير الأمريكي مارك كوبان (Mark Cuban) أفكاراً جريئة حول مستقبل التوظيف،

(34) Graham Brown-Martin. Op.cit. https://www.groupemediatfo.org/wp-content/uploads/2017/12/FINAL-Education-and-the-Fourth-Industrial-Revolution_FR.pdf

إذ يرى أنه في العقود المقبلة ستكون الأتمتة هي القاعدة الأساسية التي تسود في مختلف القطاعات الاقتصادية، وفي مواجهة ذلك سيزداد الطلب على المفكرين والمبدعين والمبتكرين الذي يتفوقون في مجالات الفنون الليبرالية المتنوعة. ويرى كوبان أيضاً أن مستوى التغيير الذي سنراه في مجال الوظائف في السنوات الخمس أو العشر القادمة سيتفوق على ما شهدناه خلال السنوات الثلاثين الماضية، وفي الوقت الذي سيحتل فيه الذكاء الاصطناعي والتعلم الآلي وضعية مركزية في الحياة الاجتماعية والصناعية، سيكون هناك مزيد من متطلبات الخبرة في مواضيع مثل اللغة الإنجليزية، والفلسفة، واللغات الأجنبية. ووفقاً لتوقعاته، فإن بعضاً من أكثر المهارات المطلوبة اليوم، مثل كتابة البرامج الحاسوبية ستعتمد في النهاية على الأتمتة، ولكن مهارات التواصل والتفكير النقدي ستصبح أكثر أهمية وأكثر منعة[٣٥].

خاتمة - أو بارقة أمل

يحمل لنا المستقبل في طياته الألفية الثالثة ما يفوق قدرتنا اليوم على الفهم، وما يتجاوز إمكانية التصديق، والأخطر أن حوادثه المحتملة قد تفوق قدرة البشر على التخيل. فهناك تغيرات مذهلة قد تفقد الإنسان توازنه الاستراتيجي في مواجهة التغيرات التي تعصف بمختلف مظاهر الكينونة والوجود. وفي تأثيرها على الأفراد، فإن الثورة الصناعية الرابعة «لن تغير فقط ما نقوم به ولكنها ستغير أيضاً ما نحن عليه. إنها سوف تؤثر على هويتنا وجميع القضايا المرتبطة بها: خصوصيتنا واستقلاليتنا وأفكارنا وأنماط استهلاكنا، والوقت الذي نكرسه للعمل والترفيه، وكيف نطور عملنا، ومهاراتنا وكيف نلتقي بالآخرين ونطور علاقاتنا معهم.

(35) Billionaire Predicts Liberal Arts-Driven Future, Inside Higher Ed, mars 2017. url:https://www.insidehighered.com/quicktakes/2017/02/20/billionaire-predicts-liberal-arts-drivenfuture

وفي المستوى الوظيفي -دون غيره- كما قدمنا أعلاه، فإن الوظائف تتجه إلى الاختفاء والشركات إلى الاندثار، فالجديد يولد والقديم يموت من غير احتواء. والعالم يتغير والذهنيات تتبدل، وكأن الإنسان في عصف من جحيم التغير والتبدل والاختراع، التي يتحجر فيها الإنسان إلى حالة من التشيؤ والانصهار في عالم مادي تحكمه الآلات المدججة بالذكاء الاصطناعي. وإذ كان الإنسان في العصور القديمة يناضل كي لا يكون عبداً فعليه اليوم أن يناضل كي لا يكون آلة كما يقول أحد الحكماء.

ففي العالم الجديد كما أشرنا من المتوقع أن تهيمن الوظائف الجديدة المستقبلية للثورة الرابعة في العقود القليلة القادمة ولاسيما في مجالات: الذكاء الاصطناعي، وصناعة الروبوتات Robotics، وتكنولوجيا النانو Nanotechnology، والطباعة ثلاثية الأبعاد، وعلم الوراثة، والتكنولوجيا الحيوية. ويتوقع أصحاب العمل والصناعات الحصول على مهارات تربوية تتمثل في القدرة على الإقناع، والذكاء العاطفي، والقدرة على تعليم الآخرين وتأهيلهم إنسانياً وأخلاقياً. لقد أدرك أرباب العمل بالفعل قوة الفنون الحرة في تحفيز ريادة الأعمال وتطوير «المهارات الفردية» والاستجابة لمتطلبات السلامة في عملية الإنتاج والتوزيع[٣٦].

وفي مواجهة هذا العالم المتدفق بالذكاء الاصطناعي فإن المجتمعات الإنسانية مطالبة اليوم بوضع استراتيجيات مضمخة بالأمل في مواجهة التحديات وتمكين الفرص في إقامة مجتمعات عادلة خلاقة. وهي معنية ضمن هذه الاستراتيجيات الجديدة أن تقدم جوانب مضيئة في مجال احتواء مختلف التحديات ولاسيما مسألة الاغتراب الرقمي وتنامي الحضور المكثف للذكاء الاصطناعي وذلك لحماية الإنسان من الآثار السلبية للثورة الصناعية الرابعة.

---

(36) George Anders, You Can Do Anything: The Surprising Power of a “Useless” Liberal Arts Education (New York: Little, Brown and Company, 2017).

وفي المجال التربوي فإنه لمن الواجب على الأنظمة التربوية في العالم أن تطور استراتيجيات جديدة لمواجهة مختلف التحديات الناجمة عن الثورة ولاسيما تحديات اختفاء الوظائف والعمل على تأهيل الناشئة تأهيلاً مستقبلياً يعتمد على احتمالات الذكاء الاصطناعي وتمكين الناشئة من الخبرات والمهارات والمعارف التي يمكنها أن تواكب حركة التطور التكنولوجي الهائل في العقود القادمة من القرن الحادي والعشرين. وفي الختام نقول بأن الإنسان استطاع حتى يومنا هذا أن يجد لكل معضلة مخرجاً عبر تاريخه الطويل وهو بطاقته اللامحدودة وإمكانياته المذهلة لقادر على أن يحقق المستحيل، وكلنا أمل أن تجد الإنسانية طريقها المستنير في المحافظة على الكينونة الإنسانية في معركة البقاء والمصير.

قائمة المراجع

- سلام أحمد العبلاني، وعود الثورة الصناعية الرابعة منعطف هائل في تاريخ البشرية، (الافتتاحية) مجلة التقدم العلمي، مجلة الكويت، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، العدد ١٠٣، أكتوبر ٢٠١٨.
- محمد عبد القادر الفقي، الثورات الصناعية الأربع: إطلالة تاريخية، مجلة التقدم العلمي، مجلة علمية فصلية تصدر عن مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، العدد١٠٣، أكتوبر ٢٠١٨.
- محمد نجيب السعد، الثورة الصناعية الرابعة.. هل نحن مستعدون؟ جريدة الوطن العمانية، ٦ فبراير، ٢٠١٦.
- George Anders, You Can Do Anything: The Surprising Power of a "Useless" Liberal Arts Education (New York: Little, Brown and Company, 2017).
- Acemoglu D (MIT), Restrepo P (Université Boston), The Race Between Man and Machine: Implications of Technology for Growth, Factor Shares and Employment, MIT, mai 2016.url: https://economics.mit.edu/files/13179
- Eric Hobsbawm, Industry and Empire – The Birth of the Industrial Revolution (New York: The New Press, 1968).
- Eric Schmidt & Jared Cohen, The New Digital Age: Reshaping the Future of People, Nations and Business (United States: Alfred A. Knopf, 2013).
- Frey C.B., Osborne M.A., The Future of Employment - How susceptible are jobs to computerisation, Université d'Oxford: url: http://www.oxfordmartin.ox.ac.uk/downloads/academic/The_Future_of_Employment.pdf

- Graham Brown-Martin, L'Éducation et la quatrième révolution industrielle, Préparé pourGroupe Média TFO, août 2017.
- Mokyr, Joel, Chris Vickers, et Nicolas L. Ziebarth, The History of Technological Anxiety and the Future of Economic Growth: Is This Time Different? Journal of Economic Perspectives, 29 (3) 2015.
- Robert Gordon "The Rise and Fall of American Growth: The US Standard of Living since the Civil War" (Princeton University Press, 2016).
- Arnold Toynbee, Lectures on the Industrial Revolution (London: Rivingtons, 1884).

الهجرة ومعضلة الاندماج في المجتمعات الجديدة

عــلا بيــاض*

تشهد «قضية الهجرة» اهتماماً دولياً وإقليمياً، خاصة في أستراليا وكندا والولايات المتحدة وأوروبا، وكذلك في إفريقيا وأمريكا اللاتينية ومنطقة الشرق الأوسط، وقد احتلت هذه القضية صدارة اجتماعات أممية وإقليمية. وأصبحت الهجرة ورقة سياسية هامة في الانتخابات وبرامج الحكومات والأحزاب السياسية، وخضعت إلى الكثير من التسييس.

ويعود تاريخ الهجرة في عالمنا المعاصر إلى عام ١٩٤٥ حين تصاعدت مع حاجة العالم الغربي إلى الأيدي العاملة والتطور الصناعي والعمراني. وتصاعدت بعدها هجرة الموارد البشرية التي تمتلك المعرفة والمهارات التقنية من بلادها الأصلية النامية إلى البلدان المتقدمة، بسبب ما تواجهه هذه الموارد البشرية من صعوبات في بلادها الأصلية مثل الحروب، والنزاعات المسلحة، وعدم الاستقرار السياسي، والبطالة، وقلة فرص التقدم الوظيفي، وندرة مجالات البحث العلمي.

ويرى الشباب في الهجرة تحقيقاً لطموحاتهم وتوفيراً لفرص الحياة المرفهة، ولكن المشكلة الأخطر ليست في الفئة التي توفرت لها الفرص واستطاعت الهجرة، وإنما في أولئك الذين لم يتمكنوا من الهجرة ويحتاجون إلى الحماية والأمن والأمان.

---

* رئيسة تحرير مجلة «عرب أستراليا» سيدني/أستراليا.

لقد بات معروفاً أن الهجرة في الغالب تكون من الدول الفقيرة إلى الدول الغنية، وتكون ذات أسباب ودوافع اقتصادية. على سبيل المثال، هجرة الأفراد والجماعات من أمريكا اللاتينية والمكسيك وفنزويلا إلى الولايات المتحدة، وهجرة دول غرب إفريقيا عبر السواحل الليبية إلى إيطاليا وإسبانيا، ثم بقية دول أوروبا.

قوانين تعديل تشريعات الهجرة

أستراليا

غيّر قانون تعديل تشريعات الهجرة والسلطات البحرية طريقة أستراليا في إدارة ومعالجة حالات طالبي اللجوء من خلال تعديل خمسة قوانين محلية: قانون السلطات البحرية لعام ٢٠١٣، وقانون الهجرة لعام ١٩٥٨، ولوائح الهجرة لعام ١٩٩٤، وقانون الهجرة (الوصاية على الأطفال) لعام ١٩٤٦، والقرارات الإدارية (المراجعة القضائية) لعام ١٩٧٧. وركز مشروع القانون على إزالة كل إشارة إلى القانون الدولي، وهو تكتيك أشاد به وزير الهجرة سكوت موريسون عندما قدم التشريع في البرلمان.

إيطاليا

إيطاليا ذات السواحل الجنوبية قِبلة لأعداد هائلة من المهاجرين، وقد أصدرت قانوناً خاصاً للهجرة في مارس ١٩٩٨، وضعت فيه لأول مرة مواد تخص الهجرة غير الشرعية من خلال معالجة إجراءات الدخول وتجديد إقامات الأجانب.

بريطانيا

اتخذت الحكومة البريطانية عدداً من الإجراءات التي تهدف إلى الحد من عدد المهاجرين إليها، تمثّل أهمها في إصدار قانونٍ جديدٍ في ١٠ أكتوبر ٢٠١٣ يضع العديد من القيود على المهاجرين واللاجئين.

فرنسا

في فرنسا صدر قانون ١٧ يوليو ١٩٨٤ لتنظيم وتحديد الإقامات في فرنسا، ثم صدرت بعد ذلك سلسلة تشريعات منها، قانون ٢٤ أغسطس ١٩٩٣ ثم قانون إبريل ١٩٩٧ وقانون نوفمبر ٢٠٠٣، وظهر بعد ذلك حديث اندماج المهاجرين المقيمين.

من الممكن أن تكون الهجرة نتيجة المشاكل الاجتماعية والسياسية مثل النزاع المسلح، وانتهاك حقوق الإنسان، والكوارث البيئية. كما أن السبب الرئيسي للحركة الطوعية للسكان بين الحدود الوطنية وداخلها يعود إلى التفاوت الأولي والمتنامي في التنمية بين الدول. ولأسباب هذه التحركات وعواقبها أبعاد اقتصادية وسياسية واجتماعية وديموغرافية، وفقاً لرأي عدد من الباحثين.

هذه الظاهرة التاريخيّة للهجرة ساهمت في إعمار الأرض، وهي تؤدي دوراً مهماً في تلاقي مجموعات بشريّة متنوّعة الثّقافات، ممّا يسمح بالتّلاقح والتفاعل الثّقافي وبناء حضارة إنسانيّة مشتركة، الأمر الذي جعل الهجرة أشبه بعملية ولادة جديدة، قد تكون مدخلاً إلى عالم أفضل، لكنها بالتأكيد تحمل معها مصاعبها، فالمهاجرون يعدون السواعد الشابة والدماء الجديدة. وهنا تبرز الحاجة الماسة التي تقف كتحدٍ أمام المهاجر كي يتأقلم مع وضع البلد الجديد نحو الاندماج الحقيقي مع المجتمع.

إن إنجاح عملية الاندماج مسؤولية مشتركة تتحمل الدول المضيفة جزءاً كبيراً منها، فيجب عليها احترام التعددية والطقوس الدينية، ووضع أطر تتيح مشاركة الجميع في شتى سُبل الحياة دون تمييز، للوصول في النهاية إلى مجتمع ديموقراطي تعددي ومزدهر.

أنماط تفاعل المهاجر في بلد الهجرة

يؤكد الباحثون وجود أربعة أنماط أو مستويات للتفاعل والتأقلم حضارياً وثقافياً واجتماعياً في مجتمعات الهجرة والبيئة الجديدة، وهي العزلة الاختيارية، والتهميش، والاندماج، وأخيراً الاستيعاب والانصهار. ويعدّ اندماج المهاجرين

هدفاً تسعى إليه الدول المستقبِلة للهجرة. غير أن هناك جدلاً حاداً حول مفهوم الاندماج ونطاقه. ويشكل تعلم اللغة وإيجاد مهنة جديدة أو فرصة عمل، اللبنة الأساسية لأي عملية اندماج؛ إذ إنّ المهاجرين الذين يلجؤون إلى الاندماج يكون لديهم، بصورة عامّة، ثقة كبيرة بأنفسهم، ولديهم صورة إيجابيّة عن ثقافتهم الأم ويعتزّون بها، ولكنّهم في الوقت نفسه يعتبرون ثقافة المجتمع المُضيف جديرة بالاحترام والثّقة.

ولا شك أنّ المسألة ترتبط بخصائص المجتمع المُضيف وسياساته في تبني حاجات اللاجئ الأساسية من رعاية صحية وتعليم وعمل، إضافة للجنسية التي تمنحه كل حقوقه، كتسوية أوضاعه ومنحه امتيازات مرتبطة بالتساهل والولوج المباشر إلى الإدارات والمناصب الكبيرة بهدف لتسهيل عملية الاندماج وتحدي المعوقات والسعي لتخطيها والتعايش معها. فنحن هنا بصدد قضية الهجرة لنصِفَ واقعها، ونضع لعملية اندماج الشرقيين في المجتمعات الغربية بعض النقاط التي تسهل عليهم الحياة الكريمة في بلاد غير بلادهم، حتى يحظوا بالتقدير والاحترام والدافع نحو مستقبل آمن.

لقد ظهر في الجاليات تياران رئيسيان، أوّلهما تقوده أقلّيّة نشطة، تنادي برفض الغرب الذي تعيش فيه، وتدعو إلى مقاومة ثقافته والانعزال عنه. وثانيهما يشكل أكثرية ترفض جوانب من ثقافة الغرب، ولكنّه مستعدّ للتّعامل معها والعيش في ظلّها، شريطة أن يحتفظ بثقافته، وأن تحترمها ثقافة الأغلبيّة.

عوائق الاندماج الاجتماعي في المجتمعات الجديدة

- **صعوبة إيجاد عمل**: تزداد الصعوبة عندما يكون اللاجئ أو المهاجر حاصلاً على شهادة جامعية في الطب أو القانون أو الهندسة؛ إذ ليس من السهل تعديلها، وقد يضطر إلى العودة إلى مقاعد الدراسة الجامعية لبضع سنوات لإعادة التحصيل العلمي، وتدعيم الطلب بسنوات الخبرة والتجربة. وهنا يضطر بعض اللاجئين للعمل خارج نطاق دراستهم من أجل الحصول على المال.

- **صعوبة تعلم اللغة**: إن الكثير من المهاجرين، وبالذات من ذوي الأعمار الكبيرة ممن تجاوزوا الأربعين، لم يتعلموا لغات البلدان التي هاجروا إليها إلا بمستوى صغير ضحل، بقدر لا يتجاوز احتياجات تسيير الحياة اليومية.

- **التقوقع الاجتماعي**: بعض العلاقات بين المهاجرين ومواطني الدول التي هاجروا إليها شبه معدومة، وبقيت محصورة مع أبناء وطنهم فقط للحفاظ على إرثهم وعاداتهم وتقاليدهم. وأفرزت هذه الحالة حرصهم على السكن بالقرب من بعضهم البعض، وتشكيل مستوطنات صغيرة تعج بهم، وإيجاد ظروف انعزالية يعيشون فيها حياتهم اليومية وكأنهم في موطنهم.

- **انخفاض فرص العمل**: نجد بعض المهاجرين غير منخرطين في سوق العمل في البلدان التي استقروا فيها؛ إذ إنهم معتمدون بالدرجة الأساس على المساعدات والتسهيلات التي تقدمها حكومات تلك الدول.

- **التقوقع الديني**: نمت في نفوس بعض المهاجرين ظواهر التعصب الديني والتشدد، وأصبحوا يميلون إلى الانعزال عن بقية مواطني الدول التي يقيمون بها لأنهم يدينون بديانات مختلفة. فيعيشون كالغرباء في البلدان التي هاجروا إليها، غير عارفين بطبائع وعادات الشعوب الحاضنة، ولا تربط بينهم أية روابط أو علاقات، ويعيشون كجالية متقوقعة على نفسها. فإذا كان المُهاجر غير مستعد للدخول في توافقات فلن يجد طريقه إلى الاندماج.

الاندماج في المجتمعات الجديدة

كان اندماج المهاجر في المجتمعات الجديدة أكثر سهولة في القرون الماضية، وأبعد عن التعصب والنفور من الآخر. وحين تم اكتشاف قارة أمريكا، قطعت موجات المهاجرين الأولى التي وصلت إليها والتي تدفقت من مختلف بلدان أوروبا تذكرة باتجاه واحد، ولم تفكر بالعودة إلى أوطانها الأصلية في يوم من الأيام. وكانت أصول تلك الموجات البشرية المهاجرة آتية من بلدان متعددة، وتتكلم بلغات مختلفة، وتحمل ثقافات متباينة، ولديها طبائع غير متشابهة. ونذكر أيضاً حين

فتحت أستراليا أبواب الهجرة في السبعينيات من أجل نهضة أستراليا وبنائها بسواعد المهاجرين، انصهرت هذه الجاليات ذات الأصول والثقافات واللغات والطبائع المختلفة فيما بينها وأسست المجتمع الأسترالي.

وجرى وقتها تأسيس المستوطنات السكانية الأولى في أراضي العالم الجديد من قبل تلك الجاليات المهاجرة. ولم تفكر أي جالية منها بأن تتقوقع على نفسها وتنعزل عن بقية الجاليات، بل أخذت تتاجر فيما بينها، وتؤسس الروابط وتبني العلاقات مع بعضها البعض، وتتبادل المعلومات والخبرات خصوصاً فيما يتعلق بالأرض التي استوطنتها بما يعود بالفائدة عليهم جميعاً. لا يعني هذا أبداً بأن ذلك قد أزال الصفات الخاصة التي تتمتع بها كل جالية، بل إن الكثير من تلك الخواص ظلت موجودة، وتُمارس بفخر واعتزاز وتُحترم من قبل الجميع. إن هذا الوضع لم يأتِ من فراغ أو عبث، بل جاء نتيجة حرص القادمين إلى تلك الأرض على تجاوز عوامل الاختلاف بينهم، وتحويلها إلى عوامل ربط عوضاً عن جعلها عوامل تفرقة.

يمكن القول بأن أسباب الانصهار لتكوين مجتمع واحد ترجع بالدرجة الأساس إلى سعي المهاجرين للاستقرار في وطنهم الثاني، ورغبتهم واستعدادهم للتغير، والتأقلم والاصطباغ بصبغات الدول التي يستقرون فيها، ودفَع الاغتراب لهم والتعاون مع بعضهم البعض لدحر الصعوبات والتحديات التي تواجههم في بيئتهم الجديدة. حتى إن أبناء الجيل الثاني منهم من أصبح مواطناً يصعب التمييز بينه وبين مواطن البلد الأصلي، لكن هذا لا يعني أبداً أن المهاجرين العرب من هذه الفئات تنكّروا لمجتمعاتهم الأصلية، أو تخلوا عن وطنيتهم أو نسوا ثقافاتهم، بل نجد أبناء الجيل الأول منهم يعقدون لقاءات تجمعهم، حيث يلبسون ملابسهم التراثية، ويمارسون عاداتهم القديمة، ويتغنون بإرثهم الثقافي والفني، ويتبادلون الأحاديث بلغاتهم الأصلية.

اليمين المتطرف ورفض الهجرة

برز مع ظهور اليمين المتطرف في أكثر دول العالم معاداة الأجانب ورفضهم الهجرة، والعداء للإسلام والمسلمين فيما عُرف بظاهرة الإسلاموفوبيا، وتصاعد فكرة القومية. وذلك من أجل الدفاع عن الهوية الوطنية والتقاليد التاريخية استناداً إلى رؤية الدولة أحادية العرق؛ إذ إن مكافحة الهجرة وعدم تقبل المهاجر هي الرسالة الأساسية لليمين المتطرف باعتقاده أنها تهديد لهويته الاجتماعية. ويرى اليمين أن ما يحدث في أوروبا من جرائم وسرقات هي نتيجة زيادة الهجرة، وأن عادات وتقاليد المسلمين والأجانب غير مُرحّب بها في بلادهم.

باتت الهجرة الشغل الشاغل لليمين المتطرف الذي يسوّق إشكالاتها العديدة (وأولها الاندماج والهوية) لإضفاء قابلية على خطابه العنصري والمعادي للأجانب في حقيقته. وهكذا طوّر اليمين المتطرف خطابه ضد الهجرة لإكسابه حجية أقوى لدى قطاعات أوسع من المواطنين الأوروبيين.

الهوية والاندماج الاجتماعي

في محور الهوية التي تشكل تحدياً لاندماج المهاجرين في ثقافة البلد المستقبِل، وفي صراعها المتواصل أو تعارضها الدائم بين تأثيرات النزعة القومية والتمسك بالخصوصية الثقافية للمهاجرين من جهة، وقيم التعايش والانخراط ضمن المشاريع التي تطلق لتعزيز القواسم المشتركة والمصالح العامة للمجتمع وتحقيق العدل والمساواة للجميع من جهة أخرى، وتكلفة كل منها وآثارها على المهاجرين.

لا شك أن بناء الإنسان هو من أصعب أنواع البناء، وأكثره استهلاكاً للوقت والجهد، والمال أيضاً (في مرحلة معينة). ومما لا شك فيه أن أفضل وسيلة لبناء الإنسان هو تعليمه، وذلك هو الدور الأساسي الذي تقوم به دول المهجر للمهاجرين من الجيل الصاعد، فالتعليم والتدريب هما أفضل طريقة لبناء الإنسان والمجتمعات المتطورة.

ما تحتاجه الدول المستقبلة هو تعزيز سياسات الاندماج الاجتماعي، وسياسة التسامح، ومبدأ تقبل الآخر. وتتحمل هذه الدول بعض المسؤولية في تصاعد التطرف اليميني والإسلاموفوبيا، وربما يعود ذلك التصاعد إلى الدعاية التي تعتمدها الجماعات اليمينية المتطرفة، خاصة عبر وسائل التواصل الاجتماعي، وكذلك عبر الاحتجاجات.

كما كشفت تقارير الحكومات ومحركات الإنترنت استغلال اليمين المتطرف للعمليات الإرهابية التي تنفذها الجماعات المتطرفة، أو من يتورط فيها من أبناء المهاجرين أو اللاجئين، من أجل صناعة الكراهية وفبركة الأخبار، إلى حد أصبح معه الخطاب اليميني مؤثراً في أجندات عمل الأحزاب السياسية والانتخابات، وكان في الغالب ضحيتها المهاجر. وربما عمل انشغال الحكومات في محاربة التطرف الإسلاموي على تنامي التيارات اليمينية الشعبوية. وتتحمل محركات الإنترنت هي الأخرى المسؤولية عن تنامي الخطاب المتطرف.

التوصيات

- اعتماد الحكومات سياسات متكاملة في مجال الاندماج الاجتماعي، بتوفير فرص العمل والدراسة للمهاجرين وأبنائهم.
- عقد الحكومات مواثيق واتفاقات مع محركات الإنترنت لحذف خطاب الكراهية والتطرف.
- مساهمة الحكومة والمنظمات المدنية بالكشف عن الوجه الإيجابي للهجرة وتاريخها في النهضة الاقتصادية والعمرانية لبعض الدول المستقبلة.
- إيجاد شراكات ما بين الدول المصدّرة للهجرة والدول المستقبِلة، تقوم على أساس معالجة جذور الهجرة «غير الشرعية» وتنفيذ مشاريع تنموية واقتصادية.
- مساهمة الأمم المتحدة في ضمان حماية المدنيين في مناطق النزاعات والصراعات.
- مساهمة المنظمات الأممية مثل Human Rights وغيرها من المنظمات الدولية بكشف ممارسات بعض الأنظمة الشمولية في دول العالم الثالث، وحفظ كرامة الإنسان.

عندما أصبحت اللغة العربية لغة العلم

مصطفى يعقوب عبد النبي *

يكاد المستشرقون ومؤرخو العلم من الغربيين عدا قلة معدودة يُجمِعون على إسقاط دور العرب من تاريخ العلم الإنساني، وأن العرب لم يتعد دورهم في هذا المجال إلا في الاحتفاظ بتراث الإغريق عن طريق ترجمة مؤلفات أعلام هذا التراث في الفلسفة والمنطق والرياضيات والفلك...إلخ. وقد كان لهم في هذا المنحى أساليب شتى وصيغ مختلفة، بحيث يظن القارئ لأول وهلة أنهم على حق، غير أن البحث والمراجعة والتحقيق والتدقيق سوف يفضي في نهاية المطاف إلى نتيجة مؤداها أن تاريخ العلم مدين للعرب أكثر من أي شعب آخر، دون أن نجحد فضل اليونان والفرس والهنود، وهي الشعوب التي عكف العرب على ترجمة مؤلفاتها العلمية إبان حركة الترجمة في العصر العباسي. وقد يتعجب الكثيرون من هذه النتيجة، ولكن سرعان ما يزول العجب ويحل محله الإعجاب، عندما نسوق دليلاً دامغاً ليست به ذرة من شك أو مجال للظن والتخمين، ومن العجيب أن هذا الدليل ماثل أمام أعيننا كلما طالعنا مرجعاً في الرياضيات أو في الطب أو في الفلك وغيرها من العلوم في لغاتها الأجنبية المختلفة، وهذا الدليل هو مفردات اللغة العربية ذاتها التي تسربت إلى اللاتينية ومنها إلى باقي اللغات الأوروبية إبان حركة الترجمة التي حدثت في أوروبا إبان عصر النهضة

---

* كبير باحثين بهيئة المساحة الجيولوجية (سابقاً)/مصر.

الأوروبية وما قبلها، حيث عكف علماء أوروبا على ترجمة التراث العلمي العربي مما هو معروف ومشهور في هذا الشأن.

ويمكن لنا -إنصافاً للحقيقة- أن نميز بين نوعين من المفردات، الأول: مفردات تتعلق بالبيئة والمناخ مثل أنواع النباتات والحيوانات التي تفرضها البيئة الجغرافية، فالنباتات أو الحيوانات في البيئة الصحراوية حيث الحرارة والجفاف تختلف اختلافاً جوهرياً عن النباتات أو الحيوانات في أوروبا مثلاً حيث البرودة وكثرة الأمطار، فتسرب مفردة من مفردات اللغة إلى لغة أخرى ليست بميزة للغة الأولى، لأنها وليدة البيئة فلا فضل للغة على أخرى في هذا المجال. الثاني: إن التمايز والتفاضل بين لغة و أخرى يأتي تعبيراً وترجماناً للحياة العقلية والعلمية في الأقطار التي تسود فيها تلك اللغة، ونعنى بها المصطلحات العلمية فهو الشاهد العدل على مدى تفوق هذه اللغة على تلك باعتبارها وليدة جهد عقلي وليست وليدة ظروف بيئية أو مناخية، وذلك وفقاً لأدبيات التاريخ من سيطرة الغالب على المغلوب وأن المغلوب مولع باقتداء الغالب. وقبل أن نسوق هذا الدليل يجب علينا أن نذكر عدداً من الاعتبارات المهمة:

أولاً: نظرة المستشرقين إلى العطاء العلمي العربي

لم يترك المستشرقون ومؤرخو العلم من الغربيين باباً من أبواب التهوين والتشكيك في التراث العلمي العربي الإسلامي إلا وسلكوه، بل أن بعضهم أنكر أن يكون للعرب تراثاً علميّاً ذا شأن، أو أنه قد أثّر في مسيرة العلم والحضارة الإنسانية بشكل من الأشكال. يقول الأستاذ بوستان Postan أستاذ التاريخ الاقتصادي بجامعة كمبردج: «يتّفق الناس عامّة على أن العصور الوسطى -يقصد حقبة الحضارة العربية الإسلامية- حفظت علم القدماء لاستخدامه في الأزمنة التالية. كان ذلك عظيماً ولكن الأمر لا يتجاوز هذا الحد. إن الذي تسلمته العصور الوسطى لم تزد عليه إلا قليلاً. والواقع أن مشاركة أهل العصور الوسطى -يقصد المسلمين- في تطور العلم بلغت من الضآلة حدّاً جعل مؤرخي العلم يميلون إلى اعتبار العصور الوسطى فترة توقف»[1].

ولقد بلغ الأمر مداه من الجهل - ربما - أو التعصب - غالباً - بمؤرخ أن يصرّح بأن بدايات العلم الحديث في عصر النهضة الأوروبية، إنما هي امتدادٌ للعلم الإغريقي، وأن العلم قد انقطع فترة تزيد على الألف سنة. يقول بنيامين فارنتن B. Farrangton في كتابه «العلم الإغريقي»: «عندما بدأ العلم الحديث في إظهار دلائل الحياة الزاخرة في القرن السادس عشر أحس كثيرٌ من الروّاد - وكانوا في إحساسهم من الصادقين أنهم إنما يستأنفون التراث الإغريقي القديم الذي انقطع لفترة تزيد على الألف عام. كان عملهم الجديد في نظرهم، امتداداً للعلم القديم. وكانت الكتب الإغريقية القديمة التي يسّرها لهم اختراع الطباعة وظهور نظام الدراسة الحديث، هي خير ما يمكنهم الحصول عليه؛ إذ كانت في الواقع آخر ما كُتب في فروع المعرفة المتباينة»[٢].

ثانياً: الإشادة بدور الإغريق على حساب العرب

لم يترك المستشرقون ومؤرخو العلم سبيلاً من سبل الإشادة بالإغريق وعلوم الإغريق - بالحق أو بالباطل - إلا وسلكوه وذلك خصماً من رصيد العرب العلمي، وأن العلم العربي - في زعمهم - إنما هو علم إغريقي قد كتب باللسان العربي. وعلى سبيل المثال يقول مارتن بلسنر M.Plessner في الفصل الخاص الذي كتبه ضمن فصول كتاب «تراث الإسلام»: «وبرغم معرفة المسلمين بالمنجزات العلمية للثقافات الأخرى، فإن علوم الإغريق كانت هي التي قدر لها أن تؤثر تأثيراً حاسماً على العلم الإسلامي»[٣]. وقد ردد هذا المعنى رنيه تاتون R. Taton المشرف على موسوعة «تاريخ العلوم العام» بقوله: «إن النظرة القائلة بأن العلم العربي ناتج عن خليط أو تلقيح وتخصيب للمعارف العلمية عند كل الأمم لا يثبت أمام الفحص. إن هيكلية الفكر العلمي العربي هي يونانية تماماً»[٤].

أما المستشرق الفرنسي كارا دو فو Carra de Vaux فلا يتوانى عن الطعن الصريح في العرب حيث يقول: «لا ينبغي أن نتوقع أن نجد لدى العرب تلك العبقرية الخارقة، وتلك الموهبة المتمثلة في المخيلة العلمية، وذلك

الحماس، وذلك الابتكار في الفكر، مما نعرفه عن الإغريق. فالعرب قبل كل شيء إنما كانوا تلاميذ للإغريق، وما علومهم إلا استمرار لعلوم اليونان التي حافظوا عليها ورعوها، وفي بعض الحالات طوروها وحسنوها»[٥].

تلك هي النظرة التي سادت في أوساط غالبية المستشرقين والمؤرخين، وهي نظرة أبرز ما فيها، الجهل الواضح، والتعصب الفاضح حيال العلم العربي. ولعل المستشرق اليوغوسلافي أحمد سمايلوفتش Smilovitch لم يتجاوز حد الصواب بإدراكه الدافع الخفي وراء مثل هذه الادعاءات وذلك في قوله: «ولعل بعض النفوس في الغرب قد أحست بالمرارة من خضوع بلادها المطلق لذلك الطارق الجديد- يقصد بذلك الحضارة العربية والمد الإسلامي -فأرادت إنكار فضله وأشادت بحضارة اليونان والرومان. وكان من نتائج صراع الشرق والغرب منذ قرون وتفوق العرب على أوروبا، أن صار الغربيون يشعرون بمذلة سببها الخضوع للحضارة الإسلامية فحاولوا أن ينكروا فضل المسلمين على أوروبا»[٦].

وحول هذا المعنى يقول مونتجمري وات M.Watt: «إننا معشر الأوروبيين نأبى في عناد أن نقر بفضل الإسلام الحضاري علينا، ونميل أحياناً إلى التهوين من قدر وأهمية التأثير الإسلامي في تراثنا، بل ونتجاهل هذا التأثير تجاهلاً تاماً. والواجب علينا أن نعترف اعترافاً كاملاً بهذا الفضل. أما إنكاره أو إخفاء معالمه فلا يدل إلا على كبرياء زائف»[٧].

ثالثاً: انتقال العلم العربي إلى أوروبا

من المعروف أن الترجمة هي حركة من حركات الأمم الناهضة عرفها العرب في العصر العباسي عندما قاموا بترجمة تراث اليونان والفرس والهنود، كما عرفتها أوروبا فيما بعد إبان ما يسمى بعصر النهضة، والفرق بين الحركتين كبير للغاية فقد كانت النقلة في العصر العباسي من غير بني العرب، ولم يكونوا من الكفاءة بحيث كانت ترجماتهم يشوبها الكثير من الأخطاء المهنية أو الدس المتعمد وفقاً لمذاهبهم[٨].

وعلى الرغم من أن المستشرقين قد أفاضوا في أن ترجمة العرب لتراث اليونان والفرس والهنود كان لها الفضل الأكبر في تلك النهضة العلمية غير المسبوقة في تاريخ العلم، ناسين في ذلك -جهلاً أحياناً وقصداً في معظم الأحيان- أن العلماء العرب قد أجهدوا أنفسهم في تصحيح تلك الأخطاء وقضوا في ذلك قرنين ونصف من الزمان[٩]. ليس هذا فحسب بل أن العلماء العرب قد صححوا الكثير من أخطاء أساطين اليونان مثل جالينوس وبطليموس، فألفوا الكتب في ذلك مثل كتاب أبي بكر الرازي الذي ألف «الشكوك للرازي على كلام فاضل الأطباء جالينوس» كما ألف الحسن بن الهيثم «الشكوك على بطليموس» أما البيروني فقد كان لأخطاء اليونان من أطباء وعلماء رياضيات بالمرصاد في معظم مؤلفاته وخاصة «الجماهر في أحوال الجواهر» و «استخراج الأوتار من الدائرة»[١٠].

ومما يدعو للأسف الشديد أن تاريخ العلم قد أغفل هذه المكرمة للعلماء العرب وتجاهل كلية أن العرب هم أول أمة قد عرفت «النقد العلمي» -إذا جاز التعبير- أو التقويم العلمي، فلم يسلّموا بكل ما جاء في علوم اليونان بل قاموا بنقده وبيان أخطائه ومن ثم تصحيحه، ومعنى هذا أن التراث الإنساني كله من يونان وفرس وهنود فضلاً عما أضافه العلماء العرب طوال حقبة الحضارة العربية الإسلامية التي تصل من الزمان ما يقرب من ثمانية قرون، قد وصل سليماً من الأخطاء إلى علماء الغرب، فهل يذكر تاريخ العلم هذا؟

رابعاً: تسرب المصطلحات العلمية إلى أوروبا

من المعروف أن الخلفاء في العصر العباسي قد اهتموا بجلب مؤلفات اليونان والفرس والهنود، ومن ثم ترجمتها إلى العربية وقد بلغ المأمون في هذا الأمر حداً لا نظير له فقد كان يعطي زنة ما يترجم من الكتاب من الذهب مثلاً بمثل[١١] حتى كاد يفلس بيت المال[١٢]، وصارت بغداد عاصمة الثقافة والعلم في العالم كله وقتها، ونفس الشيء فعله الخلفاء والأمراء في الأندلس وعلى سبيل المثال فإن «عبد الرحمن الثاني قبل أن يتولى الإمارة قد أوفد العَلَم القرطبي

عباس بن ناصح على العراق، لكي يبحث له عن المؤلفات العلمية اليونانية والفارسية التي تُرجمت إلى اللغة العربية، وأن يقوم بنسخها له»[١٣]. كما أن سليله الحكم الثاني وقبل أن يعتلي عرش الخلافة عام ٣٥٠ هـ/٩٦١ م كما يقول بروفنسال Provencal نقلاً عن صاعد الطليطلي في كتابه «طبقات الأمم»: «هو الذي عمل على جلب المؤلفات الهامة النادرة المتعلقة بالعلوم القديمة والحديثة، من بغداد ومصر وأماكن أخرى في الشرق، وجمع منها في أواخر حكم أبيه وطيلة حكمه نفسه، عدداً يضاهي تقريباً العدد الذي جمعه الخلفاء العباسيون برمتهم، وبهذه الطريقة كوّن الحكم الثاني مكتبة هائلة في قصره بقرطبة تضم ما لا يقل عن أربع مئة ألف مجلد، وسرعان ما أخذت الطبقة الأرستقراطية في العاصمة تقلد العاهل الأموي بإنشاء مكتبات فنية خاصة بهم في قصورهم»[١٤]. ومعنى هذا أن التراث الإنساني كله -ولا سيما التراث العلمي منه- والمكتوب بالعربية كان بين أيدي الأوروبيين وفي القلب من بلادهم إبان سقوط الخلافة الأموية في الأندلس فلم يتكلفوا حلاً وترحالاً بحثاً عن كتب هنا أو هناك ولم يتكلفوا - أيضاً - ذهباً ولا مالاً، وعندها قامت أطول عملية ترجمة في التاريخ من العربية إلى اللاتينية مباشرة، فقد استمرت حركة ترجمة التراث العربي بوجه عام من القرن الثامن حتى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي[١٥]. والدليل على ذلك أنه قد أنشئت المؤسسات والمعاهد العلمية بغرض ترجمة المؤلفات العربية إلى اللاتينية، فضلاً عن نشاط الأفراد الذين عكفوا على مؤلفات التراث العربي بحثاً وترجمة إلى اللاتينية، في محاولة منهم لفهم سر تقدم العرب وارتقاء حضارتهم الزاهرة بالقياس إلى أوروبا التي كانت تعيش وقتها في ظلام العصور الوسطى.

وعن ترجمة المؤلفات العربية إلى اللاتينية يحدثنا يوجين أ.مايرز Eugene A. Myers بقوله: «كانت الترجمة في القرن الثاني عشر في أوروبا من العربية إلى اللاتينية تفوق المنجزات الأخرى. وكانت هذه الفترة تمتاز بنعمة وجود أعظم مترجم على مر العصور ألا وهو جيرار الكرموني، وقد فتح عمله الذي لا نظير له في حقل الترجمة للعالم اللاتيني كنوز الفلسفة والرياضيات والفلك

والطبيعة والطب والكيمياء الإغريقية والعربية. وساعد نقل المعارف العربية إلى الغرب في تمهيد الطريق لتأسيس الجامعات. فتأسست في نهاية القرن الثاني عشر جامعتا ساليرنو وبولوني في إيطاليا، وجامعتا باريس ومونبلييه في فرنسا، وأوكسفورد في إنجلترا»[١٦].

وكان من جراء حركة الترجمة النشطة من العربية إلى اللاتينية أن كثرت الألفاظ العربية التي تسربت بدورها إلى سائر اللغات الأوروبية، وفي هذا يقول ول ديورانت W. Durant في مؤلفه الشهير «قصة الحضارة»: «وقد أحدثت هذه التراجم كلها في أوروبا اللاتينية ثورة عظيمة الخطر، ذلك أن تدفق النصوص العلمية من بلاد الإسلام واليونان كان له أعمق الأثر في استثارة العلماء الذين بدءوا يستيقظون من سباتهم. وكان عجز المترجمين عن أن يجدوا مفردات لاتينية تؤدي المعاني التي يريدون نقلها إلى تلك اللغة هو الذي أدى إلى دخول كثير من الألفاظ العربية في اللغات الأوروبية»[١٧].

وبالفعل فقد لفتت كثرة الألفاظ العربية في اللغات الأوروبية أنظار بعض الباحثين فألفوا المعاجم الخاصة الدالة على ورود الألفاظ العربية في هذه اللغة أو تلك، ومن أشهر المعاجم التي أوردت بعض الألفاظ العربية في اللغة الإنجليزية كتاب وولت تايلور Walt Taylor والذي عنوانه ARABIC WORDS IN ENGLISH والصادر في سنة ١٩٣٣، ومن الطريف أنه قد أورد تاريخ كل لفظة عربية دخلت إلى الإنجليزية[١٨]. ولعل مؤسسة من المؤسسات العلمية والثقافية وما أكثرها في أقطار الوطن العربي أن تعيد طبع هذا القاموس، وتوزيعه على مكتبات الجامعات العربية حتى يستفيد منه ألوف الباحثين في التراث العربي وتاريخ العلم، ولاسيما أن حقوق الملكية قد سقطت بطول المدة التي حددها قانون حقوق الملكية الفكرية.

وقد خلص الأستاذ أنيس المقدسي باستقرائه لنسب تلك التواريخ، إلى تقسيم دخول الألفاظ العربية إلى الإنجليزية إلى ثلاثة أدوار؛ قديم ومتوسط ومتأخر.

ففي الدور القديم (١٠٥٠ - ١٢٥٠ م) كان الداخل ٣ بالمائة.

وفي الدور المتوسط (١٢٥٠ - ١٤٥٠ م) كان الداخل ١٤ بالمائة.

وفي الدور المتأخر (١٤٥٠ وما بعده) كان الداخل ٨٣ بالمائة [١٩].

وإذا قارنّا هذه التواريخ بتواريخ الحروب الصليبية التي استمرت من سنة ١٠٥٩م[٢٠]، وهي السنة التي بدأت فيها الحرب الصليبية الأولى وحتى سنة ١٢٠٤م، وهي السنة التي شهدت نهاية الحرب الصليبية الرابعة[٢١]، لأدركنا أننا حيال الدور القديم الذي دخل إلى اللغة الإنجليزية ٣ بالمائة من مجموع الألفاظ العربية التي دخلت إلى الإنجليزية. ولعلنا يدركنا العجب عندما نعلم أن هذه الثلاثة بالمائة، إنما تمثّل ألف لفظة عربية، كما جاء على لسان ول ديورانت، وهو يستعرض نتائج الحروب الصليبية، أنه قد «دخلت ألف كلمة وكلمة من اللغة العربية إلى اللغات الأوروبية»[٢٢].

إذاً فقد قضي الأمر واستقرت المصطلحات العلمية العربية في اللاتينية ومنها إلى باقي لغات العالم دليلاً على التفوق العربي في مجال العلوم وأن العالم مدين بعلمه إلى معلّمه الأول -أي العرب- والذي أخذ عنه وأسس عليه ما نحن فيه من تقدم علمي بدليل تلك المصطلحات العلمية التي تشيع في مراجع العلوم المختلفة.

وفيما يلي طائفة من الشواهد الحية تصحيحاً لأخطاء شتى في تاريخ العلم، علماً بأننا سوف نتجنب الحديث عن الآراء والأفكار والنظريات العلمية المبتكرة وغير المسبوقة، فهذا أمر قد أفاض فيه من أفاض من الباحثين عرباً وغير عرب، ولكننا سوف نركز على عروبة المصطلحات العلمية فقط.

أولاً: الرياضيات

من الآراء المستقرة في مؤلفات تاريخ العلم الذي كتبه المؤرخون الغربيون؛ أن الرياضيات هي عنوان المعجزة اليونانية على حد وصفهم وأن العالم مدين لليونان في هذا الشأن، غير أن حقائق التاريخ ووثائقه قد أوضحت أن العالم

مدين للعرب في الرياضيات وليس لليونان، والدليل على ذلك أن عدداً من مفردات اللغة العربية قد سيطرت على الرياضيات في اللغات الأجنبية المختلفة دليلاً على تفوق العلم العربي منذ عصر النهضة وحتى الآن دون أن تتغلب عليها لغة أخرى. فإضافة إلى ما أقره لفيف كبير من مؤرخي العلم من فضل العرب في الرياضيات، سواء في استحداثهم لعدد من العلوم الرياضية التي استحدثها العلماء العرب، أو الآراء المبتكرة والنظريات غير المسبوقة، فإننا نعتقد أن هناك ثلاثة أمور، كلٌّ منها يعد في حد ذاته ثورة علمية عربية الأصل حرفاً ولفظاً ومعنى وكل منها ذات شأن كبير في تاريخ الرياضيات، والدليل على ذلك الأمور التالية:

الأمر الأول: اختراع «الصفر»

وهو الاختراع الذي عرفه العالم كله عن طريق العرب. فلم يحدث للعلم في تاريخه الطويل أن مصطلحاً علمياً ذاع وشاع وانتشر في أدبيات العلوم والآداب المختلفة، بل وتعدى انتشاره ليتغلغل في مناحي الحياة مثل «الصفر»، الذي ينطق بعروبته في كل اللغات المختلفة، فـ «الصفر» هو واحد من أشهر المصطلحات العلمية العربية الأصل إن لم يكن الأشهر على الإطلاق، حرفاً ولفظاً ومعنى، وأكثرها دوراناً على الألسنة و تداولاً في مؤلفات العلم وأدبياته فضلاً عن انتشاره في كل سطر مقروء وكل كلمة مسموعة في كل لغات العالم بأسره. لذا كان من الضروري أن يقول مؤرخ الرياضيات الفريد هوبر Hoper: «لقد جاءت كلمة Zero من الكلمة العربية صفر، وكلمة Zero نفسها مختصر للكلمة الإيطالية Zepiro وهذه أيضاً أصلها الكلمة العربية صفر»[٢٣]. ويضيف جوان فرنيه J.Vernet قائلاً: «والمعروف أن لفظة سيفر Cipher، وتعني الرقم بالإنجليزية، إنما اشتق أصلاً من الصفر العربية، وكانوا يرسمونه على هيئة حلقة في داخلها فراغ، وهو شكل أصبح يدل على الصفر لدى الغرب»[٢٤].

ولعل تاريخ الرياضيات لم يعرف ثورة مثلما أحدثه «الصفر» من ثورة كبرى في تاريخ العلم بوجه عام وتاريخ الرياضيات بوجه أخص، فلولاه لما تقدمت

فروع الرياضيات تقدمها المشهود ولما تقدمت المدنية على النحو الذي نشهده الآن في عصر الحاسوب (الكمبيوتر). وعن الصفر يقول الدكتور عبد الله الدفاع: «ابتكر المسلمون مفهوم الصفر الذي سهل العمليات الحسابية تسهيلاً لا حدود له، ويعتبره الرياضيون أعظم اختراع وصلت إليه البشرية. والذي يؤكد أن المسلمين هم الذين ابتدعوا الصفر هو استعمالهم له في أول مرة عام ٨٧٣ م، على حين لم يستعمله الهنود إلا في عام ٨٧٩ م. والجدير بالذكر أن أوروبا ظلت تتردد طيلة ٢٥٠ سنة قبل أن تقبل مفهوم الصفر رغم فوائده الجمة، واستمرت إلى القرن الثاني عشر في استعمالها الأعداد الرومانية البالية، وحاولت بكل جهدها أن تبتعد عن استخدام الأرقام العربية بصفرها، حتى فرضت هذه نفسها لتفوقها الكبير على كل الأرقام الأخرى»[٢٥].

ومن الغريب في الأمر والذي يدعو إلى الريبة، أن المؤرخين الغربيين الذين تناولوا في كتاباتهم تطور الأفكار العلمية تجاهلوا تماماً الصفر وأهميته في تطور العلم، وأغلب الظن أن هذا التجاهل مرده أن الغرب قد استكثر على العرب أن يكون لهم هذا الإبداع العلمي غير المسبوق والخارق للعادة. فلم يذكر مثلاً جيمس كونانت J. Conant في كتابه «مواقف حاسمة في تاريخ العلم» أية فكرة لعالم عربي ضمن الأفكار العلمية التي ساهمت في تطور العلم في الحضارة الإنسانية، كما لم يذكر أيضاً توماس كون Th.Khun في كتابه «بنية الثورات العلمية» خبراً واحداً عن الصفر أو عن أي عالم عربي على الرغم من أنه قد أورد عشرات الأسماء من العلماء بداية من عصر الإغريق وحتى العصر الحديث.

إذاً نحن أمام حالة من التجاهل التام والصمت المريب والإنكار المتعمد لإبداع عربي تمثل في مصطلح علمي عربي الحرف واللفظ والمعنى، وهو أكثر المصطلحات العلمية دوراناً على الألسنة و تداولاً في مؤلفات العلم وأدبياته فضلاً عن انتشاره في كل سطر مقروء وكل كلمة مسموعة في كل لغات العالم بأسره. ولعل جاك ريسلر J. Ressler قد فطن إلى هذا التجاهل المتعمد فكتب يقول في كتابه «الحضارة العربية» ناعياً على أوروبا ترددها في استخدام الأرقام

العربية: «واليوم، لا نصل إلى تعليل البطء الغريب الذي أحدثه الأوروبيون في استخدام الأعداد العربية، إذ لم يكن بسبب جهل عام. وكان أول من انتفع بالأعداد العربية إيطاليٍ قدم من أفريقية الشمالية في سنة ١٢٠٢ م وكان الاختراع مع ذلك عبقرياً، ويستطيع المرء أن يقول دون سخرية؛ إن الصفر كان يعد من بين أهم فتوح الجنس البشري»[٢٦].

الأمر الثاني: الجبر واللوغاريتمات

إذا كان الصفر قد تعدى أقصى الحدود لمصطلح ما ليكون القاسم المشترك الأعظم في شتى مناحي الحياة، فإن هناك مصطلحين عربيين آخرين من أشهر المصطلحات العربية وأكثرها انتشاراً في الرياضيات وإلى حدٍّ ما في غير الرياضيات من العلوم وهما؛ الجبر Algebra واللوغاريتمات Logarithm، وعن الجبر يروي لنا أحد مؤرخي الرياضيات قصة هذا المصطلح قائلاً: «لقد كتب الرياضي العربي الخوارزمي كتاباً في حل المعادلات وجعل له عنوان «الجبر والمقابلة». ولقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية تحت عنوان «مدرسة الجبر والمقابلة»، وبالتدريج اختصر هذا العنوان الغريب إلى الكلمة الدارجة «الجبر» وبذلك حلت الكلمة العربية Algebra محل الكلمة اليونانية Arithmetic»[٢٧].

أما اللوغاريتمات فتعد من أهم الأسس الرياضية، وهي مشتقة من اسم العالم العربي الكبير الخوارزمي، يقول مؤرخ العلم جوان فرنيه: «الخوارزمي يعتبر أول رياضي مسلم كبير. ونحن مدينون له بمحاولة وضع تنظيم منهجي باللغة العربية الذي يعني الترقيم (أي الأعداد ومنازلها والصفر) كما ندين له باللفظ Alogarithm، وهو مشتق من اسم الخوارزمي كما ورد في الترجمة لمصنفه المعروف باسم «كتاب الخوارزمي»[٢٨].

الأمر الثالث: الرموز الرياضية

لا يستطيع أحد أن يتخيل كيف يكون حال العلوم بوجه عام والرياضيات بوجه أخص، لو لم تكن الرموز الرياضية موجودة، وكم من الزمن سيتأخر ركب العلم في حال عدم وجود تلك الرموز، والتي وجدت طريقها إلى سائر العلوم

المتعلقة بالرياضيات كالفيزياء والفلك، فمما لاشك فيه أن استخدامها يعدّ من فتوحات العلم الكبرى، فهي من أهم الملامح الأساسية في تقدم الرياضيات، وقد نتعجب أشد العجب عندما نعلم أن ما تنعم به البشرية من تقدم علمي عماده الرموز الرياضية إنما هو اختراع عربي أصيل. تقول المستشرقة الألمانية ذغريد هونكه Z.Honke: «إن علم الجبر لا يزال حتى هذا اليوم يحتفظ بطابع عربي يتجلى في الـ "X" التي نضعها رمزاً للمجهول في معادلة ما. ثم أن هذا الحرف "X" الذي يليه حرفا "Y" و "Z" كرموز للمجهول في المعادلات. لقد سمى العرب كل شيء مجهول بقصد البحث عنه في المعادلات بـ «الشيء» ومختصر الشيء هو «ش» الذي يعادل صوتياً حرف الـ "X" في الإسبانية القديمة. إننا ما زلنا حتى هذه الأيام نتلقى، ونحن صغار في المدرسة، دروساً عن كيفية استعمال» الشيء «العربي في الحسابات»[٢٩].

ومن أشهر الرموز وأكثرها تداولاً في المعادلات الرياضية علامة الجذر $\sqrt{}$، ويتعجب البعض عندما يعرف أن هذه العلامة بمعناها وشكلها إنما هي عربية الأصل. يقول قدري حافظ طوقان: «واستعمل العلماء العرب بعد الخوارزمي الرموز في الأعمال الرياضية، وسبقوا الغربيين في هذا المضمار، ومن يتصفح مؤلفات القلصادي يتبين له صحة ما ذهبنا إليه، فلقد استعمل لعلامة الجذر الحرف الأول من كلمة جذر (جـ) أي ما يقابلها $\sqrt{}$»[٣٠]. ولاشك أن الحق فيما قاله طوقان لأن الكثير من مؤلفات التراث العربي قد شهدت نوعاً من الرموز التي تمثل الاختصارات في الألفاظ الدالة على قصد المؤلف، وعلى سبيل المثال فإن الفيروزابادي قد صنع شيئاً من الاختصارات وشرحها في معجمه الشهير «القاموس المحيط» مثل: «ج» أي جمع، و«م» أي معروف، و«ع» أي موضع و«د» أي بلدة...إلخ[٣٣]. كما شاع عند القدماء اختصار بعض العبارات، كاختصارهم «حدثنا» في: «ثنا» أو «نا»، و«أخبرنا» في: «أنا»، و «حدثني» في: «ثني» ونحو ذلك[٣٤].

إذاً فعلامة الجذر مشتقة من حرف «جـ» العربية شكلاً ومعنى.

الأمر الرابع: الأرقام أو الأعداد العربية

إن العالم كله شرقه وغربه -عدا دول قليلة للغاية من بينها مصر وبعض الدول العربية في المشرق -تستعمل ما يعرف في العالم كله بـ «الأرقام العربية» Arabic Numbers ولأن الحضارة البشرية لا تستغني عن الأرقام بحال من الأحوال، فإن الحضارة هنا مدِينة للعرب بقسط كبير منها فعلى أسس من العلم العربي قد أرست الحضارة البشرية قوائمها التي نشهدها الآن. وعلى الرغم من الجدل المثار في تاريخ العلم في أن العرب قد اقتبسوا هذه الأرقام من الهنود، إلا أنها قد عرفت في أرجاء العالم كله باسم «الأرقام العربية» لأن أوروبا قد عرفت هذه الأرقام عن طريق العرب. ولعل الدكتور قاسم علي سعد قد وضع الأمور في نصابها عندما أوضح في كتابه الشائق «الأرقام العربية... تاريخها وأصالتها» فقد خلص بعد أن استعرض في فصول كتابه رأي الباحثين ومؤرخي العلم عرباً وغير عرب بأن: «الأرقام في أوروبا وغيرها من النواحي «عربية النجار أوروبية الدثار»[٣٥] وقد كان الأوروبيون يستخدمون الأرقام الرومانية المعقدة والطويلة، فأي ثورة علمية تلك التي أدخلها العرب في الرياضيات، وما أدراك ما الرياضيات التي دخلت في كل علم. وعلى هذا فليس من الغريب على مؤرخ مثل هوبر أن يعترف بفضل العرب في الرياضيات ويقول: «شكراً للعرب الذين جلبوا الحكمة إلى أوروبا التي كانت غارقة في الجهل والتخلف. أدخل العرب الطريقة الجديدة الثورية في كتابة الأعداد، هذه الطريقة التي مهّدت السبيل لما يعرفه العالم الحديث في الهندسة والطيران»[٣٦].

ثانياً: الطب والصيدلة

عندما يقول مستشرق مثل ألدو مييلي A.Mieli عن كتاب «الحاوي» للرازي: «هو دائرة معارف ضخمة جداً وإن الدراسة العميقة له ستكون من أعظم الدراسات خطراً في تاريخ العلم»[٣٧]. وعندما يقول مونتجومري وات M.Watt عن ابن سينا (توفي عام ١٠٣٧): «فإن كتابه الكبير «القانون في الطب» يعتبر بحق -على حد تعبير مايرهوف M. Meyerhof- «ذروة التصنيف

المنهجي العربي ورائعته». وقد ترجم إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر، وظل يهيمن على الدراسات الطبية في أوروبا حتى نهاية القرن السادس عشر على أقل تقدير. وفي القرن الخامس عشر صدرت منه ست عشرة طبعة، في حين صدرت منه عشرون طبعة في القرن السادس عشر وطبعات أخرى في القرن السابع عشر»[٣٨]. وعندما يقول جوستاف لو بون J. Le Bon: «وترجمت أكثر كتب الرازي إلى اللغة اللاتينية وطبعت عدة مرات، وظلت جامعات الطب في أوروبا تعتمد على كتبه زمناً طويلاً. أما ابن سينا فقد نقلت كتبه إلى أكثر لغات العالم وظلت مرجعاً عاماً للطب ستة قرون، وبقيت أساساً للمباحث الطبية في جميع جامعات فرنسا وإيطاليا، وكان طبعها يعاد حتى القرن الثامن عشر»[٣٩].

وعندما يقول ول ديورانت: «ولا تزال المصطلحات العلمية العربية تملأ اللغات الأوروبية وظل العلماء العرب يحملون لواء الطب في العالم خمسمائة عام كاملة»[٤٠]. وعندما يقول جولدشتين Goldstein: «أنه نتيجة لاكتساح فيضان الأسماء العربية فقد أظهر الأوروبيون براعة في تحويل تلك الأصوات العربية إلى اللاتينية، أو إضفاء الطابع الغربي عليها ويتضح ذلك وهم يحولون اسم ابن سينا إلى Avicenna جعلوه يبدو وكأنه من أهالي إيطاليا [٤١].

وعندما يقول الفرد جيوم A. Guillaume: «وسحر لغة العرب تكمن في وضوحها وفي الكلام المستقيم المباشر، وستجد في أمكنة أخرى من هذا الكتاب أمثلة لما قدّمه اللسان العربي إلى لغات أوروبا، ستجد كم عاش من الكلمات العربية وقتلتها يد الرنيسانس (يقصد التحريف في الألفاظ العربية في عصر النهضة)، ماذا فعل الأطباء مثلاً بلفظة (soda) التي كانت عنواناً لأول بحث من الكتاب الثالث في قانون ابن سينا ؟ تلك الرسالة التي تعتبر رسالة عالمية في الصداع. إن هذا التحريف البربري لكلمة (صداع) أي وجع الرأس قد جاء رأساً من مادة الفعل (صدع) أي شق وفلق»[٤٢].

عندما يقول هؤلاء المستشرقون ومؤرخو العلم مثل هذا الحديث عن الطب والأطباء العرب، فأي سطوة للغة العربية بمصطلحاتها الطبية في مؤلفات

الطب في أوروبا ومن ثم بقية العالم. ومن الجدير بالذكر في هذا المقام أن بعض الفضلاء من الباحثين العرب قد ألف كتباً في هذا المجال، غيرة على اللغة العربية وإنصافاً للعلم العربي وتصحيحاً لتاريخ العلم، فقد ألف الدكتور محمد عبد العزيز أستاذ طب العيون بجامعة الأزهر كتاباً أسماه «الأصل العربي لمفردات طب العيون» كما ألف الدكتور أحمد رفعت الكشميري الأستاذ بكلية الطب جامعة الزقازيق كتاباً أسماه «الجذور العربية في المصطلحات الطبية».

أما الصيدلة فلا تبعد كثيراً عن الطب في هذا المجال، كما يقول مؤرخ شهير مثل هـ. ج. ويلز H. G. Wells، إذ يقول: «وتقدموا - أي العرب - في الطب أشواطاً بعيدة على الإغريق، ويكاد علم الأقراباذين (المادة الطيبة والتي تعادل ما بعرف في الإنجليزية Pharmacology) لديهم، أن يكون هو نفس ما لدينا. ولا يبرح كثير من طرق العلاج عندهم مستعملاً بين ظهرانينا إلى اليوم، وكان جراحوهم يفهمون استعمال التخدير ويقومون بطائفة من أصعب العمليات المعروفة، وفي نفس الوقت الذي كانت فيه الكنيسة تحرم ممارسة الطب انتظاراً منها لإتمام الشفاء على يد المناسك الدينية التي يقوم بها القساوسة، كان لدى العرب علم طبي»[٤٣]. واتساقاً مع هذا القول، يقول الدكتور توفيق الطويل: «وكان للعرب الفضل في كشف الكثير من الأدوية، وفي مقدمتها الكافور والصندل والراوند والمسك والمر والتمر هندي والحنظل... وغيرها، كما ابتدعوا صنوفاً من الشراب والكحول والمستحلب والخلاصة العطرية ونحوها»[٤٤]. وفي كتابه «العرب والعلم في عصره الذهبي» يقول الدكتور الطويل: «وأهم كتب ابن البيطار (١٢٤٩ م) «الجامع في الأدوية المفردة» وقد ضم أكثر من ألف وأربعمائة صنف من الأدوية، يقال أن بينها أربعمائة لم يسبقه صيدلاني من قبل»[٤٥] ومعنى هذا أن أربعمائة اسم من الأسماء العربية أو المعربة قد تسربت -كلها أو بعضها- إلى اللاتينية ومن ثم باقي لغات أوروبا. ولعل من يتصفح المعجم الشهير المعروف بـ «معجم أسماء النبات» لأحمد عيسى بك يجد أن الكثير من أسماء تلك النباتات قد عرفت طريقها إلى اللاتينية ومن ثم إلى لغات العالم، لا بوصفها من النباتات التي تختص بها بيئة جغرافية بعينها، ولكن بوصفها من الأدوية والعقاقير الطبية.

الكيمياء

الكيمياء؛ علم عربي أصيل لفظاً ومعنى، فمن ناحية اللفظ فقد استقر الرأي على أن «الكيمياء» Chemistry؛ هي كلمة عربية بشهادة مؤرخ الكيمياء هوليميارد Holmyard [٤٦]. وعرفت في سائر اللغات بهذا الاسم العربي الأصل. ويحدد وولت تايلور صاحب القاموس الذي مر ذكره سنة دخول لفظة «الكيمياء» إلى اللغة الإنجليزية بسنة ١٣٦٢ م تحت اسم Alchemy [٤٧]. هذا من ناحية اللفظ، أما من ناحية المعنى فيقول ديورانت: «يكاد المسلمين يكونون هم الذين ابتدعوا الكيمياء بوصفها علماً من العلوم؛ ذلك أن المسلمين أدخلوا الملاحظة الدقيقة والتجارب العملية والعناية برصد نتائجها في الميدان الذي اقتصر في اليونان على الخبرة الصناعية والفروض الغامضة، فقد اخترعوا الأنبيق وسمو بهذا الاسم وحللوا عدداً لا يحصى من المواد تحليلاً كيميائياً وميزوا بين الأحماض والقلويات ودرسوا مئات من العقاقير الطبية، وركبوا مئات منها. وبفضل الطريقة التي جروا عليها في اشتغالهم بهذا العلم وهي أكثر طرق العصور الوسطى انطباقاً على الوسائل العلمية الصحيحة»[٤٨]. ويقف ج. برنال G.Bernal على نفس المسافة من هذا الرأي فيقول: «تعتمد الكيمياء على الخبرة الواسعة الانتشار بالعديد من المواد والعمليات. وهذا هو ما فعله العرب، الأمر الذي يعطيهم الحق في أن نعتبرهم المؤسسين لعلم الكيمياء»[٤٩].

ولأن الكيمياء علم عربي محض فقد كانت التجربة والملاحظة والاستنتاج أدواته الناجعة التي ظلت إلى الآن هي نفس الأدوات، ويكفي أن غالبية العلماء العرب فخراً أنهم قد رفضوا رفضاً باتاً نظرية أو بالأحرى خرافة من خرافات التراث اليوناني كانت لو لم يتصدى لها العلماء العرب لتأخر علم الكيمياء وهي خرافة تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة والتي وضع أرسطو إطارها المنطقي، ونقلها العرب ضمن ما نقلوه من مؤلفات أرسطو، غير أنهم سرعان ما تبين لهم بطلانها وفساد منطقها[٥٠]. ولعل الذين يضخّمون من قيمة التراث اليوناني، وبصفة خاصة من قيمة أرسطو، ويرمون العرب بكل نقيصة في مجال العلم، قد يراجعوا أنفسهم ولو قليلاً. وقد كان لكاتب هذه السطور مساهمة

متواضعة في الكشف عن الأصول العربية أو المعربة عن عدد من العناصر والمعادن فمن العناصر: الكالسيوم Calcium والصوديوم Sodium والزرنيخ Arsenic والزركونيوم Zirconium والأنتيمون Antimony والبورون Boron فضلاً عن عدد من المعادن التي بقيت على حالها في لغات العالم المختلفة دالة على أصولها العربية[٥١].

الفلك

شغلت النجوم بأضوائها وحركاتها ومواضعها قدراً كبيراً من ديوان الشعر العربي القديم ولا سيّما الشعر الجاهلي. وقد يُظن أنها -أي النجوم- كانت مصدراً من مصادر الخيال لدى الشاعر العربي القديم، غير أنّ ذاك الشاعر قد ذكرها لكونها جزءاً أساسياً من المعارف العلمية التي تسود البيئة الصحراوية وهذه لا تستغني عن معرفة أحوال النجوم بحكم الضرورة اللازمة والحاجة الملحّة لمثل هذا النوع من المعرفة. ووجه الضرورة والحاجة هنا هو اتخاذ النجوم دليلاً وهادياً وَسْط تلك الصحراء المترامية الأطراف حيث تغيب معالم الهداية فيها، فضلاً عن أنها كانت من ألزم الأمور لقوافل التجارة، إذْ كانت مكّة المكرمة قاعدة للتجارة ما بين الفرس والروم مما هو معروف ومشهور. وليس أدلّ على أنّ علم الفلك القديم كان عربياً في معظمه فضلاً عن أسماء النجوم ذاتها؛ فمن يتصفّح مرجعاً أو موسوعةً في الفلك في أية لغة أجنبية يجد أن الكثير من أسماء تلك النجوم ذات أصل عربي في معناها ومبناها، بدليل أنّ القارئ لكتاب «بسائط علم الفلك» الدكتور يعقوب صروف يجد أنّ خمسين في المائة من أسماء النجوم فيه هي من وضع العرب ومستعملة بلفظها في اللغات الأجنبية[٥٢]. ومن طريف ما يُرْوَى للدلالة على تقدّم علم الفلك لدى العرب القدماء بحكم الضرورة اللازمة والحاجة الملحّة، ما جاء في كتاب «الأنواء في مواسم العرب» لابن قتيبة حيث يقول: «وصحبني رجل من الأعراب في فلاة ليلاً، فأقبلت أسأله عن محال قوم من العرب ومياههم، وجعل يدلّني على كلّ محلّة بنجم وعلى كلّ ضياع بنجّم. فربما أشار إلى النجم وسمّاه وربما قال لي: وَلِ وجهكَ نجم كذا؛ أي اجعلْ مَسيرك بين نجم كذا حتى تأتيهم.

فرأيتُ النجوم تقودهم إلى موضع حاجتهم. ولحاجتهم إلى التقلب فى البلاد والتصرّف إلى المعاش، وعلمهم أنّ لا تقلّب ولا تصرّف فى الفلوات إلا بالنجوم عنوا بمعرفة مناظرها. ولحاجتهم إلى الانتقال عن محاضرهم إلى المياه عنوا بمطالعها ومساقطها»[٥٣]. ومن الجدير بالذكر أن المستشرقة الألمانية زغريد هونكه قد أفردت في ختام كتابها «شمس العرب تسطع على الغرب» جدولاً يضم عشرات من أسماء النجوم بأسمائها وأصولها العربية في كل مرجع من مراجع علم الفلك وفي أي لغة من لغات العالم، دليلاً حياً على أن الفلك عربي الهوية في جزء غير قليل منه.

خاتمة

قد يبدو لأول وهلة أن البحث في أصول الألفاظ، إنما هو ضرب من الترف العقلي الذي برع فيه الأكاديميون والباحثون في اللغات المقارنة، غير أن الحقيقة لها وجهها الآخر غير المنظور، وهذا الوجه هو المجهول في تاريخ العلم، أعني التعتيم على إبداع العلماء العرب غير المسبوق وآرائهم المبتكرة التي انتحلها جمع من علماء ما يسمى بعصر النهضة[٥٤]. ولعل الأمل يحدونا جميعاً في أن تتبنى مؤسسة ثقافية أو علمية مما تزخر بها أقطار الوطن العربي شرقاً وغرباً، جمع الألفاظ العربية أو المعربة التي عرفت طريقها إلى لغات العالم في معجم شامل لألفاظ كل علم وفن كدليل حي لا يقبل التشكيك فيه في دور الحضارة العربية الإسلامية في بناء الحضارة البشرية.

إنها دعوة لعلها تلقى مجيباً.

المصادر

١- لفيف من المؤلفين، موجز تاريخ العلم، ترجمة د.عزت شعلان، دار سعد مصر، القاهرة، ١٩٦٣، ص١٥.

٢- فارنتن، بنيامين، العلم الإغريقي، ترجمة أحمد شكري سالم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٨، ج٢ص٩.

٣- شاخت وبوذورث، تراث الإسلام، ترجمة د. حسين مؤنس وآخرين، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٨، ، ج٢ ص ٣١٤.

٤- تاتون، رينيه، تاريخ العلوم العام، ترجمة على مقلد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٨، ج١ ص٤٤٠.

٥- وات، مونتجمري، فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ترجمة حسين أحمد أمين، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٣، ص ٤٦.

٦- سمايلوفتش، أحمد، فلسفة الاستشراق، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠، ص ٤٣.

٧- فضل الإسلام على الحضارة العربية، مصدر سابق، ص ٨.

٨- عبد النبي، مصطفى يعقوب، الترجمة في العصر العباسي.. الدوافع والأطوار والسلبيات ، مجلة «جذور»، ج١٥ مج ٨، ديسمبر ٢٠٠٣، ص ص ٦٤٣-٦٦٨.

٩- فروخ، عمر، عبقرية العرب في العلم والفلسفة، المكتبة العصرية، بيروت، ط٤، ١٩٨١، ص ٣٥.

١٠- عبد النبي، مصطفى يعقوب، البيروني ومنهجه في التأليف، المسلم المعاصر، العدد ١١٧، سبتمبر ٢٠٠٥، ص ص ١٢٣ - ١٤٢.

١١- رفاعي، أحمد فريد، عصر المأمون، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٧، ص ٣٧٧.

١٢- ديورانت، ول، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط٣، ١٩٦٨، ج١٣ ص١٧٨.

١٣- بروفنسال، ليفي، الحضارة العربية في أسبانيا، ترجمة د. الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٩٤، ص٦٣.

١٤ - المصدر السابق، ص٩٠.

١٥ - في تراثنا العربي الإسلامي، مصدر سابق، ص٢١٦.

١٦- مايرز، يوجين أ.، الفكر العربي والعالم الغربي، ترجمة كاظم سعد الدين، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦، ص١١١.

١٧- «قصة الحضارة»، مصدر سابق، مج ١٧، ص٢١.

١٨- التونجي، محمد، عبقرية العرب في لغتهم الجميلة، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ١٩٨٢، ص٥٧ وما بعدها.

١٩ - المقدسي، أنيس، الأصول العربية في اللغة الإنجليزية، العلوم، العدد ٦، يونيو ١٩٦٣، ص ٨.

٢٠ - قصة الحضارة، مصدر سابق، ج١٥ ص١٨.

٢١ - المصدر السابق، ج١٥ص٤٦.

٢٢ - المصدر السابق، ج١٥ص ٦٤.

٢٣ - هوبر، الفرد - رواد الرياضيات، ترجمة رمضان أمين الشريف، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٥، ص٣٣.

٢٤ - تراث الإسلام، مصدر سابق، ص٣٠٢.

٢٥ - الدفاع، عبد الله علي، تاريخ العلوم عند العرب، وزارة المعارف، المملكة العربية السعودية، الرياض، ١٩٨٣، ص ١٩.

٢٦- ريسلر، جاك، الحضارة العربية، ترجمة غنيم عبدون، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، بدون تاريخ، ص ١٧٤.

٢٧- رواد الرياضيات، مصدر سابق، ص ٩٤.

٢٨- تراث الإسلام، مصدر سابق، ج٢ ص٣٠١.

٢٩- هونكه، ذغريد، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة كمال دسوقي وفاروق بيضون، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٦، ١٩٨١، ص١٦.

٣٠- طوقان، قدري حافظ، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، دار الشروق، بيروت، ط٣، ١٩٦٣، ص ٧٣.

٣١- الفيروزابادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، المطبعة الأميرية - بولاق، القاهرة، ١٩٠٣، ج١ ص٤.

٣٤- عبد التواب، رمضان، مناهج تحقيق التراث ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٦، ص ٤٤.

٣٥- سعد، قاسم علي، الأرقام العربية...تاريخها وأصالتها، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي، ٢٠٠٢، ص١٠٢.

٣٦- رواد الرياضيات، مصدر سابق، ص ٣٣.

٣٧- ميىلي، ألدو، العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، ترجمة د. عبد الحليم النجار، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٢، ص ١٧٤.

٣٨- فضل الإسلام على الحضارة الغربية، مصدر سابق، ص٥٤.

٣٩- لو بون، جوستاف، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٤٨٨.

٤٠- قصة الحضارة، مصدر سابق، ج١٣ ص٣٨٥.

٤١- جولد شتين، توماس، المقدمات التاريخية للعلم الحديث، ترجمة د. أحمد حسان عبد الواحد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٤، ص١٠٩.

٤٢- جمهرة من المستشرقين، تراث الإسلام، إشراف توماس أرنولد، ترجمة جرجيس فتح الله، دار الطليعة، ط٢، بيروت، ١٩٧٧، ص١١.

٤٣- ويلز، هـ. ج. معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة عبد العزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤، ج٣ ص٨٣١.

٤٤ - في تراثنا العربي الإسلامي، مصدر سابق، ص١١٢

٤٥ - الطويل، توفيق، العرب والعلم في عصره الذهبي، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٨، ص٤٤

٤٦ - حماد، محمد رفيق، علم الكيمياء عند العرب وأعلامه، دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع، الكويت، ٢٠٠١، ص٢١.

٤٧ - عبقرية العرب في لغتهم الجميلة، مصدر سابق، ص ٥٨.

٤٨ - قصة الحضارة، مصدر سابق، ج١٣ ص١٨٧.

٤٩ - برنال، ج.، العلم في التاريخ، ترجمة علي علي ناصف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨١، ج١ص٣٠٧.

٥٠- عبد النبي، مصطفى يعقوب، تبرئة العقل العربي من خرافة تحويل المعادن، الجسرة الثقافية، العدد١٠ خريف ٢٠٠١، ، ص ص ١٨١ - ١٩١.

٥١- عبد النبي، مصطفى يعقوب، الأصول العربية لأسماء المعادن في اللغات الأجنبية..أو ما أهمله تاريخ العلم، آفاق الثقافة والتراث، العدد ٦٥، مارس ٢٠٠٥، ص ص ١٣٧ ـ١٥٢.

٥٢- طوقان، قدري حافظ، العلم عند العرب ، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٧٦ ، ص ٦٣.

٥٣- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، الأنواء فى مواسم العرب ، تحقيق مجموعة من المصححين، دائرة المعارف العثمانية، حيدر اباد، ١٩٧٨ ، ص ٣.

٥٤- عبد النبي، مصطفى يعقوب، عصر النهضة الأوروبية أو عصر السطو على العلم العربي، الإمارات الثقافية، العدد ١٦، أغسطس ٢٠٠٨، ص ١٣ وما بعدها.

اقتصاد وتنمية

السمة الريعيّة للاقتصاد العربي والقصور التنموي
الواقع والإشكاليات

أ.د. حميد الجُميلي*

مقدمـة

تشكل السمة الريعية للاقتصاد العربي جوهر أسباب القصور التنموي العربي وتبعات هذا القصور، وارتباطه باختلالات الهيكل القطاعي للناتج المحلي الإجمالي للدول العربية، ومدى مساهمة كل قطاع في ذلك الناتج.

وقد بات من المؤكد أن هناك علاقة وثيقة بين القصور التنموي العربي وخصائص الاقتصاد الريعي الذي باتت تتصف بها غالبية الاقتصادات العربية، وخاصة الدول العربية المصدّرة للنفط والغاز.

وفي دراستنا لهذه العلاقة اعتمدنا على الإحصاءات الرسمية الصادرة عن المؤسسات العربية والتقارير الدولية وخاصة التقرير الاقتصادي العربي الموحد لعام ٢٠١٨، وتقرير آفاق الاقتصاد العربي لعام ٢٠١٧ الصادر عن صندوق النقد العربي وغيرها من التقارير الرسمية.

إنّ استمرار خصائص الاقتصاد الريعي العربي ناتجة عن عدم بلورة رؤية استراتيجية للواقع الاقتصادي العربي ولسُبل السيطرة على مستقبل هذا الاقتصاد.

* خبير ومستشار اقتصادي، وعضو منتدى الفكر العربي/العراق.

وتستوجب دراسة الخصائص الريعية للاقتصاد العربي تحليل اختلالات الهيكل القطاعي للناتج المحلي الإجمالي للدول العربية، وبالأخص الاختلال الناجم عن تدني مساهمة قطاع الصناعة التحويلية العربية والقطاع الزراعي في القيمة المضافة للناتج المحلي الإجمالي للدول العربية.

ومن ناحية أخرى، يرتبط القصور التنموي العربي بعدم قدرة السياسات الاقتصادية العربية على الاستغلال الكفؤ للقدرات الإنتاجية العربية البشرية والمادية والطبيعية والتكنولوجية، وجعلها عناصر محفّزة لنمو الاقتصاد الإنتاجي ولنمو الاقتصاد العربي بصورة عامة.

إنّ استمرار القصور التنموي المرتبط بخصائص الاقتصاد الريعي سيحول دون إمكانية بناء مهام التنمية المستقلة لسنوات عديدة قادمة.

وفي تحليلنا لهذا الموضوع سوف نتبنى منهجاً بحثياً تحليلياً نقدياً يربط عملية الإخفاق التنموي بالاقتصاد الريعي، كما يربط هذا القصور بالعجز العربي عن رسم سياسات اقتصادية فعّالة قادرة على تنويع مصادر الدخل من خلال زيادة القيمة المضافة للقطاع الإنتاجي العربي وخاصة قطاع الصناعة التحويلية الإنتاجية وقطاع الزراعة.

ومما يؤسف له أنّ العديد من الدراسات الاقتصادية التي تناولت الاقتصاد العربي وعالجت مسألة الإنماء والتنمية في الاقتصادات العربية ركزّت على مفاهيم وتحليلات اقتصادية أنتجها الفكر الاقتصادي النظري العربي بشكل عام، وأنتجها الفكر الاقتصادي للعولمة والتحررية الاقتصادية الجديدة بشكل خاص دون أي اعتبار لمتطلبات التنمية العربية، ودون أي اعتبار للاختلالات التي يُعاني منها الهيكل القطاعي للناتج المحلي الإجمالي للدول العربية، تلك الاختلالات التي باتت مزمنة وملازمة لبنية الاقتصادات العربية.

ونتيجة الفكر والمنهج الاقتصادي القائم على أصولية الأسواق، فإنّ معظم الأدبيات الاقتصادية التي تناولت تحليل أوضاع الاقتصادات العربية خلال السنوات

الماضية لم تركز على خصائص الاقتصاد الريعي ذات الآثار السلبية، ولعلّ السبب الرئيس في ذلك أن أدبيات العولمة وأصولية الأسواق ركزت على سياسات التحررية الاقتصادية الجديدة، وسياسات العولمة المالية، والخصخصة، والإنتاج الاقتصادي، كما أن الدراسات الخاصة بتوزيع الدخل في الاقتصادات العربية ظلت حتى الوقت الحاضر في حدود بحثية ضيقة جداً.

وبالرغم من علاقة بنية الاقتصادات العربية بالعنصر الريعي، لم يتم تناول هذا الموضوع في العديد من المؤتمرات الاقتصادية العربية التي عُقدت خلال السنوات الأخيرة إلا في حدود ضيقة جداً.

ومن هنا نلاحظ أن البحوث الاقتصادية الحديثة وبسبب تركيزها على أدبيات اقتصاد العولمة والتحررية الاقتصادية الجديدة قد أهملت تحليل خصائص الاقتصاد الريعي العربي، كما أهملت تحليل اختلالات الهيكل القطاعي للناتج المحلي الإجمالي للدول العربية وأسباب هذا الاختلال. كما أهملت من ناحية أخرى الوسائل والطرق التي تؤدي إلى تنويع مصادر الدخل وإطلاق الطاقات الإنتاجية والإبداعية في الاقتصادات العربية.

وتكمن الإشكالية التي تواجه أداء الاقتصادات العربية في كون هذه الاقتصادات على وشك الدخول في العقد الثالث من القرن الحادي والعشرين وهي تعاني من تشوهات واختلالات عميقة في هيكلها الاقتصادي، فضلاً عن تراجع موقعها في الاقتصاد العالمي.

أما عند الحديث عن الجهود التنموية التي بذلتها الدول العربية طيلة العقود الخمسة الماضية، فيمكن التأكيد على أن هذه الجهود أسفرت عن أداء تنموي محدود الوزن والأثر، لا يشكّل نقلة نوعية في تحسين موقع الاقتصادات العربية عالمياً وعربياً، كما لم يسهم هذا الأداء في إنجاز مهام التكامل الاقتصادي العربي، وفي ضوء استمرار هذا الواقع الاقتصادي العربي باتت التنمية الاقتصادية العربية توصف بالتنمية العصيبة.

ومما يؤكد هذا الواقع الاختلال الكبير في الهيكل القطاعي للناتج المحلي الإجمالي للدول العربية، حيث تبلغ مساهمة قطاعي الصناعات الاستخراجية

والخدمات حوالي (٧٧٪) من القيمة المضافة للناتج المحلي الإجمالي للدول العربية في عام ٢٠١٧.

واليوم تواجه الاقتصادات العربية أخطر تحدياتها وأعمّ اختلالاتها الاقتصادية، وأدنى مستويات تكاملها الاقتصادي، وفي الوقت ذاته تخضع لأكبر إعادة هيكلة اقتصادية، لا طبقاً لخياراتها، بل طبقاً لخيارات وشروط المؤسسات الاقتصادية الدولية ومراكز الرأسمالية العالمية.

وفي ضوء عملية إعادة الهيكلة الاقتصادية، بات صُنّاع القرار الاقتصادي العربي يتفرجون على صُنّاع القرار الاقتصادي الدولي (الحكومة العالمية) وهم يرسمون لهم خرائط مستقبل اقتصاداتهم العربية بعيداً عن خيارات التنمية الوطنية وأولوياتها، وعن مهام بناء الأمن الاقتصادي العربي، وعن مهام بناء التنمية المستقلة المعتمدة على الذات.

المشكلة البحثية

في ضوء طبيعة الموضوع يمكن صياغة المشكلة البحثية من خلال الأسئلة التالية:

١- ما هي أسباب القصور والعجز التنموي العربي؟ وما علاقة هذا القصور والعجز التنموي باختلال الهيكل القطاعي للناتج المحلي الإجمالي للدول العربية من ناحية، وبالاقتصاد الريعي من ناحية أخرى؟

٢- لماذا تبنّت الاقتصادات العربية سياسات اقتصادية ذات خصائص ريعية؟

٣- لماذا أخفقت السياسات الاقتصادية العربية في الاهتمام بدور قطاعي الصناعة التحويلية والزراعة في توليد القيمة المضافة للناتج المحلي الإجمالي للدول العربية؟

٤- كيف يمكن للاقتصادات العربية توفير متطلبات التنمية المستدامة وإزالة الرؤية التنموية الضبابية للانتقال من الاقتصاد الريعي إلى الإنتاجي؟

٥- ما هي الآثار الاقتصادية بعيدة المدى لتبعات استمرار الصفة الريعية للاقتصاد العربي؟

فرضيات البحث

يستند البحث إلى الفرضيات التالية:

١- إنّ انتهاج سياسات اقتصادية معينة خاضعة لسياسات المؤسسات الاقتصادية الدولية مثل صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، ومنظمة التجارة العالمية، لا يمكن أن يسهم في معالجة القصور والعجز التنموي العربي.

٢- إنّ الربط المتزايد بين قواعد السلوك الاقتصادي للمؤسسات الاقتصادية الدولية وقواعد السلوك الاقتصادي للاقتصادات العربية سيؤدي إلى انتقال عناصر عدة من مقومات السيادة الاقتصادية الوطنية إلى سُلطة القرار الاقتصادي الدولي.

٣- لا يمكن معالجة خصائص الاقتصاد الريعي في الاقتصادات العربية وبناء مهام التنمية المستقلة ما لم يتم تصحيح اختلالات الهيكل القطاعي للناتج المحلي الإجمالي للدول العربية.

٤- إنّ استمرار تطبيق السياسات الاقتصادية المستندة إلى أيديولوجية أصولية الأسواق وأيديولوجية العولمة سوف يسهم في تعميق خصائص الاقتصاد الريعي والعجز التنموي في الاقتصادات العربية.

أهمية الدراسة

إن دراسة الخصائص الريعية للاقتصاد العربي وخصائص العجز التنموي العربي تستوجبها ضرورات عديدة، يأتي في مقدمتها الوقوف على الأسباب التي جعلت من التنمية العربية توصف بالتنمية العصيّة، وكذلك الوقوف على حجم التحديات التي تواجه عملية بناء عناصر التنمية المستقلة ومهام بناء الأمن الاقتصادي العربي.

كما تنصرف أهمية هذا البحث إلى التعرّف على أسباب إخفاق السياسات الاقتصادية العربية في إزالة ضبابية الفكر التنموي العربي والنتائج المترتبة على هذا الإخفاق، خاصة تلك النتائج المترتبة على اختلال الهيكل القطاعي للناتج المحلي الإجمالي للدول العربية، والمتمثل بسيطرة القطاع الاستخراجي وقطاع الخدمات على القيمة المضافة للناتج المحلي الإجمالي للدول العربية، في مقابل تدني مساهمة القطاعات الإنتاجية (غير الاستخراجية) في تلك القيمة.

وتزداد أهمية بحث هذا الموضوع من خلال ارتباط السياسات الاقتصادية العربية بسياسات الانفتاح الاقتصادي، خاصة سياسات التحررية الاقتصادية الجديدة، وسياسات وشروط ومناهج المؤسسات الاقتصادية الدولية. كما تتجلى أهمية هذا البحث في تمكين صانع القرار الاقتصادي العربي في الوقوف على واقع وحجم التحديات التي تهدّد مستقبل الاقتصادات العربية في ضوء أصولية الأسواق، وأيديولوجية التحررية الاقتصادية الجديدة، وخطايا الخصخصة، وتحجيم دور الدولة الإنمائي.

ولعلّ الأهمية الكبيرة لدراسة هذا الموضوع تتجلّى في عملية التفكيك التي تخضع لها الاقتصادات العربية بعد تبعيّتها لسياسات الانفتاح الاقتصادي ولأيديولوجية أصولية الأسواق.

وإذا كان القصور التنموي ناتج في أحد جوانبه عن الاقتصاد الريعي، فإنّ ضبابية متطلبات التنمية العربية، وغياب نظرية التكامل الإنتاجي العربي، وعشوائية السياسات الاقتصادية العربية هي الأخرى قد أسهمت بعمق في تشويه بنية الاقتصاد العربي، ورخاوة هياكل الإنتاج العربية، واحتباس المشاريع الإنتاجية التكاملية العربية.

أهـداف البحـث

يهـدف البحث إلى ما يلي:

١- تحليل الخصائص الريعية للاقتصادات العربية التي تشكّل محور حركة هذه الاقتصادات.

٢- تحليل الهيكل القطاعي للناتج المحلي الإجمالي للدول العربية، وتحليل أهمية القطاعات الإنتاجية في هذا الهيكل.

٣- تحليل متطلبات التنمية المستدامة، وإيجاد سبل تجاوز خاصية التنمية العصيّة والقصور والعجز التنموي العربي.

٤- تحليل السياسات الاقتصادية العربية التي أسهمت في تعميق خصائصها الريعية، وفي زيادة درجة القصور والعجز التنموي العربي.

٥- استشراف خيارات السيطرة على مستقبل الاقتصاد والأمن الاقتصادي العربي في ضوء واقع الاقتصادات العربية، وفي ضوء واقع إخضاعها لأكبر عملية إعادة هيكلة اقتصادية لا طبقاً لخياراتها الاقتصادية.

منهجية البحث العلمي

تبنّى هذا البحث منهجاً تحليلياً نقدياً تكاملياً مدعّماً بالإحصاءات الرسمية المعتمدة، ويجمع بين المنهج التحليلي والمنهج الاستشرافي وصولاً إلى استنتاجات وتوصيات محددة.

أولاً: الخصائص الريعية للاقتصادات العربية

يرتبط العجز التنموي العربي ربطاً وثيقاً بالخصائص الريعية للاقتصاد العربي، فكلما تعمّقت هذه الخصائص زاد القصور والعجز التنموي العربي (يُراد بالعجز التنموي العربي عدم قدرة القطاعات الإنتاجية على زيادة مساهمتها في القيمة المُضافة للناتج المحلي الإجمالي للدول العربية، ممّا يعكس الاختلال الكبير في الهيكل القطاعي للناتج المحلي الإجمالي للدول العربية).

إنّ الخصائص الريعية للاقتصاد العربي وما يُرافقها من عجز وقصور تنموي عربي تعكس عدم قدرة السياسات الاقتصادية العربية على تحويل المسار التنموي للاقتصاد العربي من مسار التكاثر المالي إلى مسار التكامل الإنتاجي، وعدم القدرة على التحوّل من الاعتماد على المصدر المالي الرئيسي الريعي إلى تنويع مصادر الدخل القومي لتغذية الأنشطة الاستثمارية والتشغيلية.

ولعلّ أهم الأسباب التي عمّقت من الخصائص الريعية للاقتصاد العربي، تبنّي الدول العربية سياسات اقتصادية انفتاحية تستند إلى أيديولوجية سياسات أصولية الأسواق، فضلاً عن أيديولوجية سياسات صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، والشركات متعدية الجنسية، وبرامج الإصلاح البنيوي لتوافق واشنطن.

لقد أدّى تبنّي هذا النوع من السياسات إلى ظهور زيادة معدلات البطالة في الوطن العربي إلى ما يزيد عن (٢٥٪) في عام (٢٠١٧)، فضلاً عن الضرر الذي لحق بأصحاب الدخول المتدنية والطبقة المتوسطة محدودة الدخل.

أما برامج الخصخصة التي فُرضت بسرعة على الدول العربية، فقد أدت إلى تدبير وظائف دون إيجاد وظائف جديدة، كما أدت إلى نهب أصول الدول، وإلى نشر ثقافة السياسات في تركّز الأموال والثروات في أيادٍ قليلة من رجال الأعمال المرتبطين برجال السُلطة والحكم في بعض الدول العربية، وفي أيدي المتلاعبين بالعقود الحكومية والفاسدين والمفسدين.

إنّ السياسات الاقتصادية التي طبقتها الدول العربية عمّقت العنصر الريعي في الاقتصادات العربية، بحيث أصبح القطاع الاستخراجي وقطاع الخدمات المصدر الرئيس لتوليد القيمة المضافة للناتج المحلي الإجمالي للدول العربية، وأصبحت الواردات من صادرات النفط المصدر الرئيس لتمويل الميزانية العامة.

أدى هذا التوجّه إلى تناقص الأهمية النسبية لقطاع الصناعة التحويلية وقطاع الزراعة في توليد القيمة المضافة للناتج المحلي الإجمالي للدول العربية إلى أقل من ١٨٪ في عام ٢٠١٦، أما مساهمة قطاعي الصناعة الاستخراجية والخدمات فقد تجاوزت مساهمتها في الناتج المحلي الإجمالي للدول العربية ٧٠٪ في عام ٢٠١٦. إنّ تقوية العنصر الريعي للاقتصادات العربية أدى إلى تعميق تشوهات وانحرافات البنية الهيكلية للاقتصادات العربية.

أما الأسباب الرئيسية لتقوية العنصر الريعي فتكمن في عجز القرار الاقتصادي العربي عن تطوير وتبنّي سياسات اقتصادية رشيدة تسهم في بناء الأمن الاقتصادي العربي، وبناء مهام التنمية المستقلة من خلال زيادة القيمة المضافة للقطاعات الإنتاجية العربية.

إن استمرار الخصائص الريعية للاقتصادات العربية جعل من الاقتصادات العربية رهينة التطورات الاقتصادية العالمية، خاصة اعتمادها المتزايد على مصادر ريوع مختلفة لا تتطلب عملاً إنتاجياً. لذلك بقيت القيمة المضافة للقطاعات الإنتاجية متدنية لا تزيد عن ٢٦٪ ((باستثناء قطاع الصناعات الاستخراجية)).

لقد ولّد الفكر الاقتصادي الريعي مفاعيل سلبية متعددة، سواء في مجال البطالة، أو الفقر، أو الفساد، أو في مجال نشر ثقافة تقليص دور الدولة الإنمائي.

كما أن تنامي الفكر الاقتصادي الريعي أفقد العديد من الاقتصادات العربية بعض عناصر سيادتها الاقتصادية وثوابتها الاقتصادية القومية، وذلك بسبب هيمنة امتيازات الشركات النفطية الأجنبية على قطاع الصناعات الاستخراجية، وبسبب سياسات التحررية الاقتصادية الجديدة.

وبعض أبرز العوامل التي أدت إلى تقوية الخصائص الريعية للاقتصاد العربي ما يلي:

- الفعاليات الاقتصادية للقطاع الخاص غالباً ما تكون لها مصلحة في الحفاظ على مقومات الاقتصاد الريعي.
- تزايد الاستثمار في المجالات الريعية دون تحمّل المخاطر الاستثمارية، وإهمال الاستثمار في القطاعات الإنتاجية الأخرى.
- أنظمة إدارة الدولة التي لها مصلحة في الاقتصاد الريعي، بحيث تحصل هذه الأنظمة على مصادر الريوع دون جهد تنموي ودون استثمار إنتاجي.
- تنامي فئة رجال الأعمال المستفيدين من تنامي الفساد في الاقتصاد الريعي عبر سياسات العقود مقابل الرشوة، ومن خلال سياسات الخصخصة التي أدّت إلى نهب أصول الدولة، وتدمير شركات ومصانع ومؤسسات القطاع العام الناجحة في الإنتاج المحلي، واستيعاب أعداد كبيرة من الباحثين عن العمل في مختلف الأنشطة الاقتصادية.
- ظهور ثقافة جديدة معادية لأي نظرة اجتماعية الطابع في السياسات الاقتصادية والمالية التي تطبقها الاقتصادت العربية.
- إبعاد دور الدولة في إدارة الشؤون الاقتصادية طبقاً لخياراتها الاقتصادية الوطنية.

- ربط قواعد السلوك الاقتصادي للاقتصادات العربية بقواعد السلوك الاقتصادي للمؤسسات الاقتصادية الدولية.
- الترويج للفكرة القائلة بأن تبنّي أصولية الأسواق وسياسات التحررية الاقتصادية الجديدة يُعد طريقاً لا مفرّ منه لحصول الاقتصادات العربية على حياة الازدهار الاقتصادي العالية والدخول في الفردوس الاقتصادي، والتمتّع بثمار التنمية.
- التخلي عن مراقبة الأسعار في الأسواق، وتبنّي سياسات رفع الأسعار، وإزالة دعم السلع الأساسية، وزيادة الضرائب.

ثانياً: القصور التنموي والسياسات الاقتصادية العربية

يرتبط العجز والقصور التنموي العربي بخصائص السياسات الاقتصادية المفروضة على الدول العربية، ومن أبرز هذه الخصائص ما يلي:

- سياسات الانفتاح الاقتصادي المطبّقة في معظم الاقتصادات العربية، وما رافقتها من تطبيق برامج وسياسات التحررية الاقتصادية الجديدة، وسياسات أصولية الأسواق الحرة بلا قيود.
- تطبيق برامج وسياسات الإصلاح البنيوي المفروضة من جانب صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ذات الطبيعة الانكماشية، والتي أعطت الفرصة لتنامي ظاهرة الفساد والإفساد، وزيادة تركّز الأموال والثروات في أيادٍ قليلة من رجال الأعمال ورجال السُلطة الحاكمة، وتحميل كلفة الإصلاحات إلى الفئة المتوسطة محدودة الدخل والفقراء والمهمّشين.
- ظهور ثقافة جديدة مُعادية لأي نظرة اجتماعية وإنسانية الطابع في السياسات الاقتصادية والمالية المطبّقة حالياً.
- هيمنة ثقافة أصولية الأسواق الحرّة بلا قيود على الفكر والسياسات الاقتصادية العربية، والتي ولّدت ثقافة معادية لتدخل الدولة في الاقتصاد، كما ولّدت أفكاراً تدعو إلى تحجيم دور الدولة الإنمائي ودورها في تأمين توزيع عادل للدخل، كما ولّدت ثقافة معادية لأي بُعد اجتماعي في تلك السياسات.

- التطبيق السريع لسياسة الخصخصة والتي أدّت إلى تدمير ونهب أصول الدولة، وخصخصة مؤسسات الدولة في المجالات الناجحة والمربحة، مما أدى إلى تدمير الوظائف دون إيجاد وظائف جديدة وزيادة معدلات البطالة.
- تبنّي سياسات استيراد التنمية بدلاً من إنتاج التنمية، فأصبحت التنمية العربية بالإنابة لصالح مراكز الإنتاج العالمية، في حين أن التنمية لا تتم بالإنابة وإنما بالأصالة.
- تخلّي الاقتصادات العربية عن تطبيق سياسات التكامل الاقتصادي العربي ومشاريع العمل الاقتصادي العربي المشترك، خاصة المشاريع العربية المشتركة في المجالات الاستثمارية الإنتاجية.
- ظهور فكر وثقافة اقتصادية معادية لسياسة تدخل الدولة في الشؤون الاقتصادية، مما أدى إلى تحجيم دور الدولة الإنمائي، وترك إدارة الشؤون الاقتصادية للقطاع والاستثمار الأجنبي المباشر.
- قصور السياسات الاقتصادية العربية في توجيه الاستثمارات نحو القطاعات الإنتاجية المولّدة لفرص عمل للقادمين الجدد إلى أسواق العمل، والعاطلين عن العمل.
- الاهتمام اللفظي بقضية التكامل الاقتصادي العربي ومتطلبات التنمية العربية دون أي تنفيذ فعلي.
- قصور السياسات الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية عن تكوين رؤية مشتركة لتوطين العلم والتكنولوجيا وانتشارهما.
- غياب الطابع القومي الإنتاجي من الفكر الاستثماري العربي.
- عدم القدرة على تحييد العمل الاقتصادي العربي المشترك وإبعاده عن الخلافات السياسية العربية الطارئة.
- فشل نظرية التكامل الاقتصادي العربي التي ركزت على مدخل التبادل التجاري بمعزل عن المدخل الإنتاجي.
- تبنّي سياسات اقتصادية ومالية أهملت عملية تنويع مصادر الدخل من جانب، وأدّت إلى تقوية العنصر الريعي في الاقتصادات العربية من جانب آخر.

- ضبابية الفكر التنموي والاستثماري العربي، مما أدّى إلى عدم قدرة الاقتصادات العربية على توفير متطلبات التنمية العربية، وعدم القدرة على إيجاد بيئة استثمارية.
- إهمال السياسات الاقتصادية العربية على مدى العقود الخمس الماضية لعملية تصحيح اختلالات الهيكل القطاعي للناتج المحلي الإجمالي للدول العربية، تلك الاختلالات المختلفة أدّت إلى تدنّي مساهمة قطاعي الصناعة التحويلية والزراعة في الناتج العربي وهيمنة قطاعي الخدمات والصناعات الاستخراجية على القيمة المضافة للناتج العربي.
- هيمنة ثقافة التحررية الاقتصادية الجديدة على الفكر والسياسات الاقتصادية العربية وسياسات تقليص دور الدولة الإنمائي.
- ظهور سياسات اقتصادية تعمل على تعطيل مسيرة التكامل الاقتصادي بين الدول العربية، وعجز هذه السياسات عن استغلال القدرات الإنتاجية البشرية والمادية والطبيعية لأغراض التكامل الاقتصادي.

ثالثاً: مؤشرات الخصائص الريعية للاقتصادات العربية

أ- اختلال الهيكل القطاعي للناتج المحلي الإجمالي للدول العربية

ما يزال قطاع الصناعات الاستخراجية الأكثر تأثيراً على أداء الاقتصاد العربي خلال نصف القرن المنصرم، حيث شكّلت سلعتا النفط والغاز المكون الأكبر من مكونات الناتج العربي المحلي الإجمالي والمحدد الرئيسي لعدد من مؤشرات الأداء الاقتصادي، كمؤشرات الدخل والاستثمار والإنفاق والتضخم والتشغيل والهجرة وموازين التجارة والمدفوعات، في ضوء متغيرات السياسات الاقتصادية.

وكما سبقت الإشارة، فإن عام ٢٠١٦ كان من السنوات التي تأثرت سلباً بانخفاض أسعار النفط في الأسواق العالمية، حيث انخفضت أسعاره بنسبة حوالي ١٧,٨٪ بعد انخفاض كبير في عام ٢٠١٥ بلغ حوالي ٤٨,٦٪، وهو ما أثّر كثيراً على الأداء الاقتصادي، وعلى هيكل المساهمة القطاعية للناتج المحلي الإجمالي للدول العربية، مما دفع بالكثير من الدول العربية إلى الأخذ ببرامج إصلاحات اقتصادية

هدفها الأساسي معالجة آثار تراجع أسعار النفط على الميزانيات العامة وأسعار الصرف وبرامج التنمية.

شكّلت مساهمة قطاعات الإنتاج السلعي حوالي ٤٥,٤٪ من الناتج المحلي الإجمالي للدول العربية في عام ٢٠١٦، توزّعت بين مساهمة الصناعة الاستخراجية بنحو ١٨,٨٪، والصناعات التحويلية بحوالي ١١,١٪، والزراعة بنحو ٦,١٪، وبقية القطاعات الإنتاجية ٩,٥٪.

وشكّلت مساهمة قطاعات الخدمات الإنتاجية ما نسبته حوالي ٢٥,٤٪ من الناتج المحلي الإجمالي للدول العربية، ونسبة مساهمة الخدمات الاجتماعية بلغت حوالي ٢٨,١٪، ومنها ١٥,٥٪ مساهمة الخدمات الحكومية، والبقية صافي الضرائب غير المباشرة.

شهدت مساهمة القطاعات الاقتصادية في الناتج المحلي الإجمالي للدول العربية كمجموعة بعض التغيرات في عام ٢٠١٦ عن مستوياتها في العام السابق، حيث تراجعت مساهمات قطاع الإنتاج السلعي بنسبة بلغت ٨,٤٪، نتيجة لاستمرار الانخفاض في أسعار النفط، الذي قاد إلى تراجع مساهمة الصناعات الاستخراجية من ٢١,٩٪ في عام ٢٠١٥ إلى ١٨,٨٪ في عام ٢٠١٦، وانكماش ناتج الصناعات الاستخراجية بمعدل بلغ حوالي ١٧,٤٪. وفي المقابل ارتفعت بصورة طفيفة مساهمة الصناعات التحويلية في الناتج خلال عام ٢٠١٦، لتبلغ حوالي ١١,١٪.

وساهمت الزراعة بنسبة ٦,١٪ في الناتج المحلي الإجمالي للعام ٢٠١٦ مقارنةً بـ ٥,٩٪ في عام ٢٠١٥، رغم تراجع الناتج الزراعي بمعدل ١,٤٪.

ساهمت بقية قطاعات الإنتاج السلعي بنسبة حوالي ٩,٥٪ من الناتج المحلي الإجمالي لعام ٢٠١٦ مقارنة بحوالي ٨,٩٪ في عام ٢٠١٥، وحققت معدل نمو بلغ حوالي ٢,٥٪.

ارتفعت مساهمة قطاعات الخدمات في الناتج المحلي الإجمالي في عام ٢٠١٦ إلى حوالي ٥٣,٥٪ مقارنة بنحو ٥١,٧٪ في عام ٢٠١٥.

جـدول رقم (١): الهيكل القطاعي للناتج المحلي الإجمالـي للدول العربيـة ٢٠٠٥-٢٠١٦ (نسبة مئوية)

	هيكل الناتج المحلي الإجمالي			
	٢٠٠٥	٢٠١٠	٢٠١٥	٢٠١٦
قطاعات الإنتاج السلعي منها:	٦٠,٠	٥٧,٨	٤٧,٨	٤٥,٤
الزراعة	٦,٠	٦,٢	٥,٩	٦,١
الصناعات الاستخراجية	٣٧,٦	٣٤,٣	٢١,٩	١٨,٨
الصناعات التحويلية	٩,٦	٩,٧	١١,٠	١١,١
باقي قطاعات الإنتاج	٦,٧	٧,٧	٨,٩	٩,٥
إجمالي قطاعات الخدمات منها:	٣٩,١	٤١,٥	٥١,٧	٥٣,٥
الخدمات الحكومية	١٠,٣	١١,٣	١٤,٩	١٥,٥
صافي الضرائب غير المباشرة	١,١	٠,٨	٠,٩	١,٤
الناتج المحلي الإجمالي	١٠٠,٠	١٠٠,٠	١٠٠,٠	١٠٠,٠

المصدر: قاعدة بيانات التقرير الاقتصادي العربي الموحد

ومن خلال تحليل الجدول رقم (١) يتضح ما يلي بخصوص الخصائص الريعية للاقتصادات العربية:

- هيمنة قطاعي الصناعة الاستخراجية والخدمات على القيمة المُضافة للناتج المحلي الإجمـالي للدول العربية، حيث بلغت مساهمـة هذين القطاعين في النـاتج العـربي ما نسبته ٧٢,٣٪ في عام ٢٠١٦، (مساهمة الصناعة الاستخراجية ١٨,٨٪، ومساهمة قطاع الخدمات ٥٣,٥٪)، مما يُؤكد الصفة الريعية لبنية الاقتصاد العربي كما هو موضح في الجدول رقم (١). وبلغت مساهمة هذين القطاعين ٧٦,٧٪، ٧٥,٨٪، ٧٣,٦٪، في السنوات (٢٠٠٥،٢٠١٠،٢٠١٥) على التوالي كما هو مبيّن في الجدول رقم (٢).

جدول رقم (٢) : مساهمة قطاعي الصناعات الاستخراجية والخدمات
في الناتج المحلي الإجمالي للدول العربية ٢٠٠٥-٢٠١٦ (نسبة مئوية)

السنة	مساهمة قطاع الصناعة الاستخراجية	مساهمة قطاع الخدمات ككل	مساهمة قطاعي الصناعات الاستخراجية والخدمات
٢٠٠٥	٣٧,٦	٣٩,١	٧٦,٧
٢٠١٠	٣٤,٣	٤١,٥	٧٥,٨
٢٠١٥	٢١,٩	٥١,٧	٧٣,٦
٢٠١٦	١٨,٨	٥٣,٥	٧٢,٣

المصدر: قاعدة بيانات التقرير الاقتصادي العربي الموحّد لعام ٢٠١٧، ص٢٩

- بلغت مساهمة قطاعي الصناعة التحويلية والزراعة في الناتج المحلي الإجمالي للدول العربية ١٧,٢٪ في عام ٢٠١٦، وما نسبته (١٥,٦٪ و ١٥,٩٪ و ١٦,٩٪) في السنوات (٢٠٠٥ ، ٢٠١٠، ٢٠١٥) على التوالي، كما هو مبيّن في الجدول رقم (٣):

جدول رقم (٣): مساهمة قطاعي الصناعة التحويلية والزراعة
في الناتج المحلي الإجمالي للدول العربية ٢٠٠٥-٢٠١٦ (نسبة مئوية)

السنة	مساهمة قطاع الصناعة التحويلية	مساهمة قطاع الزراعة	مساهمة قطاع الصناعة التحويلية والزراعة
٢٠٠٥	٩,٦	٦,٠	١٥,٦
٢٠١٠	٩,٧	٦,٢	١٥,٩
٢٠١٥	١١,٠	٥,٩	١٦,٩
٢٠١٦	١١,١	٦,١	١٧,٢

المصدر: قاعدة بيانات التقرير الاقتصادي العربي الموحّد لعام ٢٠١٧، ص٢٩

ويؤكد الجدول رقم (٣) على جملة حقائق بخصوص الصفة الريعية للاقتصادات العربية، منها:

١- مساهمة قطاع الصناعة التحويلية في الناتج المحلي الإجمالي للدول العربية بحدود (١١٪) في عام ٢٠١٦، ومساهمة هذا القطاع ظلت تتراوح بين (٩-١١٪) طيلة الخمسين سنة الماضية، مما يُؤكد جمود هذا القطاع.

٢- سيطرة فرع الصناعة الاستهلاكية والوسيطة على القيمة المُضافة لهذا القطاع في مقابل تدنّي مساهمة قطاع الصناعة التحويلية الإنتاجية.

٣- إنّ هذه المؤشرات تؤكّد دون أدنى شك أنّ الصناعة التحويلية في الاقتصادات

العربية لم تصل بعد إلى درجة عالية من التقنية والجودة التي تمكّنها من المنافسة في الأسواق العالمية، كما فشل هذا القطاع في إيجاد فرص عمل جديدة للعاطلين عن العمل وللقادمين الجدد إلى أسواق العمل.

٤- بلغت مساهمة القطاع الزراعي في القيمة المُضافة للناتج المحلي الإجمالي للدول العربية (٦,١٪) في عام ٢٠١٦، وكان من نتيجة تدنّي هذه المساهمة أن بلغت قيمة الفجوة الغذائية في عام ٢٠١٦ حوالي (٣٤) مليار دولار. كما أنّ تدنّي مساهمة قطاع الزراعة في التاريخ العربي يُبرز التحديات التي تواجه قضية الأمن الغذائي العربي.

٥- تدنّي مساهمة القطاعات الإنتاجية باستثناء قطاع الصناعة الاستخراجية في توليد القيمة المُضافة للناتج المحلي الإجمالي، مما يؤكد التدهور الكبير الذي تُعاني منه القطاعات الإنتاجية، خاصة بعد تبنّي الاقتصادات العربية سياسات الخصخصة التي دمرت ما تبقى من المنصّات الصناعية الإنتاجية رغم قلتها، كما هو موضح في الجدول رقم (٤).

جدول رقم (٤): مساهمة القطاعات الإنتاجية في الناتج المحلي الإجمالي للدول العربية باستثناء قطاع الصناعات الاستخراجية (نسبة مئوية)

السنة	مساهمة القطاعات الإنتاجية باستثناء قطاع الصناعة الاستخراجية	مساهمة قطاع الصناعات الاستخراجية
٢٠٠٥	٢٢,٥	٣٧,٦
٢٠١٠	٢٣,٦	٣٤,٣
٢٠١٥	٢٨,٨	٢١,٩
٢٠١٦	٢٦,٧	٢١,٩ ١٨,٨

المصدر: استخراج الباحث بالاعتماد على إحصاءات التقرير الاقتصادي العربي الموحّد

إن مؤشر كل من نسبة الإيرادات البترولية والإيرادات الضريبية من الإيرادات العامة يؤكد السعة الريعية للاقتصاد العربي؛ إذ إن الإيرادات البترولية تشكّل نسبة (٥١,٦٪) من الإيرادات العامة والمنح، في حين تشكّل الإيرادات الضريبية ما نسبته (٢٤,٧٪) من الإيرادات العامة والمنح في عام ٢٠١٥، وعليه تتجلّى الصفة الريعية للاقتصاد العربي في المساهمة العالية للإيرادات البترولية كمصدر رئيس للإيرادات العامة، كما هو موضح في الجدول رقم (٥).

جدول رقم (٥): السمة الريعية للاقتصاد العراقي

نسبة الإيرادات البترولية والإيرادات الضريبية من الإيرادات العامة لعام ٢٠١٥

نوع الإيرادات	النسبة من الإيرادات العامة والمنح	
	٢٠١٤	٢٠١٥
الإيرادات البترولية	٧٧٪	٥١,٦٪
الإيرادات الضريبية	٢٢٪	٢٤,٧٪

المصدر: التقرير الاقتصادي العربي الموحّد لعام ٢٠١٦، ص٨

ويوضّح هذا المؤشّر مايلي:

- تشكّل الإيرادات النفطية حوالي (٧٧٪) من الإيرادات العامة، بينما لا تشكّل الإيرادات الضريبية سوى أقل من (٢٢٪).
- بلغت مساهمة قطاع الصناعات الاستخراجية والخدمية في الناتج المحلي الإجمالي (٧٧٪) في عام ٢٠١٤، و(٧٤٪) في عام ٢٠١٥.
- تراجع مساهمة الصناعة التحويلية والزراعة في القيمة المُضافة للناتج المحلي الإجمالي للدول العربية.
- إنَّ قطاع الصناعات الاستخراجية (النفط والغاز والمعادن) يسهم بـ (٣٣,٥٪) من قيمة الناتج المحلي الإجمالي، أي ما يعادل (٩٤٣) مليار دولار في عام ٢٠١٥.
- شكّلت الصناعات الاستخراجية (النفط والغاز والمعادن) ما نسبته (٦٢٪) من إنتاج القطاعات الإنتاجية في عام ٢٠١١، و (٦٠٪) في عام ٢٠١٤.
- اعتماد الإنفاق الحكومي بأنواعه على عائدات النفط والغاز والمعادن.
- الناتج المحلي الإجمالي العربي، البالغ (٢٧٢٨) مليار دولار، يأتي منه (٧٠٪) من الدول العربية النفطية الثمانية المنتجة للنفط ذات الاقتصاد الريعي في عام ٢٠١٤.

ب- مؤشر درجة انكشاف الاقتصاد العربي

أدت السمة الريعية للاقتصاد العربي إلى زيادة درجة انكشاف الاقتصاد العربي، وتُقاس درجة انكشاف أي اقتصاد بنسبة التجارة الخارجية لذلك الاقتصاد إلى ناتجه المحلي الإجمالي مضروباً في مئة.

وبالنسبة لدرجة انكشاف الاقتصاد العربي يُلاحظ أنها زادت من ٥٣٪ عام ١٩٩٥ إلى ٨١٪ عام ٢٠٠٦، وإلى ٧٧,٨٪ في عام ٢٠١٤، وإلى ٦٩٪ في عام ٢٠١٥، كما هو موضح في الجدول رقم (٦).

جدول رقم (٦): مؤشر درجة الانكشاف في الاقتصاد العربي

	السنوات					
	١٩٩٥	٢٠٠٠	٢٠٠٦	٢٠٠٧	٢٠١٤	٢٠١٥
إجمالي التجارة الخارجية العربية	٢٧٨	٤١٣	١,٠٣٣	١,٢٩٣	٢١٢١	١٦٦٤
الناتج المحلي الإجمالي للدول العربية	٥٣١	٧٠٩	١,٢٧٦	١,٤٧٢	٢٧٢٨	٢٤٢٩
مؤشر درجة الانكشاف	٪٥٣	٪٥٨	٪٨١	٪٨٨	٪٧٨	٪٦٩

استخراج الباحث بالاعتماد على إحصاءات صندوق النقد العربي لعام ٢٠٠٨، ص١٤٢ ولعام ٢٠١٦

وتؤكّد درجة الانكشاف العالية للاقتصاد العربي على الحقائق التالية:

- أن هذه النسب العالية تؤكد درجة الانفتاح العالية للاقتصادات العربية على الاقتصاد العالمي.
- تعدّ درجة الانكشاف في الاقتصاد العربي من أعلى الدرجات في العالم، ولذلك يُعتبر الاقتصاد العربي من أكثر دول العالم انكشافاً.
- زادت درجة الانكشاف في الاقتصاد العربي

من	٪٥٣	عام	١٩٩٥
إلى	٪٥٧	عام	٢٠٠٠
إلى	٪٧٥	عام	٢٠٠٤
إلى	٪٨٨	عام	٢٠٠٧
إلى	٪٧٨	عام	٢٠١٤

- وهذه الزيادة في درجة الانكشاف تكشف الأثر الكبير لتقلبات التجارة الخارجية على الناتج المحلي الإجمالي، وتكشف مقدار تأثر الاقتصاد العربي بالصدمات الخارجية والتطورات الاقتصادية العالمية.

ج- مؤشر درجة مساهمة الدولة في إدارة الاقتصاد

المؤشر الرابع لريعية الاقتصاد العربي هو دور الدولة الإنفاقي كمحرّك للاقتصاد الوطني في مختلف الدول العربية، حيث إن إنفاق الدولة يساهم بالجزء الأكبر من العملية الاقتصادية، ومصدر هذا الإنفاق في العديد من الدول يأتي

من المصادر الريعية، خاصة الإيرادات النفطية التي تشكّل ما يزيد عن ٧٥٪ من الإيرادات العامة في الدول العربية، في حين أن الإيرادات الضريبية لا تزيد عن ٢٢٪.

ومن المؤكد أن تدنّي مستويات الإيرادات الضريبية يبيّن ضعف النشاط الإنتاجي الذي تُبنى عليه ضرائب الدخل.

د- مؤشر تدهور دور القطاع الزراعي في توليد القيمة المُضافة للناتج المحلي الإجمالي للدول العربية

نتيجة للخصائص الريعية للاقتصاد العربي تم إهمال القطاع الزراعي وعدم توجيه الاستثمارات اللازمة لتطويره، مما أدى إلى :

- تزايد قيمة الفجوة الغذائية.
- تدنّي نسب الاكتفاء الذاتي من السلع الأساسية.
- تزايد العجز في الميزان التجاري الزراعي.

وذلك كما هو موضح في الجداول التالية:

جدول رقم (٧): تطوّر الفجوة الغذائية العربية للمجموعات السلعية الرئيسية ٢٠٠٥- ٢٠٢٠

السنة	قيمة الفجوة الغذائية
٢٠٠٥	**١٨,١ مليار دولار**
٢٠١٠	**٢٨,٤ مليار دولار**
٢٠١٢	**٣٦,٧ مليار دولار**
٢٠١٣	**٣٤,٤ مليار دولار**
٢٠١٤	**٣٤,٢ مليار دولار**
٢٠٢٠	**٥٨ مليار دولار (توقع)**

المصدر: التقرير الاقتصادي العربي الموحّد لعام ٢٠١٦، ص٤٤٦

جدول رقم (٨): تطور قيمة الفجوة الغذائية العربية

٢٠٠٠-٢٠١٤

السنة	قيمة الفجوة الغذائية من السلع الغذائية الرئيسية
٢٠٠٠	١٣,٩
٢٠٠٥	١٨,١
٢٠٠٦	١٨,١
٢٠٠٧	٢٥
٢٠٠٨	٤٠,٦
٢٠٠٩	٣٥,٥
٢٠١٣	٣٤,٤
٢٠١٤	٣٤,٢

المصدر: المنظمة العربية للتنمية الزراعية، قطاع الزراعة والثروة الحيوانية والسمكية في الوطن العربي، ٢٠١١ كذلك التقرير الاقتصادي العربي الموحّد، الإحصاءات الزراعية لعامي ٢٠١١ و ٢٠١٦

جدول رقم (٩): الصادرات والواردات من السلع الغذائية الرئيسية

السنة	قيمة الصادرات من السلع الغذائية الرئيسية	قيمة الواردات من السلع الغذائية الرئيسية	العجز الغذائي
٢٠٠٠	٣,٧	١٨,٥	١٤,٨
٢٠٠٥	٧,٤	٢٧,٧	٢٠,٣
٢٠٠٦	٩,٤	٢٨,٥	١٨,٧
٢٠٠٧	١٠,٣	٣٦,١	٢٥,٨
٢٠٠٨	١٢,٤	٥٣,٥	٤١,١
٢٠٠٩	١٢,٨	٤٨,٥	٣٥,٧

المصدر: التقرير الاقتصادي العربي الموحّد لعام ٢٠١٠، ص٣٣٧، ولعام ٢٠١١، ص٦٢

وقد ساهمت مجموعة الحبوب بحوالي (٥٨,٣٪) من قيمة الفجوة الكليّة للسلع الغذائية الرئيسية، وشكّل القمح وحده (٢٧٪)، والسكر حوالي (٨,٦٪)، والزيوت حوالي (١٢,٨٪)، والألبان (١٠,٢٪)، واللحوم (١٣,٧٪).

جدول (١٠): نسبة مساهمة السلع الغذائية الرئيسية في قيمة الفجوة الغذائية لعام ٢٠٠٩

السلعة	المساهمة
الحبوب والدقيق	٥٨,٣٪
القمح	٢٧٪
اللحوم	١٣,٧٪
الزيوت النباتية	١٢,٨٪
السكر	٨,٦٪
الألبان ومشتقاتها	١٠,٢٪

المصدر: التقرير الاقتصادي العربي الموحّد لعام ٢٠١١، ص٦١

وجاء تدنّي نسب الاكتفاء الذاتي من السلع الغذائية الرئيسية نظراً للتفاوت الكبير بين معدل نمو الناتج الزراعي البالغ (٢٪) في عام ٢٠١١، وبين معدل نمو الطلب على المنتجات الزراعية البالغ (٥,٥٪). فقد انخفضت مستويات ونسب الاكتفاء الذاتي من أهم السلع الغذائية، مما تسبب بدوره إلى زيادة الاستيرادات من أهم السلع الغذائية الرئيسية، وزيادة قيمة الفجوة الغذائية، وتفاقم العجز في الميزان التجاري الزراعي.

جدول رقم (١١): نسبة الاكتفاء الذاتي من أهم السلع الغذائية كالآتي لعام ٢٠١٠

	٢٠١٠	٢٠١٢	٢٠١٣	٢٠١٤
مجموعة الحبوب والدقيق	٤٤,٦٪	٤٦,٠٪	٥١,٢٪	٥٢,٦٪
مجموعة البقوليات	٥٥,٥٪	٥٩,٦٪	٦٥,٥٪	٦٥,١٪
الزيوت النباتية	٣٦,٨٪	٣٣,٨٪	٣٥,٤٪	٣٥,١٪
السكر	٣٣,٤٪	٣٧,٤٪	٣٢,٧٪	٣٥,٧٪
الألبان	٧٧,٧٪	٧٩,٨٪	٨٣,٠٪	٧٥,٦٪
اللحوم	٧٥,٥٪	٧٢,٣٪	٨٢,٢٪	٧٧,٥٪

المصدر: التقرير الاقتصادي العربي الموحّد لعام ٢٠١٦

وبذلك تستورد الدول العربية نصف احتياجاتها من الحبوب والدقيق، و(٤٣٪) من البقوليات، و(٦٩٪) من الزيوت، و(٧٤٪) من السكر، و(٣٠٪) من البيض، وقد شكّلت هذه السلع (٧٦٪) من قيمة السلع الغذائية الرئيسية في عام ٢٠١٠.

ويُشار هنا أن تدنّي نسب الاكتفاء الذاتي يُظهر مدى خطورة الانكشاف الغذائي العربي، متمثلاً بحجم الواردات العربية من السلع الغذائية الرئيسية، وهو ما يؤشر تبعيّة غذائية متنامية، خاصة بعد أن أصبحت الدول العربية تستورد ثُمن الواردات العالمية. وتشير إحصاءات الميزان التجاري الزراعي العربي إلى أن الدول العربية استوردت ثُمن الواردات العالمية من السلع الغذائية، واستوردت خُمس واردات العالم من الحبوب.

جدول رقم (١٢): العجز في الميزان التجاري الزراعي العربي لسنة (٢٠٠٠-٢٠١٤)/ مليار دولار

السنة	الصادرات الزراعية	الواردات الزراعية	العجز في الميزان التجاري
٢٠٠٠	٦,٩	٢٩,٥	٢٢,٦
٢٠٠١	٦,٧	٢٦,٣	١٩,٥
٢٠٠٢	٧,٥	٢٨,٧	٢١,٢
٢٠٠٣	٨	٢٩,٩	٢١,٩
٢٠٠٤	١٠,٣	٣٤,٢	٢٣,٩
٢٠٠٥	١١,٠	٣٨,٣	٢٧,٣
٢٠٠٦	١١,٦	٤٠,١	٢٨,٥
٢٠٠٧	١٣,٨	٥١,٤	٣٧,٦
٢٠٠٨	١٦,٤	٦٠,٢	٣٤,٦
٢٠٠٩	١٩,١	٦٥	٤٦
٢٠١٠	١٩,٦	٦٧,٣	٤٧,٧
٢٠١٢	٢٠,٦	٩٣,٠	٧٢,٣
٢٠١٣	٢٤,٦	٩٣,٢	٦٨,٥
٢٠١٤	٢٥	٩١	٦٦

المصدر: التقرير الاقتصادي العربي الموحّد لعام ٢٠١١، ص٥٩، ولعام ٢٠١٦

رابعاً: تداعيات الخصائص الريعية للاقتصاد العربي

في ضوء المؤشرات الاقتصادية العربية السابقة تُهيمن ظاهرة الاقتصاد الريعي على نواحي الحياة الاقتصادية في الدول العربية، وبالرغم من هذه الهيمنة، خلَت الأدبيات الاقتصادية العربية من تحليل معمّق للنتائج المترتبة على هذه الهيمنة.

وفيما يلي أبرز تلك النتائج:

- الاعتماد شبه الكلّي على المداخيل والإيرادات الريعية لتغذية خزينة الدولة المركزية، وتوزيع هذه المداخيل على القطاعات الاقتصادية، وجَعَلَ هذا الاعتماد مساهمة الضريبة والإيرادات الأخرى في ميزانية الدولة محدودة جداً.
- عدم اهتمام السياسات الاقتصادية بتطوير مصادر الدخل الأخرى، خاصة المداخيل المتأتّية من الضريبة.
- عدم الاهتمام بزيادة مساهمة القطاعات الإنتاجية في الناتج المحلي الإجمالي للدول العربية.
- تقليص مساهمة القطاع الخاص في عملية التنمية الاقتصادية لارتباط مصالحه بالحفاظ على مقومات وخصائص الاقتصاد الريعي، وتدنّي نسبة الضريبة التي يساهم بها.
- عدم اهتمام السياسات الاقتصادية العربية بالأنظمة الضريبية وبكفاءة الأجهزة الإدارية، وعدم توجيه هذه الأنظمة والأجهزة نحو الأنشطة الإنتاجية، مما أدّى إلى التهرب الضريبي وانتشار الفساد في العديد من الدوائر الضريبية، وتُعدّ مثلُ هذه الظواهر نوعاً من قرصنة موارد الدولة.
- إنَّ الخصائص السلبية للاقتصادات العربية الناتجة عن تعميق خصائص الاقتصاد الريعي أصبحت بنيوية الطابع، الأمر الذي جعل عملية تصحيح اختلالات هيكل قطاع الناتج المحلي الإجمالي للدول العربية مهمّة بالغة الصعوبة.
- أدّت هيمنة الاقتصاد الريعي إلى عدم اهتمام الاقتصادات العربية بوضع الآليات الكفيلة بتوطين العلم والتكنولوجيا، وعدم تخصيص موارد مالية كافية للبحوث الصناعية والزراعية والمعلوماتية والتكنولوجية والهندسية.
- عمّق الجمود البحثي الذي تفرضه هيمنة الاقتصاد الريعي الفجوة التكنولوجية بين الاقتصادات العربية وبين العديد من مناطق العالم.
- تناقص الاستثمارات في القطاعات الإنتاجية في مقابل توجّه هذه الاستثمارات في المجالات الريعية، والتي تتسم بغياب الجهد الإنمائي مع ضمان المردود العالمي السريع.

- أدّت هيمنة خصائص الاقتصاد الريعي على الاقتصادات العربية إلى تباطؤ عملية الإصلاح الاقتصادي، وإلى إبقاء الاقتصادات العربية خارج دائرة التقدم التقني والتكنولوجي.
- تنامي ثقافة التقبّل في الحياة الاقتصادية وفي المجالات كافة.
- إبقاء الفكر الاقتصادي العربي رهينة التطورات الاقتصادية العالمية، وجعل هذا الفكر خاضعاً لمنهج تغريب التنمية لصالح الشركات متعدية الجنسية.
- إنّ عملية التنمية التي تعتمد على الاقتصاد الريعي لا يمكن أن تكون تنمية حقيقية، فالريوع الناتجة عن القطاع النفطي لا تذهب إلى القطاعات الإنتاجية، بل تذهب إلى مجالات تبذيرية ومجالات غير إنتاجية تعيد إنتاج التخلف بكل أنواعه.
- تزايد درجة انكشاف الاقتصادات العربية.
- إنّ استمرار تزايد مؤشرات العجز والقصور التنموي جعل الاقتصادات العربية اقتصادات طرفية مندمجة في الاقتصاد العالمي، ولكن من موقع أداء واجبات اقتصادية محددة طبقاً لمصالح المراكز الرأسمالية العالمية. وفي ذات الوقت يزيد من تداعيات الاقتصاد الريعي تدهور دور القطاع الزراعي، والتهديدات التي تواجه الأمن الغذائي العربي، وزيادة قيمة الفجوة الغذائية إلى حوالي ٣٤ مليار دولار من عام ٢٠١٦، إضافة إلى تدنّي نسب الاكتفاء الذاتي من السلع الغذائية الرئيسية.

خامساً - الاستنتاجات

١. بالرغم من جهود الدول العربية في التنمية وسعيها لتوفير متطلباتها، فإن معدل أداء الاقتصادات العربية يصنّف بالقصور والعجز التنموي. إنّ التنمية العربية التي تحققت طيلة العقود الخمس الماضية ظلت محدودة الوزن والأثر، ولم تجسّد الارتباط الاقتصادي بين الاقتصادات العربية، حيث ظلت متنافرة اقتصادياً فيما بينها ومتكاملة مع العالم الخارجي، ومما تحقّق من منجزات تنموية لم يشكّل إنجازاً تكاملياً كسياج للأمن الاقتصادي العربي، ولعل الأهم أن المنجزات

التنموية المتحققة لم تُسهم في تخليص الاقتصاد العربي من السمة الريعية، بل أسهمت في تقوية العنصر الريعي في عملية توليد الدخل.

٢. لم تتمكّن كل المنجزات من تصحيح اختلالات الهيكل القطاعي للناتج المحلي الإجمالي للدول العربية، حيث بقيت مساهمة قطاعي الصناعة التحويلية والزراعة في القيمة المُضافة للناتج العربي متدنية في مقابل هيمنة قطاعي الصناعة الاستخراجية والخدمات.

٣. لقد أصبحت الاقتصادات العربية بفعل اعتمادها على مصادر الاقتصاد الريعي اقتصادات رهينة للتطورات الاقتصادية العالمية، خاصة في مجال الاعتماد المُفرط على مصادر ريع متنوعة وفي مقدمتها الريع النفطي، الذي ولّد نمطاً جديداً يقوم على نهب الثروات، وإيجاد طبقة من السياسيين ومن رجال الأعمال والمستثمرين، الذين تركّزت مداخيل الريع النفطي في أياديهم. وأدى هذا النمط إلى تفشّي ظاهرة الفساد والإفساد في الاقتصادات العربية، بل إن هذا النمط المصاحب لسياسة الاقتصاد الريعي أدّى إلى مركزية الثروة، وتقوية العنصر الريعي في الحياة الاقتصادية العربية، وحرمان الفئة المتوسطة محدودة الدخل والفقراء من الثراء.

٤. إنَّ تبنّي أصولية الأسواق لم يمكّن الاقتصادات العربية من تنوّع مصادر الدخل، ولم يمكّنها من الحصول على مياه الازدهار العالمية، ولا من دخول الفردوس الاقتصادي، بل إن تبنّي سياسات أصولية الأسواق عمّقت من درجة الانكشاف الاقتصادي ومن خصائص الاقتصاد الريعي.

٥. الاقتصادات العربية لن تتمكن من بناء أمنها ومستقبلها الاقتصادي، كما أنها لا تتمكن من التخلص من المستويات المتدنية لتنميتها، ومن المستويات العالمية لمعدلات الفقر والبطالة وسوء توزيع الدخل في ظل السياسات الاقتصادية العربية الراهنة.

٦. ترويج البعض لمشاريع وسياسات التحررية الاقتصادية الجديدة على أمل تحقيق مكاسب مستقبلية.

٧. إن الاقتصادات العربية بحاجة إلى هندسة اقتصادية يتم من خلالها صياغة سياسات اقتصادية جديدة طبقاً للمصالح الاقتصادية العربية، وصياغة مهام بناء التنمية على أسس بعيدة كل البعد عن خصائص الاقتصاد الريعي.

٨. أصبحت الاقتصادات العربية تعاني من ضبابية الفكر والمنهج التنموي، وفقدت قدرتها على توفير متطلبات التنمية المستقلة بسبب تنميتها سياسات اقتصادية عمّقت الخصائص الريعية للاقتصادات العربية.

٩. باتت الاقتصادات العربية خاضعة لعملية التفكيك الاقتصادي وإعادة التركيب.

١٠. فقدان الاقتصادات العربية العديد من مقومات سيادتها الاقتصادية بسبب خضوعها لسياسات التحررية الاقتصادية الجديدة ولسياسات أصولية الأسواق الحرة بلا قيود.

١١. باتت الاقتصادات العربية تعاني من غياب دور الدولة الإنمائي، بعد أن دمرت الخصخصة أصول الدولة والوظائف دون إيجاد وظائف جديدة، وبعد أن حلّت أصولية الأسواق وسياسات التحررية الاقتصادية الجديدة محلَّ دور الدولة الإنمائي، وهذا التوجّه يعرقل التنمية ويَحُول دون تطوير نماذج وطنية بديلة.

١٢. تعيش الاقتصادات العربية في حالة تعتيم بالنسبة لمستقبلها الاقتصادي، حيث بات هذا المستقبل يُرسم من قِبَل الغير؛ إذ لم تعد عملية صنع القرار الاقتصادي العربي خاضعة لثوابت وخيارات اقتصادية عربية.

١٣. أصبحت الأبحاث الاقتصادية العربية موجّهة لنشر أدبيات ومبادئ وأيديولوجية أصولية الأسواق، ونظرتها إلى اقتصاد السوق كأداة سحرية لتحقيق التنمية دون النظر إلى الاقتصاد الإنتاجي. كما أنّ هذه الأبحاث تخلو من تحليل العنصر الريعي المهيمن على الاقتصادات العربية، والمؤدي إلى تركّز المتوارث لبعض الأسر الحاكمة أو المقربة من أهل الحُكم.

سادساً- التوصيات

ومن المؤكد أنّ غياب الفكر التنموي والاستثماري العربي أدى إلى فشل التجارب التنموية العربية، حيث ظلَّ الأداء التنموي العربي متدنياً إلى حد كبير، وهذا ما أسهم وبدون أدنى شك إلى تقوية الاقتصاد الريعي في الدول العربية، وأسهم في تنمية مشوّهة وناقصة، أسيرة المداخيل الريعية وتطورات الاقتصاد العالمي.

وعليه فإنّ معالجة القصور التنموي العربي يكمن في الآتي:

١. توفير متطلبات التنمية القابلة للاستمرار والاستدامة، وهذا يتطلّب زيادة التخصصات الاستثمارية للقطاعات الإنتاجية، وربط السياسات الاستثمارية بسياسات التنمية.

٢. توجيه السياسات الاستثمارية والتنموية نحو زيادة القيمة المُضافة للقطاعات الإنتاجية، خاصة قطاع الصناعة التحويلية وقطاع الزراعة.

٣. إعادة الاعتبار لدور الدولة الإنمائي، وتنشيط دور القطاع الخاص للإسهام في عملية التنمية.

٤. الحذر من تبنّي سياسات الإنتاج الاقتصادي طبقاً لشروط المؤسسات الاقتصادية الدولية.

٥. توجيه السياسات الاقتصادية نحو تنمية القرارات البشرية، والاستغلال الأمثل للموارد الاقتصادية العربية المتاحة.

٦. إصلاح الأنظمة والتشريعات الضريبية في الاقتصادات العربية، وزيادة مساهمة الواردات الضريبية في الميزانية العامة لكل دولة عربية.

٧. توحيد أنظمة الاستثمارات العربية، وإعادة صياغة وتفعيل اتفاقية الاستثمار الموحّد التي أُقرت في قمة عمّان الاقتصادية عام ١٩٨٠.

٨. لا يمكن معالجة القصور التنموي العربي مع الاستمرار في إهمال ثوابت العمل والتكامل الاقتصادي العربي المشترك، خاصة إهمال ثوابت ميثاق العمل الاقتصادي العربي المشترك واستراتيجية العمل الاقتصادي العربي المشترك، التي أُقرّت في قمة عمّان الاقتصادية عام ١٩٨٠، وعليه نوصي بتفعيل هذه المواثيق.

٩. لا يمكن معالجة القصور التنموي مع استمرار ضبابية الفكر التنموي والاستثماري وعشوائية سياساته، وعليه لا بد من إزالة هذه الضبابية من خلال بناء وتبنّي فكر تنموي قائم على التنمية المعتمدة على الذات كركيزة لبناء الأمن التنموي العربي بعيداً عن الاقتصاد الريعي.

١٠. توجيه البحوث لنقد آليات الاقتصاد الريعي وتوضيح آثارها المدمرة على الاقتصاد.

١١. تخلّي صُنّاع القرار الاقتصادي عن السياسات الاقتصادية العشوائية والقرارات الاقتصادية غير الرشيدة، وسياسات أصولية الأسواق الحرة وسياسات التحررية الاقتصادية الجديدة، وسياسات الإنتاج الاقتصادي، وإبعاد دور الدولة الإنمائي، لأن مثل هذه السياسات لا تُسهم في تخليص الاقتصادات العربية من السمة الريعية، ولا في بناء مهام التنمية المستقلة.

١٢. حماية الشرائح محدودة الدخل من خلال سياسة إعادة توزيع الدخل.

١٣. العمل على تغيير الثقافة الاقتصادية المتأثرة بأدبيات الليبرالية الجديدة، وإغناء الأدب الاقتصادي العربي ببحوث تؤكد على التنمية المعتمدة على الذات بعيداً عن أيديولوجية أصولية الأسواق.

١٤. النظر إلى الاقتصاد الحقيقي بعيداً عن وصفات ومشروطيات صندوق النقد الدولي، وربط الاقتصاد الحقيقي بخيارات التنمية الوطنية.

١٥. التوجّه نحو الحركة التصنيفية، وبناء القواعد والمنصّات الصناعية الحديثة وفق التطورات التكنولوجية.

١٦. إنّ الأدبيات التي تعالج أوضاع الاقتصادات العربية بشكل عام تركّز على مفاهيم أنتجها الفكر الاقتصادي النظري الغربي دون التركيز على متطلبات التنمية العربية؛ إذ إنّ هذه الأدبيات يغيب عنها الفكر الاقتصادي والاجتماعي العربي، ولا تتضمن تحديد معالم النهضة الاقتصادية العربية، كما لا تعالج التحديات التي تواجه عملية بناء مستقبل الأمة الاقتصادي.

١٧. تركيز الأدبيات ومناهج التنمية على بنية الاقتصادات القُطرية مع غياب التكامل الاقتصادي والترابط بين الاقتصادات العربية.

١٨. المصدر الريعي للثروة هي السمة الرئيسية للاقتصاد العربي، حيث إن بنية الاقتصاد العربي مبنية على أساس الريع.

١٩. إنّ الأدبيات الاقتصادية العربية لم تعالج بشكل واف دور الريع في الاقتصاد، والتداعيات الاقتصادية والاجتماعية الناتجة عن الصفة الريعية للاقتصادات العربية.

٢٠. تركيز السياسات الاقتصادية العربية على تثبيت البنية الاقتصادية في إنتاج الريع كمصدر رئيس للثروة.

مصادر البحث

١. قرم، جورج، «أزمة الفكر والهوية العربية وعلاقتها بالقصور التنموي» منتدى الفكر العربي، عمّان ٢٠١٢.

٢. قرم، جورج، «مدخل إلى الاقتصاد الريعي في الوطن العربي» محاضرات أُلقيت في القاهرة في ندوة بدائل التنمية العربية، الجمعية العربية للبحوث الاقتصادية ١٣-١٤ نيسان / إبريل ٢٠١٨.

٣. الصايغ، يوسف، التنمية العصيّة، من التبعيّة إلى الاعتماد على النفس في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٢.

٤. الصايغ، يوسف، التنمية العربية في قصور الماضي إلى هاجس المستقبل، منتدى الفكر العربي، عمّان، ١٩٩٤.

٥. ستبغلتز، جوزيف، السقوط الحر.

٦. الجُميلي، حميد، دراسات في الأمن الاقتصادي العربي، أكاديمية الدراسات العليا، طرابلس ٢٠٠٥.

٧. الجُميلي، حميد، المشهد الاقتصادي العربي الراهن، دار الوراق، عمّان ٢٠١٣.

٨. الجُميلي، حميد، الحكم الاقتصادي العالمي والصدمة الارتدادية للعولمة، منتدى الفكر العربي، عمّان ٢٠١٢.

٩. الجُميلي، حميد، الهندسة الاقتصادية للعولمة واستشراف مستقبل الرأسمالية، دار الوراق، عمّان ٢٠١٥.

١٠. الجُميلي، حميد، إشكالية الاستثمارات العربية البينية والاستثمارات العربية الموظّفة في الخارج، مجلة المنتدى، العدد ٢٦٦-٢٦٧، عام ٢٠١٦.

١١. المؤسسة العربية لضمان الاستثمار، تقرير نتاج الاستثمار في الدول العربية لعام ٢٠١٨.

١٢. جامعة الدول العربية، التقرير الاقتصادي العربي الموحّد لعام ٢٠١٨.

١٣. صندوق النقد العربي، آفاق الاقتصاد العربي لعام ٢٠١٨.

١٤. حافظ، زيادة الاقتصاد العربي إلى أين، دراسة قُدّمت إلى المؤتمر القومي العربي (الدورة ٢٢) المنعقدة في بيروت ٢٧-٢٨/ آيار - مايو ٢٠١١.

١٥. الجُميلي، حميد، النظرية الاقتصادية الكليّة المتقدمة، دار الوراق، عمان ٢٠١٨.

١٦. هيكل، محمد حنين، العرب على أعتاب القرن الحادي والعشرين، مجلة المستقبل العربي، العدد ١٩٠، لعام ١٩٩٤.

١٧. صايغ، يوسف، نحو تنمية مستقلة، مجلة المستقبل العربي العدد ٩٠، ١٩٨٦.

١٨. عبدالله، إسماعيل صبري، التنمية المستقلة، مجلة المستقبل العربي العدد ٩٠، ١٩٨٦.

وثـــائـق



منتدى الفكر العربي

نــداء عمّــان

في أجواءٍ مُفعمة بالثقةِ والأمل، وعلى الرغم من التداعيات التي فرضها انتشار وباء كورونا (كوفيد – ١٩) على بلداننا العربية والعالم أجمع، فقد التأم مؤتمر «المواطنة الحاضنة للتنوّع في المجال العربي: الإشكالية والحل» عبر تقنية الاتصال المرئي (Zoom) بدعوة من منتدى الفكر العربي، وبرعاية ومشاركة مؤسّسه وراعيه صاحب السموّ الملكي الأمير الحسن بن طلال المعظم، ومشاركة واسعة من باحثين وخبراء وشخصيات فكرية وسياسية واقتصادية وثقافية وإعلامية عربية.

وألقى سموّه كلمة افتتاحية جامعة، تعدّ بمثابة مرشد ودليل عمل لتحقيق الأهداف التي سعى إليها المؤتمر، بما تضمنته من طروحات أثارت المزيد من النقاشات والحوارات والإضاءات على مدى جلسات المؤتمر خلال يومي ١٠ و١١ آب/ أغسطس ٢٠٢٠، والتي صبّت جميعها في تعميق وتعزيز مفهوم المواطنة الحاضنة للتنوّع من زواياه المختلفة، القانونية والسياسية والاجتماعية والثقافية، وفي إطار منظومة حقوق الإنسان والدولة المدنية المتعدّدة الثقافات، وبما يحقق المصالحة الوطنية في محددات واقعنا العربي الراهن، وذلك بربطها بالجوانب الاقتصادية والإعلامية والأمن الإنساني، بما فيه الأمن الغذائي والصحي، ودور التعليم والتربية وتمكين المرأة، في نطاق حزمة متكاملة ومتداخلة لرفد مفهوم المواطنة الحيوية.

وفي إطار نقاش وحوار حول الآفاق المستقبلية ودور النخب الثقافية والفكرية العربية، قرَّر المؤتمر إصدار هذا النداء بعنوان «نداء عمّان» وهو موجه إلى الملوك والرؤساء والقادة العرب، وذلك انطلاقاً من رسالة المنتدى التي واصل نشرها على مدى حوالي ٤٠ عاماً، حيث تحلّ ذكرى تأسيسه بعد فترة قصيرة، وأساسها «تجسير الفجوة بين صاحب القرار والمفكرين، والربط بين الفكر والمواطنة من خلال المجتمع المدني» في إطار علاقة تصالحية تقوم على الاحترام المتبادل، وتهدف إلى تحقيق التنمية المستدامة للحاق بالعالم المتقدم، وفقاً لمبادئ المواطنة المنفتحة والفاعلة التي ترتكز على قيم الحرية والمساواة والشراكة والمشاركة والعدالة، ولا سيّما العدالة الاجتماعية.

ولعلّ تلك الرسالة تعزّزت واغتنت بعد أربعة عقود من الزمان بالعمل والنشاط والحيوية والتعددية الفكرية والثقافية والتجديد، والدعوة إلى إعلاء قيم التسامح والسلام واللّاعنف والتضامن والمشترك الإنساني، بما يعزّز التواصل والتفاعل من خلال الحوار وقبول الرأي والرأي الآخر والحق في الاختلاف في إطار الوحدة، بحيث يؤدي ذلك إلى «تعظيم الجوامع وتقليص الفوارق»، بمعنى الدعوة إلى تصحيح العلاقة بين الدولة والمواطن، وبين الدولة والمجتمع، وعلى نحو تكون فيه هذه العلاقة تصالحية وليست تصادمية، وتكاملية وليست تدافعية، وهي رؤية تقوم على فهم عميق للعالم المعاصر وما حصل فيه من متغيّرات ومستجدات وما تفضي إليه من تطورات وآفاق، على الرغم من التحديات التي تواجهها والتي عبّر عنها صاحب السمو الملكي الأمير الحسن بن طلال منذ تأسيس المنتدى.

وفي إطار هذه المعطيات أصدر المؤتمر «نداء عمّان» متضمناً الآتي:

١. أعرب المشاركون في المؤتمر عن التضامن مع لبنان وشعبه في مواجهة المحنة - الكارثة التي حلّت به إثر انفجار مرفأ بيروت يوم ٤ آب/أغسطس ٢٠٢٠، وقد دعا سمو الأمير الحسن في افتتاح المؤتمر إلى أن «لا نترك بيروت (بوابةَ الشرق ومنارة العرب) في نكبتها. ومثل هذا النداء هو إحياء وتجديد ودعوة لإعلاء قيمة التضامن بيننا نحن العرب، والمشرقيين خاصة، ولا سيّما في الظروف الاستثنائية التي تمرّ بها الأمة العربية».

٢. اعتبار المواطنة الركيزة الأساسية في الدولة العصرية التي تقوم على حكم القانون، والتي لا غنى عنها لإحداث الإصلاح والتطور المنشود، ولاسيّما بتعزيز الهويّة الجامعة والموحّدة والمتنوّعة والمتعددة في آن، وتأكيد احترام حقوق المجاميع الثقافية، وخصوصاً في المجتمعات المتعددة الثقافات والديانات.

٣. تعزيز تكافؤ الفرص في إطار المواطنة المتساوية وإلغاء مظاهر التمييز والاستعلاء لأسباب دينية أو طائفية أو إثنية أو سلالية أو لغوية أو لأي اعتبار، انطلاقاً من المساواة في الكرامة الإنسانية، وهو ما تبشر به الأديان، وبما يتساوق مع منظومة حقوق الإنسان.

٤. العمل على تحقيق المساواة الفعلية والمشاركة الفاعلة والشراكة الحقيقية في إطار حكم القانون، وإلغاء كل مظاهر الإقصاء أو الإلغاء أو التهميش أو الانتقاص من المساواة بين البشر، الذين ولدوا أحراراً ومتساوين في الكرامة.

٥. الانطلاق من قيمنا الإنسانية وتراثنا الغني للانسجام مع التطور الكوني الدستوري والقانوني المتطلع إلى تحقيق اندماجٍ عالمنا العربي في الحداثة والعقلانية والقيم الإنسانية المشتركة لبني البشر جميعاً، وبقدر احترامنا للتقدم العالمي وإننا جزء من الحضارة الكونية، فعلينا في الوقت نفسه التمسك بخصوصيتنا، دون انغلاق.

٦. التوجّه على مستوى كل بلد عربي وعلى المستوى العربي القومي والجماعي للاحتفال بمناسبة مرور ٧٥ عاماً على تأسيس الأمم المتحدة ومطالبتها باتخاذ مواقف إيجابية من الحقوق العربية، ولاسيّما حقوق الشعب العربي الفلسطيني في تقرير مصيره وإقامة دولته الوطنية المستقلة وعاصمتها القدس الشريف، وكذلك ضمان الكرامة والحقوق الإنسانية لشعوب اليمن وسوريا والعراق وليبيا.

٧. العمل على إقامة علاقات متوازنة بين البلدان العربية واحترام سيادتها ومصالحها المشتركة ومنافعها المتبادلة وعدم التدخل في الشؤون الداخلية، انطلاقاً من رؤية استراتيجية بعيدة المدى أساسها «ويستفاليا عربية»، بالإشارة إلى أن معاهدة ويستفاليا سنة ١٦٤٨ قد أوقفت الحروب الطائفية والدينية في أوروبا التي راح ضحيتها ملايين البشر. وهي دعوة لوقف الاحترابات المذهبية والطائفية التي تأجّجت

في منطقتنا، والتي قامت على أساس التعصّب وكانت وليدة التطرّف، وأنتجت عنفاً وإرهاباً لا مثيل لهما، خاصة مع اتساع دائرة العمليات الإرهابية التي قام بها تنظيما القاعدة وداعش فيما بعد، والتي ارتكزت على تكفير وتجريم كل رأي مخالف. وكذلك الدعوة إلى تعزيز مبدأ حرية الدين والمعتقد في بلداننا.

٨. في الوقت نفسه، العمل على تحقيق فكرة «ويستفاليا مشرقية»، نظراً إلى أن أربعة شعوب أساسية تعيش في المنطقة هم: العرب والترك والفرس والكورد، ولا بدّ من إقامة علاقات متوازنة بينهم أساسها التسامح واحترام مبادئ السيادة وحق تقرير المصير، وحلّ المشاكل في ما بينها بروح الإخاء والمشترك الإنساني، وعلى أساس قواعد القانون الدولي، ووفقاً لمبادئ السلم والأمن الدوليين، ونبذ استخدام القوة أو التهديد بها لحلّ المنازعات أو الخلافات. وكان منتدى الفكر العربي بمبادرة وتوجيه من رئيسه وراعيه قد عقد مؤتمراً في ٢٠١٨/٧/٢٢ بعنوان "الأعمدة الأربعة"، بمشاركة نخبة من المثقفين يمثلون الأطراف الأربعة المشار إليها.

٩.العمل على تأكيد حق ممارسة الشعائر الدينية بحريّة ودون إكراه أو تمييز، ووفقاً لمبادئ المواطنة المتساوية، بما يضمن حق إحياء التراث الثقافي واللغوي لجميع المجموعات الثقافية التي تعيش في البلدان العربية.

١٠. السعي إلى إبرام عقد اجتماعي جديد يعتمد على مبادئ المواطنة، ويعزِّز من شرعية الحكم، ويبني قواعد مشتركة للعيش معاً وفي إطار حكم القانون وسيادته.

صدر عن:

مؤتمر «المواطنة الحاضنة للتنوع في المجال العربي: الإشكاليّة والحلّ»

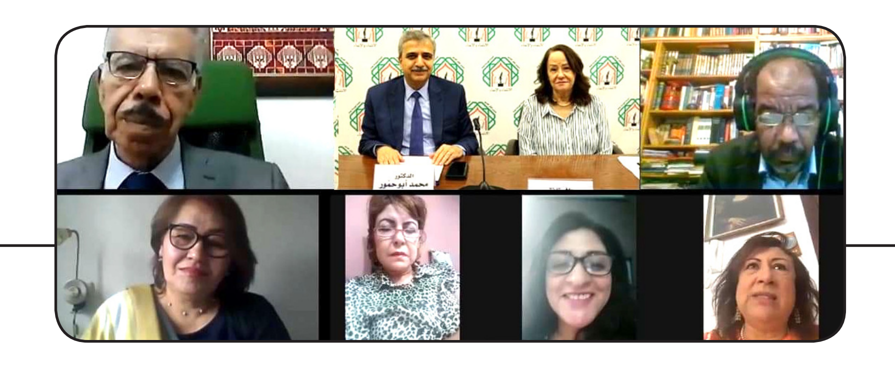
(١٠-٢٠٢٠/٨/١٢)

منتدى الفكر العربي، عمّان، الأربعاء ١٢ آب (أغسطس) ٢٠٢٠.

ملف العدد

تحـولات الواقـع العـربي

في تجارب المبدعين والمثقفين



ناقش عدد من المبدعات والمبدعين العرب في مجال الرواية والأدب والثقافة، تحولات الواقع العربي وانعكاساتها في تجاربهم وأعمالهم الإبداعية ورؤاهم، في لقاء عبر تقنية الاتصال المرئي، نظمه منتدى الفكر العربي يوم الأربعاء ١٤/١٠/٢٠٢٠. وشارك في اللقاء، الذي أداره الأمين العام لمنتدى الفكر العربي د.محمد أبوحمور، كل من : سميحة خريس (الأردن)، وهالة البدري (مصر)، ويحيى يخلف (فلسطين)، وآمال مختار (تونس)، ورزان نعيم المغربي (ليبيا)، ود.طارق الطيب (السودان)، والإعلامية شيرين نبيل (مصر) .

أكد المشاركون دور الثقافة والمثقفين والمبدعين في التنمية الشاملة وكأساس للوعي في مواجهة التحديات، وكذلك تواصل نتاجهم الإبداعي والفكري بوصفهم شهوداً على المرحلة التاريخية التي يعاصرونها، وأشار بعضهم إلى أن التاريخ عبر الأعمال الروائية والأدبية يعبر عن صوت الشعب، والكتابة عن الهوية هي جزء من الدفاع عنها، وتحدث البعض عن نماذج من هذا الدور ومنها نموذج المبدع الفلسطيني الذي يقوم بتعزيز ثقافة الحرية والتواصل مع محيطه القومي من خلال أعماله، واعتبر مشاركون أن العمق الإنساني ضرورة لتقليص الفجوة بين الأجيال ومعالجة التغيّرات في المفاهيم، ولا سيما مع استهداف الهوية ومداهمة العولمة والثورة التكنولوجية للمجتمعات العربية التي سلبت المثقف دوره، وحق الإنسان في اختيار ثقافته الذهنية المستقلة دون الإضرار بالمجتمع، مع تأكيد أهمية مخاطبة الشباب من قبل المثقفين والمبدعين لبناء أجيال قادرة على مواجهة التحديات في الراهن والمستقبل.

الأدب والإصلاح الثقافي

د. طارق الطيب*

أظن أنه من المفيد الاعتراف بأننا في عالمنا العربي نخضع لحدود ثقافية مرئية وغير مرئية، والأخيرة هي الأصعب بمراحل حتى من الحدود الجغرافية المعروفة، وأن نتفق إلى حد ما على أن المسار الثقافي في كل بلد عربي يخضع للهيمنة السياسية إيجاباً وسلباً، وأن الإشكالية الثقافية تبدأ من التقدير السياسي الخاطئ للثقافة، فالتعليم مقارنة بالثقافة يمكن توجيهه سياسياً والارتقاء به من خلال إجراءات واضحة وقوانين صريحة، أما الثقافة فهي مُرَكّب حساس ووضع حضاري فعّال يتعامل وفق قوانين أخرى. وإذا ما تحزبت الثقافة على صورة «الميكانزم» السياسي، فهذا يعني إقصاء جزء مهم من الثقافة، ما بين مؤيد ومعارض وتجميد الثقافة في قوالب مضرة، مع خلق جزر ثقافية لا نهائية غير مؤثرة في حراك وتطور المجتمع.

فهل نعاني في العالم العربي من أزمة ثقافية؟ وهل يجوز أن نربط في عالمنا العربي الأزمة الثقافية بالأزمة الاقتصادية؟ وهل هناك مشكلة في التحديث والحداثة؟ وما هو دور الروائي أو الفنان في هذه المشكلة ودوره في قضية الإصلاح الثقافي في الحياةِ العربية؟ وكيف نرى مسألة العولمة وأثرها ثقافياً على العالم العربي؟ وهل فقدنا هويتنا بتصاهر الثقافات؟ هل يُصَنَّم

* روائي وقاص وشاعر/السودان، مُحاضر في جامعة جراتس وجامعة العلوم الإدارية في النمسا.

في العالم العربي الكُتّاب القدماء الراحلون؟ وهل مصطلح «معارضة ثقافية» جديد؟ أتخضع الكتب العربية بالفعل للمنع والمصادرة؟ وإلى أي مدى انعزل الأدب العربي عن نظيره العالمي؟ هل ثمة دور للانفتاح على العالم والاستفادة منه بشكل أفضل؟

هذه مجرد حزمة مختصرة من عصف هائل من الأسئلة المتعلقة بموضوع الثقافة ودور المثقف والمبدع العربي. سأحاول إبداء وجهة نظري فيما يتعلق بأزمتنا الثقافية الحالية في العالم العربي، من خلال طرح هذه الأسئلة في مساعٍ لإلقاء الضوء على ملامح الإجابة عليها من وجهة نظري.

•هل نعاني في العالم العربي من أزمة ثقافية؟

نعم، بكل تأكيد. نحن نعاني -في عالمنا العربي من محيطه إلى خليجه- من أزمة ثقافية كبرى، نظن دوماً أن وحدة اللغة والدين هي رابط أساسي أزلي وكافٍ. على المستوى النظري يمكن الموافقة على هذا الظن، واعتماده كأساس لوحدة شاملة متينة، لكن واقع الحال ينفي ذلك. تتدفق الأزمة من أكثر من منبع، لكن العمود الفقري لهذه الأزمة من وجهة نظري هو المعاناة في التواصل الثقافي الحقيقي الداخلي (داخل الدولة الواحدة) والبيني (بين الدول وبعضها البعض) وتبادل الخبرات والنصح والوعي.

على غرار الأزمة الاقتصادية نعاني من أزمة ثقافية مشابهة. حتى الدول العربية التي تعيش في مستوى رفاهية أعلى من الأخرى، تعاني أيضاً من معضلات اقتصادية لم تتمكن من حلها؛ فالأمر لا يرتبط بالمستوى المادي العالي على حدة، إذ هناك تبعات لم تجد حلاً مُرضياً للشكل الاجتماعي لهذه الدول الغنية ومدى الانسجام الداخلي، خاصة وأن هناك عدداً هائلاً من الطاقات الخدمية أجنبية الجنسية تنتمي إلى «الهوية الاقتصادية العالمية»، وليس إلى ثقافة البلاد ولا إلى نسيجها السياسي.

عانت بعض الدول العربية قبل نصف قرن من سياسات الانفتاح الاقتصادي العشوائية التي لم تكن مقننة بما يحفظ ثروات البلاد وتراثها، فتركت الاستثمار الأجنبي يصول ويجول كيفما شاء بمساندات ائتمانية وهمية والتهام جشع للاستثمار المحلي. فربحت كل الشركات الأجنبية ورسخت أوتادها من خلال تقديم شهادة حسن سيرها وسلوكها عبر ميزانياتها وأرباحها التي لم تكن تفيد الدولة المحتضِنة (الدولة العربية)، وإنما الشركات الأم صاحبة الحق في تملك الأرباح والتي كانت في معظمها أجنبية وتوجد مقراتها في خارج البلاد (بلاد المنشأ الأجنبية)، ويتم بالطبع تحويل هذه الأغنام إليها، والاعتماد فقط من داخل تلك الدول العربية على العمالة الخدمية والوظيفية في المستويات التي لا تتمكن من اتخاذ القرارات الفاعلة لخدمة تلك الشركات وصيانتها. هذه الشركات الأجنبية اعتمدت في الأغلب على طرح منتجات استهلاكية كمالية بشكل واسع يصل لأصغر قرية في البلاد؛ سلعة أجنبية الأصل كُتِبَ عليها: (تم انتاجها في داخل البلد العربي)!

• **هل يجوز أن نربط في عالمنا العربي الأزمة الثقافية بالأزمة الاقتصادية؟**

نعم، بكل تأكيد. فالخصائص الاقتصادية للتخلف لها إشعاعاتها المَرضية على الجسم الاجتماعي وعلى الجانب الثقافي بالطبع. البلد الذي يمتلك موارد ضعيفة لن يتمكن من تحقيق مستوى معيشي معتدل للمواطن بسبب انخفاض الدخل. تدني الاقتصاد سيؤدي لتدني التعليم كفرع من فروع التطور الطبيعي لكل أمة، وتدني التعليم سيؤدي لإهمال الجذر الثقافي وإهمال القراءة وإهمال الفن برمته.

ستخلق تلك الحلقة المفرغة هبوطاً للأدنى من تقلص رؤوس الأموال وتفشي البطالة، وكما يحدث في المجال الاقتصادي أن تتوجه الاستثمارات نحو نشاطات غير منتجة مثل المضاربة في العقارات والاعتماد على تزايد القطاع الخدمي على حساب القطاعات الإنتاجية، يحدث ما يشابه في المجال الثقافي، بالاستثمار في جناح واحد بالظن أنه الوطني الوحيد وإغفال أهمية الجناح الآخر

المختلف، حيث يكون في الغالب توجيه الثقافة من خلال السياسة؛ أي تحجيم الفكر عن أن يذهب لحدوده القصوى في الحوار الفعال.

وعلى الجانب الآخر نرى وهم المبالغ المخصصة في ميزانيات الثقافة والتي تبدو أنها معقولة إلى حد ما، لكن من خلال تحليل الموازنة العامة للدولة، سنكتشف أن النفقات الإدارية الحكومية تشكل القسم الأكبر في التكلفة من المنتج النهائي؛ بمعنى وجود صروح ثقافية كبيرة تهتم بالثقافة لكن منتجها أو مخرجاتها الثقافية في النهاية لا تتناسب أبداً مع قيمة المال والجهد المبذول فيها ومع تكدس العمالة فيها في شكل بطالة مقنعة تعطل العمل أكثر من أن تدفعه للأمام.

إضافة إلى ذلك، ففي كثير من دولنا العربية يعمل موظفون لا علاقة لهم بمجال عملهم في المجالات كافة؛ إذ لم يدرسوا في تخصصات أعمالهم، ولم يحدث لهم أي تأهيل علمي أو عملي مع الزمن.

أكثر الأمور حساسية ومعاناة من التخلف هو المجال الثقافي الغارق في روتين وظيفي معطِّل لا يعرف قيمة الثقافة ولا قيمة العلم ولا الخبرة ولا التطوير، ولا الفروق المهمة في فهم كثير من المصطلحات مثل الحداثة والتحديث على سبيل المثال.

- **وهل هناك مشكلة في التحديث والحداثة؟**

نعم، بكل تأكيد. في عالمنا العربي اعتمدنا على التحديث فحسب. الدول العربية ذات القدرات المالية العالية ومستوى المعيشة المرتفع تستطيع تحديث كل ما تريد. تكسل تماماً عن أمر الحداثة؛ عن تطوير مجالات البحوث العلمية الحديثة ناهيك عن أن الأساس الموجود والمتراكم من الخريجين في الجامعات غير مؤهل للتطوير أيضاً ويحتاج لطفرة جبارة في دفعه نحو الحداثة.

فماذا يحدث؟ يتم استيراد واستجلاب كل سلعة مادية أجنبية مهما غلا سعرها لمن يرغب فيها وهو القادر مادياً، بل هناك شركات ومؤسسات أجنبية

تعتمد على تطوير مؤسساتها وترساناتها الوطنية بأموال عربية كاملة بشكل غير مباشر كي تقدم كل احتياجات العرب من منتجات نهائية لا يشترك العرب في صناعتها أو تحديثها. حتى الأموال العربية الباهظة التي تقبع في بنوك الغرب، هي لتأمين احتياجات الغرب السلمية أولاً؛ مقابل تقديم أكبر الخدمات العسكرية والأمنية في المقام الأول للدول العربية. لم نسمع عن خدمات تعليمية واسعة للناس ولا طبية ولا ثقافية!

القادر والراغب من دولنا العربية في تحديث سيارته يستطيع أن يجلب أفضل وأرقى السيارات في العالم بإمكانياته المادية (استهلاك)، لكن ليس هناك أي صناعة للسيارات داخل البلد الأم ولا حتى إنتاج إطارات دراجة (إنتاج)، وقس على ذلك، فأحدث الأجهزة المنتجة في الغرب توجد في الدول العربية الغنية وفي أيدي النخبة الضئيلة العدد والمميزة في الدول الأقل نمواً.

أما مسألة الحداثة التي تعني المشاركة الفعلية في ابتكار وإنتاج وتطوير المنتجات فهي لا توجد في بلادنا العربية إلا في حدود ضيقة، تكاد تكفي قطاعات وشرائح قليلة داخل المجتمع وغير قادرة لا على المنافسة ولا على التصدير للخارج.

لا ننسى ما حدث في مصر في ثمانينيات القرن الماضي في مجال الاستثمارات المالية والبنكية تحديداً -ككيان موازٍ لمؤسسات الدولة الاقتصادية- وأبرزها شركة «الريان» لتوظيف الأموال وشركة «السعد» و«الهدى مصر» و«بدر» و«الهلال»؛ تلك الشركات التي أوعزت للناس بأن فوائد البنوك على الأموال حرام لأنها تتعامل بالربا، وأن شركاتهم هم لديها الحل الحلال؛ من خلال تقديم الفكرة الألمعية: «المشاركة في الأرباح» (اسم وهمي للفائدة البنكية العادية)، بلغت تلك المشاركة نسبة عشرين في المائة للعامة وخمسة وعشرين في المائة للنخبة المميزة، تلك النخبة التي كان أبرزها سياسيون ورجال دين وأصحاب سلطة مشهورون.

ماذا حدث من جراء شركات توظيف الأموال: أن الناس وقعوا في براثن الادخار السلبي بأن تخلوا عن أعمالهم اليدوية البسيطة ودكاكينهم الصغيرة وخبراتهم عبر قرون، ليبيعوا كل ما يمتلكون ويضعوا أموالهم في شركات الربح الحلال، لينتهي الأمر بكارثة مالية للعامة أكثر منها للنخبة، تلك الأخيرة التي سحبت أموالها وحلالها على الفور، بينما ضاعت أصول الأموال خارج البلاد في مضاربات في البورصات الأجنبية وفي حسابات بنوك خارجية، قبل أن تتعقد من قبلها الأمور في مشكلات خفية ضد الدولة مع ضبابية الحقيقة وبقاء الكارثة بأن الأموال هربت ولن تعود.

في تلك الفترة أيضاً، مَنْ لم يملك المال لجأ لادخار سلبي مواز، بسحب قروض مؤمنة بأصول ثابتة أخيرة يمتلكها، ليشتري سلعاً غير معمرة تندثر فيها أمواله بعد سنوات قليلة ليبقى عرضة للفاقة والديون.

والأسوأ حلّ علينا في العقود الأخيرة حين اندثر الإنتاج اليدوي المتين والصناعات اليدوية الأصيلة مقابل هجوم شرس للمنتجات الصينية الرخيصة، وهي منتجات متعددة في نوعياتها لتناسب كل مستويات الدخل. وتقابل كل ما تحتاجه من ملبس ومن أدوات استعمال يومية متاحة أمامك بكل الأسعار التي في قدراتك (من الإبرة للصاروخ). بهذا اندثر الإنتاج الوطني وتراجع أهل الخبرة القدماء وبقي الاعتياد على الاستيراد عبر محتكرين كبار من داخل الدول العربية يتحكمون في ذراع هامة من أذرع الاقتصاد الوطني. إضافة إلى الوقوع تحت براثن الإعلانات المحلية (ذات الثوب الأجنبي المدغدغ للمشاعر والسلعة صاحبة الترخيص الأجنبي) التي تلح على المتلقي بضرورة اقتناء السلعة والوصول إلى ركب نخبة وهمية تمتلك تلك السلع.

• وما هو دور الروائي أو الفنان في هذه المشكلة ودوره في قضية الإصلاح الثقافي في الحياة العربية؟

كثير من أصحاب القرار السياسي يعتبرون الروائي أو أي فنان أنه يقوم بدور تسلية للجمهور أو أي دور ترفيهي كمالي لا أهمية له. الصفحات الأولى من

الصحف يتصدرها السياسي، نشرات الأخبار المسموعة والمرئية يتصدرها السياسي، حتى تكريم الأديب والفنان بسبب إنجازه العظيم يتقدمها السياسي.

لم نصل حتى الآن في عالمنا العربي لفكرة اعتبار أن دور الكاتب والفنان هو من صميم الفكر والفلسفة في المقام الأول. فهو يختلف أيضاً عن دور السياسي الذي قد يكون له برنامج انتخابي أو لا يكون، السياسي الذي لا يمكن أن تحاسبه عن أخطائه او تجاوزاته لحصانته السياسية. دور الكاتب والفنان يختلف كذلك عن دور الواعظ ورجل الدين الذي يحذر ويندد بل قد يوعز ويفتي صراحة بالتصفية، ولا يمكن أيضاً أن تحاسبه على أخطائه لحصانته الاجتماعية دينياً.

فهل يمكن أن يكون للكاتب يوماً ما حصانة ثقافية أو فنية؟ حقاً لا أطالب بهذا إلا مجازاً؛ وإنما أطالب بحقه في حرية رأيه كتابة وتعبيراً ومحاسبته عبر الوسيط الملائم بالحوار.

أظن أن دور الكاتب والفنان هو دور لتدريب الناس على رؤية الأمور بعين مختلفة فيها درجة أعلى من الوعي في الخلاف وفي قبول الرأي الآخر ومناقشته. تدريب الوعي وإعلائه هي مهمة ليست سهلة، فلا ملامح تعليمية لها على غرار ما يحدث في المدرسة ولا تعتمد على الحصول على شهادة أو على تخرّج في مدرسة أو جامعة، بل هي مسألة ذهنية، يجرب فيها الإنسان التفكير لأقصاه ويتعلم فيها المشاركة ولو بالسؤال الحر وبإيجاد البدائل وفحصها وحساب كل مزايا وعيوب الفرص البديلة. الأمر ليس سهلاً كما يبدو، لكن بالمتابعة والجهد الخالص والاندماج في القراءة الواعية والتبصير بدور الأدب والفن تتغير كثير من الأمور.

إقصاء المثقف عن المشاركة في القرارات الحيوية لمجتمعه واعتبار أن دوره كمالياً، نابع من أن الشخص الموجود في أعلى الهرم سياسياً لا يهتم حقاً بالثقافة ولا الفن، أو أنه يعتبرها سلعة «تَرَفِيّة» (من تَرَف) للمجتمع. دون أن يعلم أنها «قوة ناعمة» لها قيمتها المادية المجزية إلى جانب قيمتها المعنوية العالية.

الروائي أو الفنان ليس نبياً وليس معطٍ فقط، بل هو أيضاً مستقبِل للثقافة وللفن ولهموم المجتمع، وله طريقته في تقديم نصائح أو أفكار أو حلول سلمية مفيدة.

• وكيف نرى مسألة العولمة وأثرها ثقافياً على العالم العربي؟

العولمة ليست نمطية بالشكل الذي يراه الكثيرون ومقولة (أن العالم كله قد أصبح قرية واحدة) ليست صحيحة ولا بريئة تماماً، فالعولمة قدمت منتجها «العولمي» بأشكال وأصناف متعددة ومتشظية وليس فيها انسجام حقيقي. الانسجام هو في الوسيلة والتقنية الناقلة لكن ليس في «الاستعمال والتطبيق» المتعدد والمختلف. على سبيل المثال: لدينا تقنيات تكنولوجيا «الستالايت العظيمة»، تقدم لنا قنوات تلفزيونية لا نهائية من ضمنها مئات القنوات الإعلانية التي تلح على العميل المرتقب أن يقتني سلعاً معينة لإيهامه برفع شأنه الاجتماعي، إلى أن يجد تلك السلعة أمامه في متجر ما، فيقتنيها بالفعل ليشعر بعدها بنوع من التباهي أو التفوق أو الانضمام للنخبة.

في تجربتي الشخصية، حين وصلت إلى فيينا في عام ١٩٨٤، لم يكن لدينا هنا سوى قناتين للتلفزيون النمساوي، وكنت مضطراً لمشاهدة الأفلام باللغة الألمانية ونشرات الأخبار وكل ما يُبَثّ، ولم يكن هذا سيئاً كما كنت أتصور وأشعر آنذاك، بل كان الفضل لهذه القنوات أيضا في تحسُّني السريع في فهم اللغة الألمانية وفي تواصلي الأفضل مع أهل البلاد.

بعد بضع سنوات دخلَتْ تقنية «الستالايت» وأصبح كل شخص في أي موضع حول العالم يجد قنوات بلاده الخاصة تصله حتى غرفة معيشته، وأصبح الشخص الغريب عن البلاد القاطن في بلد غريب عائشاً داخل بلاده وداخل لغته، واستغنى عن أي حوار مع الجار وعن المشاركة في أي أمر حيوي إلا في أضيق الحدود وفي كثير من الأحيان يتم التواصل بسوء تفاهم.

العولمة خلقت هيمنة ولم تخلق الحد الأدنى من العدالة العالمية المنتظرة؛ فأن تستهلك دون أن تنتج يعني أنك تدفع من عمرك لآخر يعيش من دمك، وما لم تشارك -كما ذكرنا آنفاً- في حداثتك الشخصية وحداثة العالم، فستظل مستهلِكاً ومستهلَكاً إلى الأبد!

قصدت من كلامي أن نوعاً خطياً من العولمة جعل الثقافة تتقزم مراراً، وتتراجع من ناحية التواصل الاجتماعي الثقافي الذي يعتمد على ممارسة لغة البلاد وفهم ثقافتها وعلى المعايشة الفعالة مع الحفاظ على الهوية وتطويرها، دون الخشية من غياب اللغة الأم أو تغييب الدين، وهذه القضية تطرح السؤال التالي.

- **هل فقدنا هويتنا بتصاهر الثقافات؟**

موضوع الهوية شغلنا لسنوات طويلة نابعاً من أمرين واضحين: الهوية الوطنية والهوية الدينية، دون أن نتعامل مع الهوية الثقافية.

سنبدأ أولاً من موضوع اللغة الذي يؤرق الجميع

في بلادنا العربية نتعلم لغات أجنبية عديدة ومنها نتعرف على ثقافات جديدة. هذا يحدث في معظم دول العالم. الاختلاف يكمن في أن معظم دول العالم تحترم لغاتها احتراماً كبيراً وتعتبر اللغة الأجنبية ثقافة إضافية للأصل ومعرفة مكملة، وقدرة على التواصل الإنساني. أما نحن في عالمنا العربي فقد وقعنا في ازدواج مشين: البعض اعتبر أن اللغة الأجنبية تشويهاً للغتنا العربية وفقداً للغة لها قداسة مميزة؛ لغة عربية لا يجوز مقارنتها بلغة أخرى في العالم حسب آراء المتشددين، ونخبة أخرى تعيش في اللغة الأجنبية بالكامل وتخضع لها بكل شروطها، بل تجهل التحدث ببساطة في لغتها العربية الأم.

لم يتمكن إلا القليلين من استيعاب فكرة أن اللغة الأجنبية المضافة ما هي إلا كسباً لفتح معارف عبرها على عالم آخر واسع، مع إمكان الاستفادة من تلك اللغة الأجنبية لتطوير اللغة الأم والإضافة إليها.

في هذه الألفية ما زلنا حبيسي فكرة أن اللغة الأجنبية ستلتهم اللغة الأم وبالتالي ستفسد الهوية، وكأن الهوية لغة فقط. لم ولا يتصور أحد أن الهوية كائن حي يتطور على الدوام باستيعاب لغات جديدة ومعارف جديدة وتصورات وعالم واسع مضاف، وأن الهوية لا تتشوه أبداً بإضافة الجديد لأصلها، وإنما تتشوه بالاستغناء عن كل إضافة ثقافية مفيدة، وأن استعمال لغة أجنبية أخرى لن يضير اللغة الأم أبداً.

وبالصورة نفسها فإن استيعاب الثقافات الأخرى وهضمها وتحليلها وأخذ ما يفيد ويناسب لن يضر أبداً بالأصل، وأن العالم منذ بدء الخليقة يعتمد على هذا التصاهر الثقافي والتواصل المعرفي والنقل والترجمة والاستيعاب، وأن الحضارات تتواصل لتتكامل وتعلو بمجمل ثقافات متنوعة متراكمة، مما يخلق بنية أساسية لكل تقدم.

• هل يُصَنَّم الكُتّاب في العالم العربي القدماء الراحلون؟

نعم، يحدث هذا من أسف، حيث يُصَنَّم الكُتّاب القدماء الراحلون في العالم العربي بجدارة، وهذا يؤدي لآثار سيئة على مجال التطور الطبيعي للأدب، ولو أخذنا مجال الكتابة كمثال، سنجد أن بعض الدول تمجد كاتباً ما، خصوصاً بعد وفاته وتخلع عليه الهيبة والسطوة والفرادة، وهذا ليس بالأمر السيئ، فمن الجميل أن يبقى التقدير لأهله حتى بعد رحيلهم؛ إلا أن الأمر يُبالغ فيه بالقول وتثبيت المقولة؛ أنه لن يأتي بعد هذا الكاتب الفذ كاتباً مثله، فيغلقون باب التفوق على أي كاتب جديد قادم.

يحدث الأمر في العالم الغربي بطريقة مختلفة وعادلة وداعية للتطور، فهم يقدّرون ويمجدون الكاتب الراحل الفذ ويفردون له وعنه الكتابات المطولة والهامة عن فرادته وعن تميزه، دون أن يضيفوا جملتنا العربية الشهيرة: بـ (أن هذا الكاتب العربي لن تخلق البلاد مثله أبداً). هذا التصنيم يوقف العجلة الطبيعية لطبيعة كل شيء في الحياة، ولفعل تشاؤمي ربما يكون غير مقصود

ولكنه محبِط ومعطِّل لكل مبدع قادم؛ فمهما فعل الكاتب اللاحق فقد اتفق الجميع على أنه لن يعبر خط الكاتب السابق مهما فعل.

لعل هذا الأمر يعود إلى أن دورة التجديد شبابياً في عالمنا العربي بطيئة إلى حد كبير، فلا يُسمح للقدرات الشابة بتولي زمام الأمور رغم قدراتهم العالية وتفوقهم. التراث والتقاليد العربية ترسخت على تمجيد الأب وتقدم الأكبر سناً، وعلى تأجيل دفع الإبن أو الشاب إلى مجالات القيادة بكل تنوعاتها.

- **«معارضة ثقافية» هل هذا مصطلح جديد؟**

المعارضة الثقافية يُقصَد بها ذاك الوعي الثقافي الذي يتخذ مواقف معينة في إطار ثقافي إجمالي ضد أمور تؤثر على المسار السليم للثقافة، فالحراك الثقافي وتلك المعارضة السلمية في أمور الفن والثقافة لا غبار عليها، وغياب الوعي بقيمة تلك المعارضة الثقافية وبكونها تختلف عن المعارضة السياسية، وأنها لا تتمترس خلف حزب وجماعة وإنما خلف فكرة أو حزمة من الأفكار المسالمة، وأن أفضل طريقة للتعامل مع الأفكار هو الحوار الحقيقي المحترم الذي لا يسعى لإقصاء الآخر أو تهميش الأقلية.

علينا الاعتراف بعد هذه التجربة العربية الطويلة والمريرة عبر عقود، بأن تكاليف المنع الثقافي والتضييق و«الرقابات» المتعسفة، قد أثبتت فشلها أمام التواصل الحديث وإمكانية الحصول على معظم المعلومات والبيانات والمطبوعات افتراضياً بضربة زر، وأن التأخر في منح الحرية في متابعة كل الثقافات وتجاهل أن المجتمع قد وصل إلى سن الرشد ومن حقه الاختيار، سيجعل هؤلاء المحرومون من حرية الثقافة يستقطبون منابع مشوهة في قيمتها الثقافية، فقط لأنها ممنوعة وغير متاحة.

نحن أيضاً أمام خطر يتسلل بنعومة ومكر ويترصد البنى الثقافية في العالم العربي، والأخطار والأخطاء من صنيعتنا نحن في المقام الأول، قبل إزاحتها بكل بساطة على أنها مؤامرات خارجية وأجندات وتمويلات أجنبية، وقبل ابتكار كل المصطلحات الغليظة والبائسة دون أن نضع يدنا على أصل الداء بوضوح.

• **أتخضع الكتب العربية بالفعل للمنع والمصادرة؟**

منع الكتب بل حرقها له في التراث الأوروبي تاريخ مظلم ومؤلم من المعاناة الطويلة، ومعظم حالات حرق الكتب باءت بفشل هدفها إن آجلاً أو لاحقاً.

في عالمنا العربي مازلنا رابضين عند المحرمات الثلاثة: الدين والسياسة والجنس في الأدب والفن. تظن السلطة السياسية أن ممارسة الحق في نقاش الأمور الأيديولوجية ومعها الأخلاقية هو خطر عليها، فتسعى للسيطرة على الأمر مبكراً بإيقاف أو منع أو مصادرة كل ما سيثير الزعازع. في المجال الديني تسيطر الحالة نفسها باحتكار وتوقيف أي محاولات لتجديد الفكر الديني ومعاصرته. هناك فارق كبير بين تطوير الهوية الدينية لتتسع لفهم أكبر ومعاصرة أقرب وبين التهديد بكون هذا التطوير هو مجرد تشويه أو تدمير أو تغييب، فلا يفرقون بين النص الديني الثابت والممارسة الإنسانية للدين والمعاملات التي لابد أن تتغير بتغير الزمان.

رأينا كثيراً من الحالات المخجلة عربياً عبر التاريخ القديم والحديث أيضاً، ولعل قتل المفكر فرج فودة (١٩٤٥-١٩٩٢) في مصر، هو حالة صريحة لم تتحمل حواره الديني بفكرته عن فصل الدين عن السياسة وليس عن المجتمع، فعادته السلطات الدينية، ليصبح عرضة للتصفية. كذلك لم تتحمل السلطات الدينية آراء نصر حامد أبو زيد (١٩٤٣-٢٠١٠) وضيقت عليه سبل العمل والحياة واتهمه بالتكفير، بل بكونه كافر بالفعل ولا يجوز له أن يعاشر زوجته المسلمة، فاضطر للذهاب إلى المنفى. ولا ننسى نجيب محفوظ حين حاول شخص جاهل بالأدب والكتابة والفن أن يجز رقبته في الشارع، لأنه سمع إمام المسجد يخطب ويوعز بـ «كُفرانية» هذا الكاتب؛ فتربص له ليقتله دفاعاً عن الإسلام، ومن قبل عانى طه حسين وغيره والقائمة طويلة لأسماء عديدة على مر التاريخ الحديث.

موضوع الكتابة عن الجنس في العالم العربي أصبح مع الوقت لا يثير قلقاً مشابهاً للسياسة والدين، فهو مسألة تتعلق بالأخلاق ولا تهدد السياسة أو الدين

بشكل مباشر، وهو موضوع يمكن إخضاعه لمراقبة المصنفات الفنية التي قد تجيز العمل أو لا تجيزه، ليتعرض العمل لرقابة أخرى (بينية) بين الدول العربية.

الغريب في الأمر أن منع الكتب قد صار بسبب العنوان مثلاً أو بسبب صورة غلاف الكتاب، من دون النظر في محتواه الذي ربما يخاطب وعياً عالياً ويسعى لمناقشة فكرة هي بعيدة تماماً عن الإسفاف الجنسي الجاهل بأمر الفن؛ بينما تسمح الرقابة بسهولة تداول الكتاب البسيط السطحي الذي لن يثير أي تفكير أو نقاش. وينسون في النهاية أن كل شيء متاح عبر الإنترنت في ملفات سهلة التحميل والقراءة.

- **إلى أي مدى انعزل الأدب العربي عن نظيره العالمي؟**

يمكن تأكيد هذه المقولة المطروحة في شكل سؤال بأن الأدب العربي انعزل عن نظيره العالمي بالفعل.

موقع الأدب العربي عالمياً في مكانة غير لائقة بنظيره مثلاً من دول أميركا اللاتينية، والحالات الفردية في الترجمة لا يمكن القياس عليها بشكل صحيح. فرحُنا الكبير مثلاً بانتشار «ألف ليلة وليلة» في الغرب، نأخذه بصرعة سطحية كمن سجل هدفاً في فريق منافس دون أن ينتبه أنهم سجلوا في مرماه عشرات الأهداف.

الغرب والعالم البعيد استفادا من التراث العربي في «ألف ليلة وليلة» تحديداً عبر نهجين، الأول إيجابي ويتمثل في هضمها من قِبَل بعض المبدعين الغربيين والاستفادة منها لخلق عوالم فنية مبتكرة ظهرت في أعمالهم غير العربية، والثاني في صورة سلبية من خلال المتعة السحرية «الإكزوتيكية» التي ثبّتوها على الكِتاب وتوقفت عند التلذذ بعوالم الحريم والتهكم من سلوك السلاطين.

على مدار أكثر من نصف قرن، لم تنتبه للأسف السياسات العربية للدفع بالدفق الثقافي الهائل واستخدامه في الغرب كقوة ناعمة سلمية تفِلّ دعاوى التفوق؛ فقد ركزت النظم العربية السياسية المستقلة وغير المستقلة على قشور ظنوا أنها مكاسب في أرض الخصم، خصوصاً على الصعيد العقائدي، وقد

عشت بنفسي هذه التجربة هنا في الغرب قبل أربعة عقود، حين جهزتُ ملفات ثقافية على مستوى عالٍ من المنبع الثقافي النمساوي العريق، لأنقل صورة قيّمة حديثة، فطلب مني رئيس تحرير إحدى الدوريات العربية المرموقة، أن أفتش عن أشخاص نمساويين اعتنقوا الإسلام وأن أصورهم وأجري معهم حوارات!

وقبل حوالي ربع قرن حاولتُ المشاركة بتجهيز قائمة لترجمة أهم روائع الأدب النمساوي إلى العربية، أرسلت بالبريد الجوي لأكثر من عشرين دار نشر عربية على امتداد الوطن العربي، وكنت وقتها مستعداً للعمل مجاناً بعد التأكد من قبول النشر للقيام بترجمة عمل منها، لكن لم يصلني أي رد وحيد ولو بالرفض أو الشكر!

الأدب العربي لم يستطع اتباع سياسة ذكية حكيمة ليستفيد من تلك القوة الخارقة والناعمة للأدب والفن وتسويقها بشكل محترف، فكثير من السياسات لا تريد أصلاً نشر هذا الوعي في بلدانها، فكيف لها بأن تسوقه في الخارج. انعزل الأدب العربي عن المشاركة الحقيقية عالمياً، ليلقى اللامبالاة ولتستغل كثير من دور النشر الغربية الموضوعات التي ذكرتها أعلاه (الحريم والسلاطين)؛ أي التركيز على الموضوعات النسوية التي تأتي من عالمنا الأسطوري وخصوصاً تلك المليئة ببهارات الصلاحية الغربية وصور اضطهاد المرأة ومعها الصورة الأخرى للتسلط السياسي، لتصدير الصورتين في المشهد الأدبي والاجتماعي الغربي ومن قبلها السياسي بالطبع.

هناك أيضاً صورة أخرى محرجة لكل هذه الملحقيات الثقافية العربية بميزانياتها الضخمة التي توجد في كل دول الغرب؛ الملحقيات القاصرة عن تقديم الصورة المضادة الواعية عن قرب باعتبارها أهم حلقات الوصل، فلا نجد الأسماء الأدبية والقامات الرفيعة حاضرة في الملتقيات المهمة، بل هناك قوائم معظمها أسماء واهنة ليس لديها أدنى قوة للتمثيل ولا مكان للشباب النابض وتمثيلهم الضروري، وتلعب الصداقات الضيقة والمعارف أدوار التمثيل الواسعة عليها، فتقدم واجهة بائسة للثقافة العربية. حتى اختيارات التمثيل المعاكس من

داخل هذه البلدان -أي من الفنانين والأدباء الغربيين- لا قيمة حقيقية لها، فالصور السياحية التي تُقدَّم ومبالغات المديح والصور الفوتوغرافية للتملق التاريخي، لن تخلق تواصلاً حقيقياً عميقاً في إطار التبادل الفني والثقافي السامي.

كثير من هذه الملحقيات الثقافية تقوم في الأساس بدور الاهتمام بالدارسين من المبعوثين إلى الجامعات الغربية وترتب لهم أمورهم، أما عن الثقافة والأدب والفن فحدِّث ولا حرج.

عشت في النمسا سبعة وثلاثين عاماً ومررت بتجارب كثيرة معظمها مؤلم ومحرج ثقافياً وفنياً؛ فالمسؤولون الكبار المنوطون برعاية هذه الفنون الثقافية في الدول الغربية لا يقدّرون دور الأدب أو الفن حقاً، ولا يحيدون عن اتباع مناهج عتيقة تجهل مفاتيح التواصل الحقيقية.

في السنوات القادمة سينعزل الأدب العربي أكثر، فالصور النمطية الآتية من بلاد المنبع العربية، يستغلها الغرب بخبث شديد بتركيز مبالغ فيه على الصورة الإسلامية التي لم يتمكن أحد من تقديمها إلى الغرب بالشكل السلمي السليم المناسب، باعتبارها ثقافة دينية في المقام الأول لا ثقافة دعوية، ثقافة دينية لا يحتاجها الغرب الذي تجاوزها بسنين ضوئية.

والحركات الرعناء الطائشة باسم الدين شوهت عند الكثيرين صورة الدين ونقلته ليكون مرادفاً للعنف، وساعدت بذلك عن جهل وطيش من مجابهتها بالحركات اليمينة المتطرفة التي تضاد لها في الاتجاه وصبت الزيت على النار.

●هل ثمة دور للانفتاح على العالم والاستفادة منه بشكل أفضل؟

العالم الغربي استفاد واستوعب كل الخبرات التي أتت إليه من العالم ومنها ما أتى من العالم العربي أيضاً.

اللغز الغريب هو أن العالم العربي لم يستطع للآن أن يستفيد من كل هذه الخبرات التي تناثرت حول العالم والتي تريد أن تقدم وتعيد بعض الخبرات إلى

البلد الأم، غالباً ما يتسم التعامل معه إما بالمظهرية السطحية والاحتفاء المجاني بالشكل باعتبار أنه (ابن من بلادنا)، وعند الجد والتطبيق لا يجد أبداً أذاناً صاغية، فمقدار الحرية المتاح لاستقلال تجربة ما وتوفير الالتزامات المادية لها يلقى صعوبات كثيرة، لذلك كثيراً ما تلجأ تلك الدول العربية للتعامل مع ما يسمونهم الخبراء الأجانب ومعاملتهم معاملة محترمة مادياً ومعنوياً، مقابل ابن البلد، رغم معرفة الأخير الدقيقة ببلده وتاريخه وعاداته وتقاليده وكل ثقافته، مما يطرد هذه الكفاءات طرداً ثانياً، فلا يتم الاستعانة لا بخبرة ولا بتجربة.

لذلك في كثير من الأحيان ما يضطر هؤلاء الخبراء والعلماء والمثقفين إلى البقاء حيث هم وإفادة المجتمعات التي يعيشون فيها واعتبار أن جهدهم يخدم الإنسانية بشكل عام!

أعيش في أوروبا منذ ٣٧ سنة وأعرف كيف يتعاملون هنا مع موضوع الثقافة منذ مولد الطفل الذي يدركون أنه يعي ويتعلم ويستوعب، وأن له ثقافته التي تقدم له من خلال اللهو واللعب، ويستمر الأمر في المدرسة وما بعدها. كل شخص يقدم فكرة يُثاب عليها وعلى أقل تقدير بالحوار الجاد. هنا خلف «اللهو» ثقافة، والتعليم يعتمد على التفكير والنقاش والحوار، لا مجال للحفظ الأعمى، لأن كل شيء متاح في الكتب وفي أجهزة الكمبيوتر يمكن مراجعته بكل يسر ودقة.

نحن في عالمنا العربي في حاجة لمجتمع قارئ، لا يخاف من أي كتاب، فللمواطن الحق في اختيار ثقافته الذهنية المستقلة في إطار الحرية الشخصية وعدم الإضرار بالمجتمع.

عالمنا العربي في حاجة لفتح الحدود الثقافية الداخلية والبينية لحوارات مستمرة دون خوف، ومجابهة الفكرة بالفكرة والحجة بالحجة دون غضب أو محاولات إقصاء. لعل الحوار البيني للدول العربية يفتح مجالات لحوارات داخلية ثرية واثقة ومحترمة.

فهل يمكننا أن نتواصل ثقافياً في عالمنا العربي الواسع بالحوار ونشارك في الحضارة؟

تحولات الواقع العربي في تجربتي

سميحة خريس*

شهد جيلي مرحلة التداعي والتقهقر العربي على أكثر من صعيد وعلى امتداد الجغرافيا العربية، وتوالت الأزمات منذ وعينا على الحياة. لقد راقبنا تراجع التنمية بكافة أشكالها في عالمنا العربي، وكانت مدننا وكأنها من ورق، ذات قشرة من تحضّرٍ وهمي يرزح وراءه جهل وتجهيل وفراغ فكري. انحسرت اضاءات التنوير اجتماعياً، وسياسيا ضُربت تجربتنا في مقتل، فلم نفلح في تحقيق ديمقراطية حقيقية، ورهنا إرادتنا السياسية لجهات خارجية في الأغلب الأعم، ولم نكسب معركتنا مع الاحتلال لقلب العروبة فلسطين، كما خسرنا المعركة الفكرية لصالح جمود عمق أزماتنا، ثم فتحنا الباب على مصراعيه للخلافات حدّ الاحتراب، بل وقمنا بتدمير ما أنجزناه من بناء المدن بأسلحتنا.

تبدو الصورة قاتمة باعثة على اليأس، ولكننا ككُتّاب لا نملك ترف الاستسلام، ولا يحق لنا رفع أيدينا معلنين انتهاء المعركة. ففي كل الأحوال المعركة عسيرة، لأن السياسيين وعلى مدى زمني لا يستهانٍ به تمكنوا من إقصاء المثقفين، بل وصنعوا وهماً يصوّرهم وكأنهم إضافة لا تغيّر شيئًا في مجمل الحياة. وتبنّت الجماهير والعامة هذا التصور، وعزّزه المثقفون أنفسهم، لأن البعض تخلوا عن أدوارهم، وآخرون غيّروا خنادقهم لمنافع شخصية، والبقية صمتوا في أبراج معزولة.

لهذا فإن معركة المثقف ليست هيّنة، إنها على عدة جبهات؛ نفسه أولاً، فجبهته الداخلية تحتاج إلى إعادة ترتيب. ثم هناك السلطات السياسية والقمعية التي تحاول تحييده، فعلى مدى سنوات لم تتم الاستعانة بالمثقف لحلّ الأزمات، وفي حالات نادرة حدث ذلك بشروط السلطة ووفق مقاييسها، لا وفق رؤية المثقف واقتراحاته. ثم إن الجماهير فقدت ثقتها بقدراته بل وتشكّك بمقاصده، ولا تسلم نفسها بسهولة لسماعه بينما تنصاع لأفكار مدمرة تجتاحها بيسر.

---

* كاتبة روائية وإعلامية/الأردن.

الجانب الأكثر خطورة هو انسلاخ المثقفين عن واقعهم وتخليهم طوعاً وكرهاً عن أدوارهم، كأنهم استشعروا الخلل الذي حدث في البنية الثقافية، وأصيبوا بالآفات التي نالت مجتمعاتهم. وهذا واضح من خلال تحليلاتهم غير الدقيقة والتي يعتريها نقص فادح، وعجزهم عن اعتناق قيم الحوار وقبول الاختلاف، وتخندقهم وراء متاريس فكرية جامدة، وأحيانا اصطفافهم إلى جانب الظلم والقهر، وانصياعهم لمختلف الجهات فإذا لم يكن اليمين فإنه اليسار، ولا توجد أجندة خاصة للمثقف خالية من تلك الإملاءات وقادرة على تشكيل العقل العربي بامتياز.

رغم هذه الصورة الرمادية القاتمة، فإن المبدعين يواصلون إنتاجهم، على أقل تقدير كشهود على مرحلة تاريخية عصيبة، ولعل الرواية وقفة الراصد لتبدل الأزمنة، فهي أكثر أصناف الإبداع قدرة على التقاط كل هذه المتغيرات وتصويرها كأدلة جنائية، يمكن للجيل القادم أن يحاسب من خلالها مرحلتنا وتاريخنا.

حظيت شخصياً ككاتبة رواية بشيء يسير من تلك المنحة عبرٍ تنقلي في الأماكن، كتبت روايات لم تلتزم بمكان جغرافي واحد، بل إنها سافرت بي أحيانا إلى أماكن جديدة لم أزرها، فأعالجها مستعينة بالبحث والدراسة، توقاً إلى توسيع آفاق الفكرة، في محاولة جعل الانتساب العربي إلى الإنسانية استحقاقاً حقيقيا، فنحن لسنا في معزل عن كل ما يصيب العالم، بل إن ترابط الأسباب والمسببات يتضح أكثر كلما وسّعنا دائرة التقصي والرؤيا.

لعلنا بهذا نخطو خطوة خجلى نحو الانفتاح والتخلص من جمود الإرث، فلا ندين التراث ولكن لا نغرق فيه، بل نتمكن من معالجته بقراءته جيداً وتقييمه بعيون معاصرة. لقد تركت الأماكن وشمها على النص، وحتى الآن لم يكن هناك تفحص نقدي دقيق لهذا التأثر والتأثير، لم يتم الالتفات لمدى العمق الذي تمنحه لنا الجغرافيا والاحتكاك بالثقافات، فهل تمكنا عبر النصوص من معالجة مسألة الاقتراب من الغرب دون تصوراتنا المسبقة؟ وإلى أي حد تؤثر تلك التجربة في فهم الآخر؟ بل وإلى أي حد يمكننا تقديم أنفسنا على الوجه الصحيح وإيصال صوتنا والتعبير عن هويتنا؟

آمنت أن العالم كله منتظم في حبل واحد، ولن نتمكن من معالجة خسائرنا دون فهم الصورة كاملة، وهذا أضعف الإيمان للمثقف الذي يعاني في إيجاد طريقة كي يساهم في تصحيح المسار العربي، كل في مكانه وموقعه. وها نحن ننحت بالكتابة باحثين عن بصيص من الأمل.

أنا ابنة العالم الواسع أكتب ضدّ النسيان والمحو

هالة البدري*

محظوظة بالميلاد بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ بسنوات قليلة، وسط مناخ ثوري وأحلام كبيرة بتغيرات تنقل المجتمع نقلة نوعية على صعيد التعليم والصحة وخروج المرأة للعمل وتحقيق انتصارات في قوانين الأسرة وبناء المصانع وفتح فرص جديدة للعمل، لكننا فوجئنا بالنكسة التي ألقت بظلها على كل شيء حتى على حياتي كصبية يافعة. بعد سنوات كثيرة ومنذ لحظة دخولي العمل الصحفي واشتغالي بالكتابة في الأدب أدركت مسؤوليتي عن نشر الوعي بين الناس، في وقت عانى فيه المجتمع من احتلال أرضه ونقص موارده الاقتصادية وتحويلها إلى المجهود الحربي وليس إلى التنمية، وأصبح الدفاع عن الديمقراطية من وجهة نظر السلطات طرفاً لا يجب أن ننشغل به.

نظرت السلطات المتعاقبة إلى حرية المثقف في نقل الوعي للناس نظرة ريبة وتشكك وتراوحت بين القمع والانفتاح، ولجأ المبدع إلى الرمز لتفادي المصادرة أو السجن، وبالفعل سجن عدد كبير من المثقفين في مصر ودافعوا عن التجربة في ذات الوقت لكن فكرةٍ وصولِ إنتاجهم للناس كانت موضوعاً آخر. في سنوات سابقة أدى المثقف دوراً كبيراً في بناء المجتمع وتحول إلى رمز وانتشرت أفكاره حول التنوير بين الشباب، وما زلنا نذكر طه حسين ويوسف إدريس وتوفيق الحكيم ولويس عوض ومحمود أمين العالم والعقاد وغيرهم من الرموز، ثم اختفت الرموز الجديدة عن عمد في أجيال تالية وأصبح إنتاج المثقف للنخبة وحدها ولا يصل إلى الشارع.

---

* كاتبة روائية وإعلامية/مصر.

ربما أبرز مثال هو تحويل الكاتب الكبير نجيب محفوظ بعد حصوله على جائزة نوبل إلى رمز جامد؛ تمثال نعبده ولا نتفاعل معه. لم يسأله أحد عن أزمة التعليم أو أزمة الهوية أو حتى رأيه في أزمة المواصلات. بنينا التمثال واكتفينا بهذا. عزلناه. وربما يكون من حسن حظ نجيب محفوظ أن معظم أعماله قد تحولت إلى أفلام سينمائية فوصلت أفكاره أو بعضها إلى قاعدة عريضة من البشر.

انتقل المثقف من مرحلة الدفاع عن الديمقراطية إلى الدفاع عن الهوية ضد ظاهرة العولمة واستهدافها لطمس العناصر المميزة لكل جماعة ولكل شعب، وتغييب الروح الوطنية بغرض تحويل البشر إلى قوالب وقطيع يسهل اقتياده نحو مصالح الشركات متعددة الجنسيات والدول الاستعمارية. وعاد الاستعمار بصورة مغايرة لا تحتاج إلى وجود عسكري إلا إذا لزم الأمر، ورأينا كيف تُدمر الآثار وتُمحى لغات من الوجود لتتم الهيمنة الكاملة على مقدرات الشعوب.

(إذا أخذنا عشرة شباب من نفس السن سنجد الملابس واحدة وقصة الشعر واحدة وطريقة الحديث والحركة واحدة وكذلك السلوك، وسوف يتعالى كل منهم على اللغة العربية ويتحدث معظم الوقت بالإنجليزية أو الفرنسية ربما بصورة أقل) انعكست العولمة على فهمه وإدراكه لهويته وتمسكه بها ورأينا صوراً عديدة لعدم الانتماء.

انشغل المبدع العربي بالدفاع عن الهوية في معظم الأعمال وظهرت موجات من الرواية التاريخية لتكون بديلاً للتأريخ الذي تكتبه السلطات ويكتبه المنتصر، ودائماً ما أضرب المثل بمشهد دخول الجنود الفرنسيين إلى ساحة الجامع الأزهر الذي كتبه الجبرتي ببراعة، لكنه لم يلتفت لصرخة طفل رأى والده يقتل. رآها المبدع ورأى عشرات المشاهد التي أهملها المؤرخ وكان صوت الناس وصوت الشعب.

وحين ثارت الشعوب العربية عام ٢٠١١ بحثاً عن العيش والحرية والعدالة الاجتماعية فوجئ المثقف بالوعي الجماهيري بحركة التاريخ وقدرة الناس على المواجهة، وبصرف النظر عن استغلال حاجة الناس للانتفاض ضد الظلم وسرقة الثورة وإحداث الفوضى فقد اكتشف المثقف حقيقة أن مجهوده لم يضع هباءً وأن الناس في الشارع يعرفون عن إنتاجه أكثر كثيراً مما يعرفه عن مدى وصوله للناس بسبب عدم وجود إحصائيات علمية ترصد هذا.

وتصور المثقفون أنهم سيأخذون دورهم لرفع مستوى الوعي في العالم العربي لكن ما حدث هو أكبر عملية تهميش حدثت على مدار العقود الماضية، فلا أحد يريد إيقاظ الوعي. اختفى المثقفون تماماً من الشاشات وتمت محاصرتهم بممنوعات ورقابة أعلى واتهموا بإثارة الفتنة وتم التشكيك في وطنيتهم أيضاً.

مع الأسف لا تدرك السلطات نتائج تغييب دور المثقف عن الساحة وتفضل الحلول الأمنية. ولنا في التجربة المصرية بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ مثال حي على هذا. فقد بنيت الدولة باقتدار هيئة قصور الثقافة التي أنشأت بدورها قصوراً ثقافية في مختلف القرى والمدن الصغيرة والكبيرة على الرقعة الجغرافية المصرية كلها، وقدمت فيها الموسيقى والمكتبات ومعارض الفن التشكيلي والمسرح والغناء وناقشت الكتب والأعمال الروائية والشعرية، وقابل روادها الموسيقيين والفنانين التشكيليين والكُتاب والمفكرين، وكانت هذه القصور بمثابة الذراع الثقافي السياسي للدولة الذي يواجه بالتنوير الفكر المتطرف اعتماداً على نظرية من يعزف أو يرسم لن يمسك سلاحاً ضد المجتمع، بل يمسكه ضد أعداء الوطن ولا يتحول بالتالي إلى إرهابي.

لكن ما حدث بعد ذلك أن أهملت هذه القصور لصالح المهرجانات ولم تعد ترصد لها الميزانيات الكافية لأداء دورها. وامتد الأمر أيضاً بالتضييق على الحرية لأن الثقافة لا تنتعش بدون حرية، وكانت النتيجة أن انصرف الناس عنها ولم تعد الخدمة مقدمة إليهم كما ينبغي.

ماذا عن تجربتي؟

عشت بالميلاد في مناخ ثوري قومي وأسرة مثقفة رياضية ساهمت بشكل أساسي في وعيي بحركة المجتمع، وانخراطي في فريق سباحة، وبمساعدة أب قاضي قاهري من أسرة متحضرة متحررة وأم ريفية من أسرة محافظة، مما مكنني بسرعة من فهم تناقضات الأنساق الثقافية التي تحكم حركة المجتمع. والتعرف على الخصوصية في كل نسق وتنوعها.

ساعدني هذا الوعي على إدراك القضايا الكبرى فانحزت إلى القومية العربية والعدل الاجتماعي، واكتشفت ببساطة أن التحديات الاجتماعية والسياسية والثقافية في الواقع العربي تمثل إغراءً حاداً للمبدع في كشف المستور والمسكوت عنه في هذا الواقع، بتحولاته التي تبدو طبيعية في مظهرها شديدة التشوه في العمق، وهو ما يحاول المجتمع بأطيافه المتعددة التستر عليها كل حسب ثقافته وبيئته وشجاعته في مواجهة هذه المتغيرات.

كشفت ثورة يوليو تطلع البرجوازية الصغيرة للصعود إلى الطبقات العليا بسرعة وانتهازية لتحل محل الأرستقراطية، التي تم الإطاحة بها دون امتلاك الخبرات أو الأدوات اللازمة لهذا التحول وهو ما أدى إلى كوارث مجتمعية بعد ذلك.

مبدئياً لا بد من التنويه أن الإبداع لا يأتي من الكتابة في موضوع بعينه، الإبداع يأتي من فنية الكتابة، وسواء أكانت الكتابة عن الحب أو الحرب فالأمر سيان: المهم هو كيفية تعبير الكاتب، ولأن الكاتب لم يأت من المريخ أو من كوكب آخر فهو بالضرورة غير معزول عن القضايا الإنسانية المطروحة على كل المستويات الاجتماعية والثقافية والسياسية، يقوم بتفكيكها وإعادة إنتاجها ويعبر عنها مثل قطعة موسيقية عظيمة ناعمة تعزف في قاعة مكتظة بالناس، وإلا تحولت كتابته إلى منشور وليس إلى عمل فني. ولهذا كثيراً ما تعجبني أعمال مكتوبة في إطار الفن للفن رغم أني أؤمن أن الفن رسالة.

سباحون في بحر البراءة

في روايتي الأولى «السباحة في قمقم» تساءلت عن معنى البطولة بين فريق رياضي يقوده مدرب ديكتاتور إلى الفوز بعد أن سرق روح أفراده الإنسانية وعودهم الطاعة الكاملة، ثم يفاجئ الجميع بهزيمة ١٩٦٧ مما يدفعهم لمحاسبة الجيل السابق عن النتائج التي وصلوا إليها على كل الأصعدة. كتبت هذه الرواية لأني أعرف عالم الفرق الرياضية جيداً كبطلة سباحة، وعبرت من خلال كابتن فكري عما جرى بين جمال عبد الناصر والناس الذين عشقوه، وشكك بعض النقاد في خفة قلم ابنة العشرين في التعبير بهدوء عما تفعله الديكتاتورية وقالوا إن الصدفة ربما لعبت دوراً في هذا، لكنها لم تكن الصدفة بل ما عشته كلاعبة في فريق فُرضتْ عليه الطاعة ليفوز، فلما قامت حرب أكتوبر اكتشف للمرة الأولى في حياته العالم خارج أسوار النادي الذي يعطي فيه شاب في الثامنة عشرة من عمره حياته للوطن.

مصر الحبيبة

رحت أبحث في روايتي الثانية «منتهى» عن روح الإنسان المصري الذي يغني ويبدع رغم الهزائم المتتالية ورغم ما مر به من تاريخ الظلم والاستعباد، روحه التي تنبع من ثقافة خاصة وحضارة خاصة ممتدة رغم أنها تغيم أحياناً. اخترت قرية متخيلة في ريف الدلتا وكتبت عن تحولات المجتمع منذ مطلع القرن العشرين في الفترة من الحرب العالمية الأولى حتى أزمة مارس ١٩٥٤، والتي كان من نتائجها منع كل من الشيوعيين والإخوان المسلمين من ممارسة دورهم السياسي وإقصائهم من مشهد العمل العام.

ساعدني مسرح الأحداث على وضع يدي على الكثير من الجراح وأيضاً على الأصيل في تركيب هذا الإنسان. تبدأ الرواية بمشهد في دوار عمدة المنتهى يعود فيه الابن رشدي جريحاً من حرب ١٩٤٨ أثناء الهدنة، وحين يصحو أهل البيت على دخوله المفاجئ يكتشف طه العمدة أن هناك متسللاً دخل إلى البيت في غفلة ليواقع الخادمة روايح وتنمو الرواية متتبعة طبقة أثرياء الريف والفلاحين ومواجهة سلطة الإنجليز من ناحية، وسلطة الهجانة الذين يفرضون حظر

التجوال في القرية من ناحية أخرى. وقد مكنني امتداد زمن الرواية من الوصول للروح الإنسانية المجردة لأبطالها ومن الربط بينهم وبين الواقع الاجتماعي والسياسي. وأنا أرصد محاولات محو الذاكرة التي تتم بدأب للإنسان المصري الذي قدم آلاف الشهداء حتى خارج أرضه، وتخيلت أن هؤلاء الشهداء يزورون المنتهى في شكل سرب عصافير خضراء كل منها له عينا أحد شهداء القرية ليذكروهم بتضحياتهم ويطالبوهم بالثورة.

تتبعت في روايتي «ليس الآن» المكملة لرواية «منتهى» بصورة متصلة ومنفصلة في آن الصراع العربي الإسرائيلي وتأثيره على المجتمع ورفضه للتطبيع مع العدو رغم الضغوط الهائلة لتطويع الإرادة الشعبية. وتكشف الرواية علاقة أهالي قرية المنتهى بالسلطة وردود أفعالهم عما يدور من تزوير للتاريخ وصورة الواقع أيضاً. اخترت بطلاً رفض الرضاع من أمه واشترط الملاك الذي جاء لها في الحلم حتى يعيش الطفل أن ترضعه كل يوم امرأة مختلفة من نساء القرية، فأصبح ابن الجميع.

تحرك أبطالي على المستوى المكاني بين سيناء التي يجري بها الصراع لتحرير الأرض، والقرية التي يحتدم فيها الصراع حول عالم الاستهلاك الذي أوجده الانفتاح الاقتصادي. ويلجأ بطلي اللواء محمود المصيلحي ابن عمدة المنتهى العائد من حادث مدبّر أفقده الذاكرة بسبب اعتراضه على التطبيع، ومن خلالها نتعرف على موقفه وموقف القرية من الكثير من القضايا المطروحة على المستوى الاجتماعي والثقافي. ويمثل محمود بحالته هذه محاولة لاستعادة الأمة لذاكرتها وتاريخها وبطلها الذي بإصابته لا يستطيع قيادتها الآن.

بلاد الأسرار

في روايتي «امرأة ما» أردت أن أكتب عن احتراق الداخل من فزع المعرفة بحقيقة الخواء من عدم التحقق الإنساني والاكتمال، ورأيت أن في الحب وحده كما الموت تظهر الحقيقة ناصعة. لهذا اخترت للتعبير عن فكرتي قصة حب محرمة بين رجل متزوج وامرأة متزوجة يكتشفان من خلالها أنهما يعرفان

الشهوة العارمة للحياة للمرة الأولى، ويصران على الوصول إلى التحقق الإنساني المستحيل، لكن كيف يتخليان عن مسؤولياتهما التي صنعاها قبل أن يلتقيا؟ يخيرهما المجتمع بين أمرين: إما الإذعان لقوانينه الصارمة أو التمرد والنبذ وبالتالي عدم تحقق الهوية. لتظهر لنا حالة الانفصام التي يعاني منها المثقف العربي بين رغباته الحقيقية غير المعلنة وإمكانيات تحقيقها.

يطرح البطلان ناهد وعمر الأسئلة الشائكة التي يتواطأ المجتمع على السكوت عنها، فتنكشف ازدواجية الإنسان بين العلني الاجتماعي والسري الذاتي، والعجز عن التوحيد بينهما، حتى بالعودة إلى جذور هذه المشكلات ومحاولة حلها، ليصبح الانقسام على الذات هو قانون الوجود الذي يفرضه المجتمع على أفراده في سعيهم الدائب لجعل الحياة ذات معنى، بشرط وحيد الإبقاء على سرية السري، والمحافظة الشكلية على العلني الاجتماعي.

فهل تبقى الازدواجية في الخاص وحده؟

لا... يمتد الخاص جداً إلى العام حين تضرب العراق باليورانيوم المنضب ولا يستطيع بطل الرواية الصحفي عمر مأمون أن يكتب مقالاً يستخدم فيه ما وصل إليه من معلومات كاملة، فيلجأ إلى ترجمة مقال للصحفي الإنجليزي روبرت فيسك وينشر رأيه متخفياً وراء الآخر حتى لا يتعرض للمصادرة. ونتعرف من خلال الرواية على المسكوت عنه الذي يحكم حياتنا ويصيبنا بالعجز لأننا غير قادرين على مواجهته.

اخترت شخصيات تستطيع أن تكون أكثر حرية وأكثر تمرداً وأكثر وعياً في التعامل مع ذواتها ومع مجتمعها، لكنها في ذات الوقت لها قيمها التي تتفق كثيراً مع قيم المجتمع: ناهد عالمة آثار وعمر صحفي وروائي، ماجي عازفة بيانو يونانية إيطالية مولودة في مصر، مصطفى مهندس تعدين. ماضي كل منهم يشير إلى الاستقلال بدرجات مختلفة، وإلى القدرة على التغيير والتأمل واتخاذ المواقف المناسبة، لكن التجربة التي مروا بها أثبتت الكثير من عدم وضوح الرؤيا والالتباس، وعدم قدرتهم على اتخاذ القرار الذي يمس حياة كل منهم، وكشفت عن الخراب الموجود في مؤسسة الزواج التي يحاول أفرادها الحفاظ على المؤسسة الاقتصادية الاجتماعية حتى بالتضحية بالعلاقة الخاصة

لأفرادها وبالحب والتماسك الطبيعي بينهم، وهو ما ينعكس على علاقتهم بالمجتمع الخارجي والعالم المحيط.

واجهت في كتابة هذه الرواية ما يشبه تجربة أبطالها، الكثير من الأسئلة حول ما تعرضت له من تابوهات مقيمة في عقلي ولا تغادره إلا بوعي وصعوبة: تابوهات الجنس والدين والسياسة، وخضت في مياه مظلمة وأنا أتصيد لغة تسمح بكشف مشاعر المرأة والرجل عميقاً دون ابتذال. ولا أنكر أني ترددت أحياناً ولجأت للرمز في أحيان أخرى وللشعر أيضاً للهروب من العيون والأقلام المترصدة، لكني كنت اطمئن نفسي كما فعل عمر بروايته وأجيب على أسئلتي بروح مرحة تتفاءل بالمستقبل قائلة: حتى لو لم أجد في مصر سأجد في بيروت أو في المغرب، ستقبع في الأدراج إلى أن يحين نشرها، ولن أغير منهجي لأخضع للظلام، إذا لم أستطع نشرها هنا سأنشرها في أماكن أخرى.

نشرتُ رواية «امرأة.. ما» أول دار نشر عرضتها عليها وهي دار الهلال، بعد أن نصحت اللجنة الأولى بعدم نشرها حتى لا تواجه الدار مشاكل المصادرة، فأرسلها المسؤول إلى لجنة أخرى أوصت بنشرها على الفور.

ما فاجأني حقيقة هو الفارق الشاسع بين موقف القارئ العادي من الرواية، وموقف القارئ المثقف. إذ أخبرني عدد كبير من المثقفين، والكُتاب بصفة خاصة، بخشيتهم من خلط الأوراق بيني وبين بطلة الرواية وقال لي كل منهم على حدة إنه يفهم دوافعي لكتابتها، لكنه يخشى من مواقف الآخرين، في حين لم يسأل القارئ العادي أي أسئلة من هذا النوع، ولم ينشغل إلا بما أردت قوله بالفعل، وما مسّ حياته، فاحتفى بها احتفاء خاصاً وما زال يدهشني حتى الآن، ذلك أنني فتحت جرحاً كان يبدو لي متقيحاً؛ فإذا به يكشف عن خلل يكاد يودي بالحياة نفسها. لكن لم يتركني النقاد.

هكذا تقع على المرأة الكاتبة ضغوط تزيد على الضغوط التي يواجها الكاتب في معركته مع الحرية، وبالتالي الرقابة الداخلية التي قلما ننجو منها. لكني في النهاية فضحت الازدواجية الأخلاقية والسياسية التي تعشش في المجتمع المعاصر.

إلى بغداد

عشت في مدينة بغداد ما يقرب من ست سنوات، جبت فيها العراق شمالاً وجنوباً ودرست تاريخه وعادات أهله وتقاليدهم، واقتربت من الإنسان الذي عاش على هذه الأرض ولمست أفراحه وانكساراته فأحببته، وظلت روحي معلقة بالمكان وصدري مغلق على ما جرى لهذا المجتمع وما واجه في الفترة التي عشت فيها هناك، وأثبت لي الزمن أن أحداث هذه الفترة هي جذور لكل ما حدث في المنطقة العربية كلها في تسعينات القرن الماضي وعشرية وعشرينية القرن الحالي، التي لا يمكن فهمها إلا بالعودة للواقع العراقي الشامي المصري وعلاقته بالغرب وبالولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، فعدت إليها أكتب تفاصيل ما رأيته هناك ونزلت التفاصيل من ذاكرتي منهمرة كالمطر الذي بدأ به السياب قصيدته الشهيرة أنشودة المطر. «مطر مطر مطر سيعشب العراق بالمطر».

بعد أن لاحظت أن بغداد لا يأتي ذكرها إلا مرتبطاً بالحرب: العراقية الإيرانية، العراقية الكويتية، العراقية الأمريكية، قررت الكتابة عن هذا الإنسان الذي صنع بغداد الحضارة المتراكمة على مر الأزمان سومرية وأكدية وبابلية وآشورية وعربية. رحت أكتب عن الناس ورائحة نهر دجلة وشواء السمك البني على ضفتيه وحشائش السافانا بطول ضفتي الفرات، وعن الأهوار التي تمتد في الحوض الجنوبي للنهرين، والتي شيدت بيوتها من أعواد القصب فتبدو من بعيد كأنها عش طائر خرافي فوق سطح الماء. رحت أبحث عن مرجانة وعلي بابا وقصر هارون الرشيد وزبيدة وزرت العتبات المقدسة وغرقت في تمردات عشتار ونزقها وعرفت أنليل وأنكيدو وجلجامش ونبتة الخلود وعرفت شقائق النعمان فوق جبال الموصل، وأحببت الأكراد وتعاطفت مع مأساتهم التي بلا حل إلا التمسك بالدولة المتعددة الأعراق، وشربت الروائح العراقية كلها حتى باتت تنضح من جلدي.

كتبت عن الغناء وعن الحزن العراقي العميق الذي يحمل هموم التاريخ وذنوبه، والمسرح المأساوي الذي يقام كل عام لتخليد جلد الذات اعترافاً بما اقترف في حق سيدنا الحسين وبيت أهل النبي محمد عليه السلام، وقلبي معلق بأم وحبيبة تنتظر عودة ابنها وحبيبها إلى البيت، ثم عجنت هذا كله في رواية

بعنوان «مطر على بغداد» قدمت فيها شخصيات مصرية وعراقية وفلسطينية ومناضلين منفيين عرب من كل البلاد، هاربين من قمع السلطات التي تتشدق بالحرية والديمقراطية في بلادهم إلى منفى تصوروا أنه أكثر حرية وديمقراطية في فترة من أكثر فترات بغداد الحديثة ازدهاراً وتقلباً، مجتمع يتغير مستعيناً بثروة قوامها البترول وعناصر أخرى، وتقوم نهضته بمساعدة سواعد العمال والفلاحين المصريين حتى وصل عدد العاملين المصريين بعد عام ١٩٧٥ إلى خمسة ملايين عامل في وقت كان تعدد العراق لا يزيد على ستة عشرة مليون مواطن. اخترت بطلة مصرية وأخرى عراقية تعملان في مكتب مجلة الزهرة المصرية الذي يديره صحفي مصري مخضرم.

تبدأ الرواية بسؤال أين اختفت أنهار خيون ولماذا؟ أنهار هي صحفية عراقية شيعية عضوة الحزب الشيوعي، ويلهث القارئ وراء مغزى اختفائها وكذلك زملاؤها في وكالة الأنباء وحلمي أمين مدير المكتب، وتحاول زميلتها نورا سليمان أن تفهم كيف خدعت بما رأته حين وصولها إلى بغداد لأول مرة، كيف خطف عينيها بريق الحكم لجبهة من خمسة أحزاب وفائض ميزان المدفوعات والمصانع والمزارع والمدارس التي تبنى في كل مكان، وكيف اندفعت لتتابع انتصارات هذا المجتمع حتى تكشفت لها الحقيقة ذات نهار في مشهد إعدام، إذ يقوم أعضاء كل مستوى تنظيمي بقتل المتهم من نفس المستوى الحزبي بعد إلقائه من سيارة نقلت الخونة بتعبيرهم إلى الاستاد الرياضي، الذي يجري فيه تنفيذ الإعدام بعد أن وضع كل منهم في جوال من اللون الأحمر.

رسمت شخصية أنهار خيون الصحفية العراقية، القادمة من الجنوب مع أسرتها هرباً من جحيم تعامل العائلة مع أمها الفصلية، والفصلية هي المرأة التي تتزوج من عائلة قتيل قام أخوها أو ابن عمها أو واحد من عشيرتها بقتله حتى تنجب صبياً بديلاً للقتيل ثم تعود إلى أهلها بعد أن أدت ما عليها من واجب. ورغم نبل الغاية لحل المشكلة بدلاً من سلسلة الثأر الأعمى، يضرب المثل بالمرأة الفصلية في التعرض للإهانة والظلم حتى تقول المرأة دفاعاً عن نفسها: ليش أني فصلية؟

هكذا تجد أم أنهار نفسها في بيت أهل القتيل يسومونها العذاب حتى تنجب الولد، لكنها حين تنجبه يختار زوجها أن ينتقل بها وبأولاده إلى بغداد، فتنشأ أنهار متحدية المجتمع وتقاليده الظالمة وتدافع بشراسة عن حريتها وحرية أفراد المجتمع كلهم، وتنضم إلى المعارضة فتختفي في فترة قرر فيها صدام حسين ضرب الحزب الشيوعي العراقي، واختفى البعض داخل العراق وهرب البعض إلى المنافي.

تطرح الرواية كثيراً من النماذج التي تنهار بالغربة والمنفى، فتتملق السلطة التي تعيش تحت كنفها وتضيع القضية فيصبح الفلسطيني الذي يعيش في سوريا له أجندة مختلفة عن أجندة الفلسطيني الذي يعيش في العراق أو ليبيا، وتتسرب الأسرار في المكتب الذي تحول إلى واحة في هجير التفكك والغربة. ونتابع في الرواية حياة المنفيين وإدراكهم لحقيقة الأوضاع التي لا تختلف كثيراً عما تركوه في بلادهم فيبدأ البعض البحث عن مكان في الهجير الأوروبي والأمريكي لمن استطاع.

ومع نمو الكتابة فرض الصراع العربي الإسرائيلي نفسه على حياة الشخصيات بزيارة السادات للقدس، وفرضت الحرب العراقية الإيرانية نفسها لتجعلني أتساءل مع القارئ عن جذور الصراع العربي الفارسي. ورصدت الرواية انعكاس هذه الأحداث التي بدت لي متشابهة حد التطابق بين أرجاء العالم العربي على حياتنا، والتي امتدت لتفسر ما يحدث بضرب المفاعل النووي العراقي وبداية عصر جديد للفجور الاستعماري واختلاط الحق بالباطل ووضع المواطن بين مطرقة الديكتاتور وسندان الاستعمار الأمريكي، وهو ما يجبر الإنسان البسيط على الدفاع عن الديكتاتور باعتباره دفاعاً عن الوطن، ورحت أغني مع الناس أغنية حب للحياة وللمقاومة. العجيب أني قابلت من أقسم لي أنه يعرف أنهار خيون شخصياً ويعرف عائلتها وعشيرتها، ويعرف إلى أين هربت. على الرغم من أن الشخصية من نسج خيالي ومعرفتي بالمجتمع وما يمور به من أحداث وأسرار.

تابعت خلال أعمالي الروائية بعد ذلك نتائج عدم قبول الآخر وإخفاء قدراته ومميزاته وتحويل كل ما يخصه إلى شر مطلق، وهو ما أدى إلى انقسام المجتمعات إلى مع أو ضد، وعدم قدرة الناس في كل المجالات على تعلم التعامل مع الآخر المختلف، وينطبق هذا بالتالي على الاختلاف الاجتماعي والاقتصادي.

بعد أزمة الربيع العربي قدمت عملين، الأول هو «مدن السور» والثاني «نساء في بيتي». سألت نفسي ذات يوم: ما هو القادم؟ ماذا سيحدث في المستقبل؟ وكيف سيكون شكل الصراع؟ وهل ستبقى هذه القوى المستبدة مستمرة في طغيانها تتحكم في مقدرات الشعوب؟ طرحت هذه الأسئلة وأنا غاضبة من نتائج ما حدث لثورات الربيع العربي، وكيف وصلت أحلامنا إلى سقف السماء السابعة، ثم طردتنا كل السماوات بضحكات شيطانية تسخر من رغبتنا في المقاومة ومن أوهامنا عن التغيير. توقفت لسنوات عن كتابة الأدب، وانشغلت بمتابعة العمل الصحفي وبمسؤولياته وترصد التغييرات التي تتم على الساحة المصرية والعربية والدولية، وأنا أحاول أن أفهم ما جرى، ورحت أدون عدة مشاريع روائية لم أجرؤ على تنفيذ أحدها، ثم جاءت لحظة قررت فيها التخلي عن العمل الصحفي برمته والتفرغ لكتابة رواية أسميتها بيني وبين نفسي «رواية الغضب» بعد أن تمكنت من السيطرة عليه، حتى لا تصبح الرواية منشوراً سياسياً يقذف بالحمم في وجه الجميع ويصيبني أولاً قبل أن يصيب القارئ، الذي لم يدافع بما يكفي عن ثورته وخدع بصورة هزلية.

رواية الغضب

طرحت السؤال عن القادم في المستقبل البعيد، وتساءلت كيف سيرون ما حدث في زماننا؟ وبنيت عالماً لم أحدد مكانه أو زمانه يشمل العالم كله، ينقسم فيه المجتمع إلى طبقتين: الفوقيين والبدائيين، وفي المنتصف تقف طبقة ثالثة حائرة غير معترف بها أسميتها البزرميط. الفوقيون هم البشر الذين تطوروا بالهندسة الوراثية، وامتلكوا مميزات أعلى للذكاء والقدرة البدنية، والاستمرار في الحياة لمدة أطول تزيد على ثلاثمائة وخمسين سنة. بالطبع لن يخفى على أحد أنهم هم من كانوا يمتلكون المال والنفوذ في فترة التحول. أما

البدائيون فهم البشر الذين لم يستطيعوا دفع نفقات الهندسة الوراثية والتطور الجيني واكتساب مهارات أعلى فبقوا على حالهم، ثم أدركوا ميزة النقاء الطبيعي للعنصر البشري وانحازوا لها، وتحولوا مع الوقت إلى كائنات ضعيفة بالمقارنة بالفوقيين الذين تمكنوا من السيطرة عليهم. وكلما مر الوقت ازدادت الهوة بين الطبقتين وأصبح من المستحيل سد هذه الفجوة، ليس بسبب التغير الجيني وحده، ولكن بسبب قدرتهم على تطوير أنواع من العلوم لا يستطيع البدائيون الوصول إليها من ناحية، وغير متاحة لهم نتائجها من ناحية ثانية. إضافة إلى عجز قدرتهم المالية عن تطوير مثل هذه العلوم ووقوف السلطات حائلاً دونها من ناحية أخرى، حتى تتزايد الهيمنة بمناهج أكثر فاعلية.

عادت العبودية إلى المجتمعات بصيغة مختلفة هذه المرة إلا فيما يتعلق بالفن والحب، فلم يستطع الفوقيون إلا إنتاج قوالباً وأنماطاً تشبه بعضها، جامدة بلا حياة لا يوجد بها طفرات الجنون وشطحاته الملازمة للفن الراقي، واكتفوا بترك هذا المجال للبدائيين.

عرف الفوقيون الحب بصيغة عملية طوروا فيها مشاعر الوصول للانتشاء، مدركين أنهم ليسوا في حاجة له لاستمرار النوع الذي يتم في المعامل لاختيار نوع التفوق الجيني لأبنائهم، في حين تمسك البدائيون بالمشاعر الطبيعية التي لم تنقرض.

البزرميط مستوى ثالث من البشر عرفته هذه المجتمعات، وهي كلمة استعرتها من مربي الحمام ومعناها الحمامة المختلطة الأصول. هؤلاء هم البشر الذين حاولوا التحول إلى فوقيين وفشلوا، ولم يعودوا أنقياء وتم قهرهم ورفض الاعتراف بهم من الطرفين.

تتبعت في هذا المجتمع رحلة المقاومة من خلال قصة حب تدور بين شابين من العلماء البدائيين هما ميرا وآدم وزملائهما في مبنى الحياة، الذي يضم في باطنه تحت الأرض مركز جماعة القبو السرية الثورية المعارضة لحكم الفوقيين عبر الأزمان، وهو ما أتاح للقارئ التعرف على الأبحاث الجديدة التي تعيد قراءة

تاريخ الاستعباد، وتضع يدها على أسباب فشل الثورات وصولاً إلى الربيع العربي، مستخدمين في هذا التطور العلمي الطبيعي الذي وصلت إليه المجتمعات كلها فوقيين وبدائيين، والذي يوصلهم إلى ثغرات عرفوا منها كيف استطاع الفوقيون استخدام العلم لخدمة أغراضهم واستعباد البدائيين. واكتشفوا أن الفوقيين قد وضعوا معادلة تحدد عدد البدائيين المسموح لهم بالاستمرار في الحياة، لهذا حددوا لهم سناً يقدمون فيه قصة حياتهم ثم يموتون حتى لا يختل التوازن على الكوكب بين عدد البشر والموارد الغذائية المتاحة على الكوكب. وهو ما يدفع البدائيين في لحظة ما إلى الانتحار الجماعي فيما يسمونه مسيرة التطهر، من أجل إعطاء الأجيال الجديدة فرصة الحياة بصورة أفضل، وتستخدم السلطات الإعلام لبث أفكار تشجع الانتحار والتضحية وتلح عليها أثناء النوم.

يواجه علماء القبو هذه الأساليب بالتدريب على حماية العقول من النفاذ إليها وغزوها أثناء النوم، ومقاومة الشركات التي تنتج برامجاً بحجة أنها تعليمية لعمل سيطرة كاملة على عقل الإنسان، الذي تحول إلى صندوق من الزجاج يمكن قراءته والتدخل في تغيير ما يمور به من عمليات تفكير، وحين يكتشف شباب الباحثين الجين المتحكم في الانتحار، فهم يكتشفون أيضاً أن بعض قادتهم كانوا على علم به منذ البداية. وتزداد الخطورة على حياتهم بفك شفرة معلومات تثبت أن قرار الانتحار الجماعي هذا لم يكن الأول بل تم إخفاء حدوثه تاريخياً عدة مرات من قبل، وأنه ليس قراراً بإرادة البدائيين الحرة بل هو نتاج التحكم في جين يدفع البشر لهذا الانتحار، للتخلص من الأعداد الزائدة من البدائيين وحدهم. في الوقت الذي يتصور فيه البدائي وهو يثور على السلطة وعلى الهيمنة أنه ينفذ مشيئته، في حين هو ينفذ الجدول الموضوع له بإحكام من الفوقيين، مستخدمين أساليب القمع والرقابة والتفتيش في العقول وقراءة الأفكار ومحاسبة الناس عليها قبل أن ينفذوها.

تتحرك الرواية على صعيد عدة أزمنة، فالحاضر الذي هو مستقبل الماضي يصبح ماضياً لمستقبل آخر، تتسع العيون لتراقب زمناً تراقبه عيون في زمن لاحق، فعيون في زمن أبعد بلا نهاية. اخترت عدة نهايات أو عدة

سيناريوهات للنهاية، لأنه لا يمكن التنبؤ بالنتائج في المستقبل بشكل قطعي. في إحدى هذه النهايات أمل أن تنتصر المقاومة، وفي نهاية أخرى أمل أن يحتفظ الجنس البشري الذي تفوق بالهندسة الوراثية بدرجة ما من المشاعر، تجعله يحاسب نفسه عما اقترِف في حق نفسه، يظهر هذا وهُم يحللون دوافع الإنسان البدائي. وتبقى النهايات مفتوحة على قدرة البشر على المقاومة والاستفادة من تجاربه عبر التاريخ، وقدرته على التطور بما يسمح للبشر أجمعين بالانتقال إلى عالم آخر أكثر عدلاً معاً.

دعوة حارة

في روايتي «نساء في بيتي» وجهت دعوة لزيارتي إلى ثلاثة من المبدعات من بلاد مختلفة وبيئات ثقافية مختلفة وأزمنة مختلفة لنلتقي معاً حول فنجان من الشاي وكيك. لي مع كل واحدة منهن قصة طويلة: على الحائط لوحة ضخمة رسمتها جورجيا أوكيف أم الحداثة الأمريكية التي حاصرها حبيبها بخياناته، فهربت إلى الصحراء لترسم حتى رحلت عام ١٩٨٦. في مكتبي رسالة ماجستير تجمعني بالشاعرة والروائية النمساوية انجيورج باخمن التي ماتت محترقة عام ١٩٧٢ عن عمر يناهز ٤٧ عاماً في كوخها بإيطاليا، وفي المكتبة أيضاً روايات للكاتبة المصرية قوت القلوب الدمرداشية التي انقلبت حياتها من أميرة إلى امرأة مطاردة بسبب تحدي حبيبها لعبد الناصر، وماتت مقتولة على يد ابنها في روما عام ١٩٨٦. يأتين مضمخات برغبة قوية في الحكي. يأتي معهن عشاقهن، وأصدقاؤهن، وأزواجهن فتختلط حياتهن بحياتي ويصبحون من أقرب أصدقائي.

ذات ليلة فاجأتني ناهد بطلة قصتي «امرأة ما» بتوجيه الدعوة إلى «أنّا» بطلة رواية «مالينا» لباخمان، ورمزة بطلة رواية «ابنة الحريم» للكاتبة قوت القلوب لزيارتها منفردات، ثم دعوتهن للانضمام إلينا في سهراتنا فجئن سعيدات وتجرأن وحاكمننا أيضاً، وكونّا عالماً واحداً فريداً ليصبح السؤال فيه ذا معنى عما جمعنا معاً.

تأتي جورجيا أوكيف مع حبيبها وزوجها المصور الأمريكي الفريد ستيجلتز، الذي حول مهنة التصوير إلى فن وفتح جاليري لتقديم الفنانين الحداثيين إلى العالم كله، من بيكاسو إلى رودان إلى أوكيف وغيرهم، في وقت رفضهم فيه الجمهور. تحكي لنا قصة طويلة عن محاولات تقزيمها ووضعها في خانة الأنثى رغم أنه كان يقول إنها بيكاسو الأنثى، لتثبت بمرور الأيام وهي في ثمانينات عمرها أنها أم الحداثة الأمريكية، تعاني من قهره العاطفي ومن المساس بسمعتها بعد وفاته، لكنها لا تبالي وتصر على الوصول لهدفها.

مع باخمن يأتي الكاتب السويسري الشهير ماكس فريش الذي قدم للإنسان الألماني الأمل في تغييرات حياته بعد هزيمة النازية، يحكيان حكايتهما التي انتهت بتردد باخمان الشاعرة الكبيرة على المستشفيات العصبية لسنوات انتهت بقتلها أو انتحارها. كانت تحب الليل وتسهر في الشوارع حتى الصباح. تحيا الحالة قبل أن تكتبها وكان يحب النظام يستيقظ وقت عودتها. تركها لفتاة صغيرة فدمرها ولم يعرف أن قلقها هو قلق الروح التي تحمل ذنوب البشر تنوء بها وتهرب إلى الليل والخمر لتنسى ما فعله الإنسان بأخيه.

وأتى معها أيضاً الشاعر المجري الشهير باول سيلان حب حياتها المتأجج بالنار. نار داخلية تلتهم روح سيلان بسبب سجنه في معسكرات التعذيب وقتل والديه. نار دمرت قدرة هذا الحب على الصمود فقد كانا يحملان ذنوب السنوات الأكلح في التاريخ. انفصلا ولم يستطع أحدهما النسيان.

تأتي قوت القلوب بصحبة محمود أبو الفتح صاحب جريدة المصري، الذي صبغ حياتها صبغة مأساوية حين اعترض على غياب البرلمان وإلغاء الأحزاب وحكم عليه عبد الناصر بالنفي وجرده من جنسيته ودفعت هي الثمن. تحكي حياتها التي عاشتها تحت مئذنة في بيت الشيخ عبد الرحيم الدمرداش وسط عالم الحريم، وتمتعت بثقافة أصولية صوفية وفق ميراث عائلي مع مربية فرنسية نقلت لها عدوى الحرية والخروج إلى العالم وأكسبتها ثقافة رفيعة، والأب الشيخ الذي لم ينجب غير بنتين عاملها كابن لكنه لم يستطع أن يترك لها حرية الزواج، فتزوجت وتمردت وتركت الزواج إلى الأبد، حتى قابلت رجلاً

أحبته ورفض الزواج منها وظلت معه حتى مات وكفنته بنفسها ودفنته في تونس، ثم اختفت بقدرة قادر من خريطة الأدب العربي رغم أن صالونها هو الذي أعطى الجائزة الأولى لنجيب محفوظ وتم تهميشها عن عمد.

تستعرض المجموعة كلها حيواتهم ومواقفهم من العالم بما فيهم هالة البدري صاحبة الدعوة فيختلط الماضي بالحاضر بالمستقبل. ونكتشف أن أزمة الإنسان في كل زمان ومكان هي واحدة: السعي الدائب نحو الحرية والحب والبحث عن السعادة.

ومع تطور التقارب تعرف المبدعات الأربع أنهن عانين جميعهن من نفس المشكلات مع مجتمعاتهن، أي أن الأزمة واحدة على عكس ما نعرفه من تعامل المجتمع الغربي مع المرأة. والذي نعرفه ظاهرياً كما أوضحت حياة كل من أولئك النسوة ونرفضه ونحاكمه أخلاقياً لأننا لا نعرف بالفعل ظروفهن.

في القصص القصيرة

في قصصي القصيرة أبطالي في حالة اختيار، يمرون بلحظة ساخنة والحديث عنهم يطول، لكن اللافت لنظري أن موضوع العلاقة مع السلطة هو موضوع جوهري في قصصي والتي كانت تحاول اكتشاف أعماق البشر في لحظات التحول. وتصورت أن هذه العلاقة تشبه العلاقة بين القاتل والضحية، وأن هناك مسافة يقطعها كل منهما نحو لحظة القتل، ولاحظت أنني أصور القتيل في عدة قصص وهو يقطع أكثر من خمسين بالمائة من هذه المسافة نحو حتفه. هل كان هذا الاستخدام للرمز بسبب تاريخ المحظور السياسي؟ لا أظن، لأن ما كان يشغلني وقتها هو فنية تقديم الفكرة، لكن العلاقة مع السلطة لم تكن وحدها المهيمنة، كانت العلاقة بالآخر حاضرة بقوة في مجموعاتي الأربع: رقصة الشمس والغيم، أجنحة الحصان، قصر النملة، ومدارات البراءة.

تختلط أحلام أبطالي سواء في الرواية أو القصة القصيرة بالواقع المعاش وتتأثر حياتهم بكل ما يمر بهم من تغيرات على مستوى الأصعدة جميعاً، ليس في بلادهم وحدها وإنما بالعالم أجمع.

خاص جداً

ساعدني عملي الصحفي على الوصول للناس في القرى والنجوع والاقتراب من مشاكلهم والاحتكاك بالعديد من المجتمعات في أنحاء متفرقة من العالم، وكنت كلما زرت دولة جديدة درستها لأتمكن من التعامل مع ثقافتها، وذهبت إليها في شوق حقيقي لمعرفة فلسفات الشعوب المتنوعة وتاريخهم وقيمهم الاجتماعية. زادني هذا الانفتاح استمتاعاً بالتنوع الهائل للطبيعة وللبشر، أدين لهذا التنوع بالشغف؛ بالحياة والرغبة الحقيقية في نقلها للآخرين. أنا ابنة الحركة الواسعة والسفر والصداقات العميقة مع الناس من مختلف الطبقات الاجتماعية والثقافية في شتى أنحاء الأرض.

بداية أتصور أن قيمة أي إنسان (كاتب) هي في إيمانه الحقيقي بحريته، ومن حسن الحظ أن الضغط على الكاتب يمثل تحدياً يجعله يبتكر أشكالاً تعبيرية غير مباشرة لتوصيل أفكاره للناس، ومن الطبيعي أنني حين صدقت أن الكتابة هي طريقي الوحيد للحياة، أنني كنت قد استوعبت تاريخ العلاقة بين الكتّاب والمفكرين والسلطة، أي سلطة من حرق أعمال ابن رشد إلى محاكم التفتيش، ومن مدام بوفاري إلى د. زيفاجو، ومن قانون محاربة الشيوعية إلى هروب كُتّاب الكتلة الشرقية إلى الغرب. وكنت قد بدأت حياتي الصحفية والأدبية في مؤسسة روز اليوسف التي قضى معظم كُتابها سنوات طويلة في سجون عبدالناصر، وكان الرقيب يعيش معنا في الصحيفة ويوقع على كل ورقة قبل الطبع، في حين تمتعت الكتابة الأدبية والأعمال الفنية بحرية كبيرة وبجرأة لمناقشة العلاقة مع السلطة، وكان من النادر أن نسمع آنذاك عن مصادرة رواية أو فيلم في مصر.

لهذا كله أدين للعالم الواسع الذي تعلمت منه قبول الاختلاف والدفاع عن المختلف عني بكل ما كتبت وما أحاول أن أنجزه.

شــهادات ورؤى

الروائي الفلسطيني يحيى يخلف*

لا نستطيع أن نتحدث عن التحولات في الواقع العربي والمشهد الراهن دون أن نستحضر مشروع النهضة العربية، الذي انطلق منذ غزوة نابليون والتقاء الشرق بالغرب، وانطلاق مشروع النهضة من خلال مفكرين ومبدعين وإصلاحيين من مصر وبلاد الشام وبعض دول المغرب العربي، شمل الدعوة إلى الحكم الرشيد، والإصلاح الديني، ومواجهة الاستعمار والتحرر، والدعوة إلى الديموقراطية في مواجهة الاستبداد، والتعددية في مواجهة الأحادية، وسائر القضايا التي تعمّق الفكر التنويري.

سيرورة تاريخية امتدت أكثر من قرن من الزمن دون أن يثمر هذا المشروع عن تحقيق أهدافه، بل إنّ كثيراً من المتابعين وصلوا الى استنتاج أن مشروع النهضة انتهى بهزيمة حزيران، وانتهى بوفاة عبد الناصر، وكذلك النتائج التي أسفرت عما أسميناه الربيع العربي.

لكن ثقافة النهضة ومساهمات أجيال وأجيال من المفكرين والمبدعين الذين رفعوا عالياً بطولة القيم لم تهزم، الثقافة العربية لم تتنازل عن شروطها وعن محتواها، فلقد كانت وما زالت ضوءً في نهاية النفق، وخارطة طريق للجماهير العربية في مواصلة السير على دروب الحرية والعدالة والتنوير. الثقافة العربية ما زالت تحمي الهوية العربية، وما زالت تحرس حدائق الفكرة، وتحرس بساتين الأحلام. وهناك قول للكاتب والناقد الراحل رجاء النقّاش يقول فيه إن الجامعة العربية ليست هي المبنى الكائن على الضفة الشرقية لنهر النيل، وإنما الثقافة العربية هي جامعة الدول العربية.

---

* وزير الثقافة الفلسطيني (سابقاً).

والإبداع العربي ما زال يواصل مسيرته التنويرية والجمالية في مواجهة الوضع العربي المتردي بعناد دون أن يستسلم. وأستطيع أن أؤكد في هذا السياق أن الإبداع الثقافي الفلسطيني ينمو ويتطوّر وينجز في أجواء التحدي والصمود على الرغم من شراسة الاحتلال والتطبيع من ذوي القربى. والمتحدث إليكم روائي فلسطيني يواصل مشروعه الروائي من مواقع الصمود ومن إيمانه بعدالة قضيته ودوره في حماية الهوية وتعميق المجرى الكفاحي للشعب الفلسطيني، وتوطيد روايتنا العربية الفلسطينية في مواجهة الرواية الصهيونية التوراتية الخرافية وذلك بأعمال روائية تتوفر بها عناصر فنية عالية.

غمس المبدع الفلسطيني في مجالات الآداب والفنون ريشته بمداد القضية الفلسطينية وعزّز ثقافة الحرية، وأوجد ظاهرة في الأدب العربي هي ظاهرة أدب المقاومة، وتواصل مع محيطه القومي، وكان له حضور في المشهد الثقافي العربي، وأكّد التزامه بقضايا أمّته، ومازال يسهم في الحوار ويشارك في الندوات التي تعقد عبر وسائل التواصل الرقمية. وهو- أي المثقف الفلسطيني - يؤمن بأن المثقفين العرب على امتداد الوطن العربي هم جامعة الدول العربية وليس ذلك المبنى الكائن على ضفة نهر النيل.

الروائية الليبية رزان نعيم المغربي

أدّت ثورات الربيع العربي وما تبعها من أحداث وتحوّلات خلال العقد الماضي إلى خلخلة الواقع العربي، ودفعتنا لإعادة النظر في موقف المثقفين العرب ونظرتهم وإنتاجهم. حيث لم يكن المثقفون العرب كتلة واحدة ولم يتخذوا موقفاً واحداً أثناء هذه الثورات، بل كانت رؤاهم متباينة كما انعكس في نتاجهم وإصداراتهم. مثال ذلك الأعمال الإبداعية الصادرة بعد انهيار النظام السابق في ليبيا، التي نقضت التوقعات بالكتابة عن النظام السابق ورئيسه، حيث توجّهت هذه الأعمال إلى فترة عائمة في التاريخ، لم تكن المواقف تجاهها واضحة، مبتعدة بذلك عن الوذع الراهن وما نتج عنه من عنف في ليبيا، والتي لا تزال إلى اليوم تعاني منه ومن الحروب الناجمة عنه.

وأنا أجد أنّ نتاج الكُتّاب الليبيين اليوم بات أقرب لواقعهم ورؤيتهم الحقيقية. فعندما الاطلاع على أعمال الكُتّاب الغربيين في فترتي الحرب العالمية الأولى والثانية، نجد أن معظم كتاباتهم ابتعدت عن التسجيل الفجّ المباشر للواقع، عكس أعمال بعض الكُتّاب العرب اليوم، الذين سجلوا الواقع الحالي بعنف وقتل ودمار كأن النشرة الإخبارية تركّزت في رواية. إن تسجيل الواقع غير مطلوب من المبدعين، فما أبحث عنه في الرواية هو تأثّر الإنسان وجدانياً بواقعه الأليم القاسي.

لم أجد خلال العشر سنوات الماضية رؤى واضحة للمثقف العربي، وبالذات في العمق الإنساني. وذلك يحدّ من دوره المتمثل في التأثير، ولا يتمكّن المثقف من التأثير إلا عبر تناول العمق الإنساني في أعماله ورؤيته، في مقاله وتقديمه، في الرسم التشكيلي والفنون الأخرى، وحتى في الصورة التي تطغى اليوم على كل شيء. فإذا لم يكن دور المثقف فاعلاً عن طريق التأثير، فإنه يصبح نخبوياً، يخاطب النخبة فقط.

المثقفون العرب مسؤولون عن كيفية صياغة الواقع وكيفية تقديمه للمتلقي، خاصة من بعد الربيع العربي الذي أعاد صياغة العديد من المفاهيم المحورية. إذ تخلّى جيل اليوم عن الأطر التي وضعها المبدع العربي في صياغة مفاهيم الوطن والهوية والانتماء خلال القرن الماضي، بل وقام بتكسير هذه الأطر وتشتيتها إلى مفاهيم أخرى، كما يتضح في نتاج الشباب ورؤيتهم الجديدة. تناول الروائيون العرب في كتاباتهم سابقاً العديد من القضايا الوطنية كالقضية الفلسطينية والاحتلال الصهيوني، لكن هل تنال هذه القضايا اهتماماً من الشباب اليوم؟ مع تغير نظرة الجيل الحالي حتى تجاه وطنه، خاصة في ظل العولمة، بات من اللازم على المثقف أن يواجه هذه التغيرات في أعماله الإبداعية، وأن يواكب المواطن القارئ العادي، مراعياً الفروقات بين نتاج كُتّاب الأجيال السابقة وكُتّاب اليوم التي تُشبِع الفروقات بين فكر الأجيال السابقة وفكر الجيل الحالي. ينبغي علينا الإنتاج والتأثير عبر التقنيات التي نمتلكها في هذا العصر، من أجل ألا نُهزَم في المعركة الفكرية، التي سنخسرها بتأكيد في حال الوقوف عند الشعارات وعدم مواكبة الأحداث الراهنة بشكل واقعي وبفهم جديد.

الروائية التونسية آمال مختار

أعتقد أن بداية الثورة التونسية لم تكن عام ٢٠١١ ، والتي كانت أشبه بالهزّة، بل إن الثورة الحقيقية هي التي قام بها الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة بعد الاستقلال. فمع قيامه ببناء دولة الاستقلال شهدنا منها الأسس الرئيسية والضرورية لبناء أية ديمقراطية وهي: التعليم، وحقوق المرأة، والصحة. وقد نجحت التجربة التونيسية في هذه الأسس، وتواصل نجاحها مع الرئيس زين العابدين بن علي الذي واصل بناء دولة الاستقلال، وبذلك كان النموذج التونسي مميزاً بين الدول العربية. أما نقطة التحول الحاسمة فهي الأحداث التي تبعت ثورات الربيع العربي، والتي أعتقد بأنها – أي الثورات – جزء من مؤامرة كبيرة على الأوطان العربية، مخطط لها من قبل الكيان الصهيوني مع التعاون الأمريكي من أجل أهداف تخدم مصالحهم.

وكان المثقف التونسي على الرغم من الظروف السياسية في بعض المراحل يقدّم الأنشطة الثقافية وينتج نتاجاً ثقافياً إبداعياً يشهد له التاريخ التونسي. لكن على الرغم من ذلك، أفقدتنا العولمة والثورة التكنولوجية هويتنا، وحصرت الشعوب العربية في إطار وشكل واحد، بل وكسرت كل أشكال الثقافة التي تحترم الأمثال والأخلاق التي اعتدنا عليها. فانعدم دور المثقف العربي في ظل الثورة التكنولوجية العارمة، وأصبح من الصعب أن يكون أحد المثقفين العرب رمزاً لهم، واسماً ونموذجاً يحتذي به الشباب ويقدّرونه، كما كان الحال قبل الثورة التكنولوجية. وانحصر دور المثقف حالياً خلال جائحة فيروس كورونا بكتابة التاريخ مرجعاً مستقبلياً، مع استبعاد أن يكون فاعلاً في الوقت الراهن.

في عصر الثورة التكنولوجية أصبح كل مَن يمتلك هاتفاً صحفياً، وأصبح كل من يكتب نصاً على مواقع التواصل الاجتماعي كاتباً. فتنتشر هذه المواد عن طريق الإنترنت بدون أية رقابة أو تحكم بمحتواها، فبات بعضها موجّهاً لصالح الوعي العربي وخدمة الوطن، وبعضه الآخر موجّهاً لهدمه. وما هذه الثورة إلا جزء آخر من مخطط السيطرة على العالم العربي للثروات الموجودة فيه، ولتدمير القضية الفلسطينية، التي يحملها العالم العربي باعتبارها قضية شرف وكرامة وانتماء، ولتسيير العرب كالقطيع بزرّ من أزرار العالم الغربي، لاغياً بذلك هوية العرب ومهمّشاً لدور المثقفين منهم.

تعقيب
للإعلاميّة المصرية شيرين نبيل *

تغير العالم كثيراً خلال العشر سنوات الأخيرة منذ الثورات العربية وحتى الآن، والتي لا أحبّذ تسميتها بثورات الربيع العربي، ومروراً بكل الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي حدثت في المجتمعات العربية، وانتهاءً بجائحة كورونا التي أصابت العالم بأسره والتي ما زلنا نعاني من آثارها حتى الآن. نجد أن دور المثقفين العرب يحكمه في المقام الأول المتغيرات السياسية التي تحدث ببلده خاصة وبوطنه العربي بوجه عام وفي محيطه الإقليمي.

والإعلام ما هو إلا انعكاس سياسات وتوجهات الحكومات والدول، فالمثقف العربي لا يستطيع التعبير عن رأيه في حرية كاملة وحيادية تامة في ظل الظروف الراهنة التي تسود المجتمعات العربية، بالتالي المثقف محكوم باتجاهات وسياسات حكومته ودولته، وقلّما استطاع المثقف العربي أن يكون مؤثراً في واقعه ومجتمعه بسبب هذه الظروف التي تمر بها بلداننا العربية.

أما بالنسبة للشباب، ومع كل هذا الانفتاح الإعلامي ووسائل التواصل الاجتماعي وما يُسمّى بالإعلام الجديد، إلا أن هناك فرقاً كبيراً جداً بين ما يطلبه الشباب وبين ما يُقدَّم لهم على الساحات والمنابر الإعلامية المتعددة، ولذلك يلجأ في معظم الأحيان إلى الإعلام الجديد عوضاً عن الإعلام التقليدي (صحافة – إذاعة – تيليفزيون) بكل ما به من إيجابيات وسلبيات.

تنحصر احتياجات معظم الشباب من الإنترنت فيما لا يبني شباباً ومجتمعات مثقفة ذات هوية محددة وواضحة المعالم، لذا فإن الشباب العربي يعاني من فقدانٍ الهوية و تأثره بالغرب، ناهيك عن الكساد الاقتصادي والبطالة ، خاصة مع التحولات التي شهدناها في العشر سنوات الماضية. ثم جاءت جائحة كورونا فزادت الطين بلّة، فقلّت فرص العمل وأصبح التعليم عن بُعد في المدارس والجامعات، بما في ذلك من عيوب ومزايا.

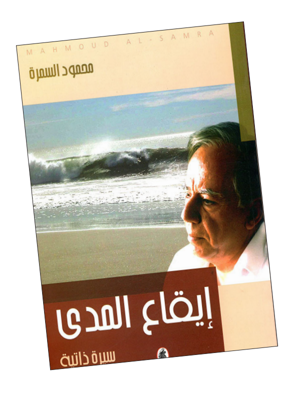
* كبير مقدّمي البرامج في شبكة إذاعة «صوت العرب» القاهرة.

إن الشباب العربي يواجه التحديات والمشاكل على مختلف المستويات الاقتصادية والسياسية والثقافية، إضافة لعدم وجود خطاب ثقافي مستنير موجَّه للشباب. اقتراحي يكمن في تواصل مثقفي المجتمع مع الشباب عن طريق مواقع التواصل الاجتماعي واللقاءات المباشرة والمحاضرات، وتبنّيهم مجموعات من الشباب ثقافياً وإبداعياً وتوجيههم توجيهاً صحيحاً، ومحاولة تغيير بعض الأفكار المغلوطة لديهم، مما يسهم في حماية الشباب من التطرف والإرهاب. ومن الأفضل أن يكون دور المثقف مع الشباب بعيداً عن وسائل الإعلام، لأنها لا تكون صوتاً للمثقف دوماً. يجب على المثقفين العرب الرواد، كلٌّ في مجاله، أن يتبنى مجموعات من الشباب في كل مجالات الإبداع لخلق أجيال جديدة واعية تعتز بهويتها وعروبتها، قادرة على مواجهة تحديات العصر وتمثيل أوطانهم في المحافل الدولية، إضافة إلى صقل مواهبهم في مجالات الفنون والإبداع المختلفة.

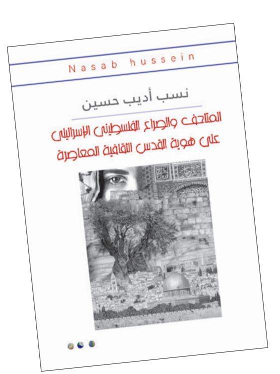
وإذا عُدنا لدور الإعلام في نشر الثقافة وتعزيز الهوية العربية، فنجد أن هذا قد يتحقق في بعض القنوات والإذاعات الحكومية، أما الإعلام الخاص فهو موجّه حالياً بدرجة كبيرة، لكننا كإذاعة حكومية هادفة رصينة نحاول تقديم الثقافة العربية بشكل مبسّط وبدون إقصاء أَحَد، مع محاولة تقديم كل الرؤى العربية المختلفة، ومحاولة الوصول إلى المثقف العربي في كل مكان داخل الوطن وخارجه، كما أننا نعمل على إبراز جوانب الإبداع المتعددة للشباب في الدول العربية.

لكن الشباب كما ذكرنا من قبل يتّجه إلى الإعلام الجديد وشبكات التواصل الاجتماعي والتي يستمد ثقافته منها. وهنا يأتي دور المثقف العربي في ظل هيمنة وسائل التواصل الاجتماعي والمواقع المتعددة والفضائيات، حيث يمكن أن يساهم في توعية الشباب وصقل مواهبهم و تنميتها، كما أنه عامل مهم لدعم الشباب وتوجيههم في المسار الصحيح، ليكوّن جيلاً مثقفاً واعياً قادراً على التعاطي مع التغيرات المتلاحقة في العالم من حوله وفهم قضايا أمته والتحديات التي تواجهها.

كتب ومراجعات ونقد

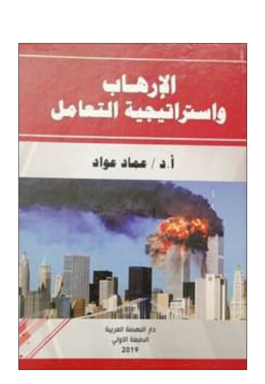


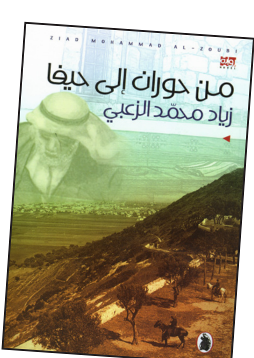












أزمـــة المثقفيـــن العـــرب

تأليف: د. هشام شرابي

قراءة وتعليق

يوسف عبدالله محمود*



بين يدي كتاب متميز طُبع أكثر من طبعة، كانت الأولى مطبوعة في بيروت عام ٢٠٠٢. أما مؤلف الكتاب فهو الأكاديمي والمفكر الكبير الراحل د. هشام شرابي. اسم الكتاب «أزمة المثقفين العرب»، وهو عبارة عن مجموعة من المقالات والمحاضرات المنتقاة من بين عشرات النصوص التي وضعها المؤلف. تدور نصوص هذا الكتاب حول «الأزمة الذاتية الحادة» التي يعيشها المثقفون العرب حيث العقبات الداخلية والخارجية التي تعيشها المجتمعات العربية والإسلامية. وهي عقبات «يبدو التغلب عليها أحياناً «صعباً ومتخيلاً» في ظل ظروف قاسية تحيط المرء «فيستسلم لمشاعر الغضب واليأس وأحياناً للعدمية». (ص ١٠)

ومع ذلك فالمؤلف يرى أن هذه الأزمات وإن بدت مستعصية فإنها ستزول، لأن التغيير سُنّة التاريخ، لكنه لا يحدث دُفعة واحدة، بل يتم «من خلال النقد الاجتماعي والممارسات الاجتماعية والسياسية» (ص١١). وفي حديثه عن المثقفين يقسمهم إلى فئتين أساسيتين: «السلفيون» و«العلمانيون» وهناك – كما يرى – فئة ثالثة تتأرجح بين «السلفية» و«العلمانية» وقد أطلق عليها «جماعة القوميين». ومن مآخذه على «السلفية» أن أنصارها في طروحاتهم لم يستوعبوا التأثير الحيوي لوجهة نظر مغايرة أنصارها من «العلمانيين». وإثر الحرب العالمية الأولى برزت الدولة الحديثة مُحدثة تحولاً تدريجياً من مفهوم القومية الدينية المبهم إلى مفهوم علمي أكثر وضوحاً. وقد حاول هذا الفكر القومي أن يوفّق بين عدائه المستمر

---

* كاتب وناقد/الأردن.

للغرب على الصعيد السياسي العسكري وقبوله الضمني بواقع التأثير الغربي الإداري والتنظيمي العام. غير أن هذا التوفيق الذي حاول أن يبرز «تجربة جديدة» تفيد من «الفكر المكتسب» لم يستطع أن يتحرر من «السلفية»، فظلّ هذا الفكر «منغرساً في ثنايا العقلية العربية السلفية» (ص١٦)

وفي انتقاده لدور المثقفين العرب المعاصر يرى المؤلف أن الكثيرين منهم «لم يتخذوا موقفاً إزاء التحول الاجتماعي» على النحو المطلوب. هم لسبب أو لآخر لم يتعاملوا مع «الفكر النقدي» القادر على التلاؤم مع التحول الاجتماعي. وكما أرى فإن غياب هذا النوع من الفكر يعزى إلى الظروف السياسية العربية غير المواتية. وهنا يؤكد د. شرابي «أنه لو توفرت الحرية الأوسع ونيلت في الوقت المناسب لما تمكنت الامبريالية العالمية ولا الحركة الصهيونية من الهيمنة على مجتمعات لا يتوفر لها حتى الآن الحد الأدنى من حرية التعبير والاجتماع» (ص٢٣)

وفي موضع آخر من الكتاب يتحدث المؤلف عن «مفهوم الحداثة»، وهو هنا يقارن بين مفهوم الغرب لها وبين مفهومنا العربي والإسلامي. «فالحداثة بالنسبة للمجتمعات الغربية المتطورة ليست مستقبلاً يتوقع قدومه، بل ماض تم أو يتم تجاوزه». أما نحن في مجتمعاتنا العربية «فتحوّل مفهوم عقلانية الحداثة وفكرها التحليلي إلى لعبة كلام ونصوص لغوية، أي أننا ننفي دلالة العقل التنويري ومنهجيته». (ص٢٦). وكما يشير الكاتب لا بد هنا من «تغيير الوعي الاجتماعي السائد عربياً وهذا لن يقم إلا بتفعيل دور المثقفين العرب في التوجيه الفكري والسياسي». (ص٢٩)

دون تفعيل هذا الدور ستظل «التقليدية» هي السائدة عربياً مما يحول دون مقاربة «الحداثة» بمفهومها الإنساني. لن تفلح حركات التغيير في تحقيق أهدافها دون التحرر من «التقليدية». ولعل من أبرز مظاهرها ما وصفه د. شرابي «بالنظام البطركي» الذي يفاقم الأزمة الحضارية التي تعيشها مجتمعاتنا. إن سيطرة مثل هذا النظام الذي يركز «السلطة» في يد واحدة يخفق في مجابهة تحديات العصر ومعالجة الواقع معالجة عقلانية، كما أنه «يجعل مصير المجتمع العربي فعلاً رهن الإدارات الخارجية والأجنبية» (ص٥٤)

وحتى نتغلب على هذه «التقليدية» وظواهرها السلبية لا بد من ترشيح «الديمقراطية» وتأمين الحقوق الإنسانية وإعادة بناء المجتمع المدني. وفي إشارته إلى «الحقوق اللاإنسانية» في ظل «النظام البطركي» يشير المؤلف إلى «نقطة الضعف» في الحلقة التي تكون قاعدة هذا النظام والمتمثلة في حرمان المرأة من حقوقها الإنسانية، فهي على حد قوله «غير قادرة على قول «لا» بمعنى أنها مقموعة ومضطهدة. وعليه «فحتى لو تغير نظام الحكم بطريقة ما، فإن النظام البطركي يبقى في علاقاته وممارساته، على ما هو عليه اليوم» (ص٢١). أي أن التغيير لا يكون نوعياً يحترم القيم الإنسانية.

وفي نقد مرير للواقع العربي الراهن يقول د. شرابي باستغراب: «لقد تغير العالم كثيراً ولم نتغيّر نحن؛ لم نتغيّر في أسلوب تفكيرنا، ولا في نظام علاقاتنا الاجتماعية والسياسية، ولا في طريقة ممارساتنا التي ما زالت مرتبطة بالقيم العشائرية والعائلية وبالأهداف الدينية والغيبية» (ص٦٧). أما المحصلة فهي استمرار تخلّفنا الاقتصادي والسياسي والثقافي، وهذا ما نعيشه اليوم في كثير من أقطارنا.

وفي حديثه عن «المثقفين العرب» يميز بين المثقف الذي لا مبدأ له، المنحاز لهرم السلطة وإن كانت مستبدة، وبين المثقف الملتزم الذي يساهم في حركة التحرر الاجتماعي ويمارس حقه في اتخاذ القرار السياسي الذي يؤمّن للإنسان العربي حقه وكرامته، في ظل أنظمة ديمقراطية تقوم على التعددية السياسية والفكرية وعلى سيادة القانون وإرادة الأكثرية.

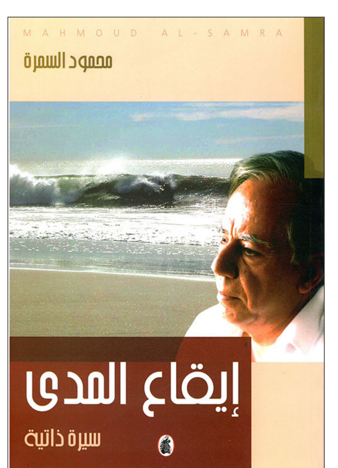
وفي مقال آخر له يوجز د. شرابي الأزمة الفكرية للجيل العربي الطالع في ثلاث سمات أساسية: «الاقتلاع النفسي، وضياع الثوابت الأخلاقية والفلسفية، وتسيّب القيم» (ص٨٥). صفوة القول هي أن المثقف العربي الطالع اليوم يجد نفسه «وسط خرائب عالم ممزق غير آبه لمواجهة التحديات لإعادة بناء هذا العالم. وينسحب هذا الوصف على الجو الثقافي للعالم العربي المعاصر، إذ إنه يفتقر إلى الذاتية الحقيقية وإلى المقدرة على النقد الذاتي على أي مستوى عميق» (ص ٨٦)

إن الجو الثقافي الذي نعيشه نحن العرب في ظل سلطة تعتبر نفسها «المرجعية المطلقة» حيث لا يعود للحقائق أي مدلول كبير حين تهيمن على المبادئ الأخلاقية، يؤدي إلى «عقم سياسي» نتيجته حلول الكبت مكان الإبداع والقناعة بدل الرفض. كما تطرق د. هشام الشرابي إلى مهمة المثقف العربي في إحداث تغيير نوعي في العلاقات الاجتماعية وتلك التي ينبغي أن تنشأ بين المواطن العربي والسلطة والقائمة على الثقة المتبادلة. دون توفر هذه الثقة لن نتمكن من ربط الفكر التغييري بمفهوم الحداثة ومفهوم المجتمع العلماني القائم على القانون وإجماع الشعب والمؤسسات الديمقراطية. وبمفردات د. شرابي: «لا يمكن أن نغير المجتمع طالما كان مرتبطاً بأنظمة وقوانين وقيم وتقاليد لم يعد لها أي معنى سياسي أو اجتماعي في العصر الحاضر» (ص ١٥٨).

وبصدق أقول إن أي تغيير حضاري عربي يتطلب خلع سيطرة الغرب الحضارية كما خلعنا سيطرته السياسية. وفي هذا السياق يقول د. شرابي: «إن الاستعمار الحضاري هو استعمار نفسي في المكان الأول، وليس كالاستعمار السياسي الذي يستهدف الظاهر والمحسوس ولا ينفذ إلى أعماق النفس» (ص١٦٣). لن نفلح نحن العرب في مقاربة التغيير الذاتي المنشود، دون توفر «رؤية عربية علمانية مستقلة"، يجب ألا نبقى في وضع الرعيّة بل علينا أن نناضل من أجل أن نغدو مواطنين أحراراً قادرين على تفعيل قوى التغيير والتطور.

قراءة في كتاب
«إيقـــاع المــدى: ســيرة ذاتيــة»
للدكتور محمود السمرة

قراءة وتعليق
سمير أحمد الشريف *



مستشهداً بمقولة «الحياة ليست ما يعيشه أحدنا، بل ما يتذكره، وكيف يتذكره ليرويه» ينطلق المرحوم الدكتور محمود السمرة في العودة لبئر طفولته يمتح الماء العذب منها؛ مبتدئاً بقريته الطنطورة، مهد الروح وعاشقة البحر. كانت ولادته في الطنطورة المرتبطة بالخط الساحلي الواصل بين حيفا ويافا بطريق ترابي، تعيش حياة بسيطة، والناس فيها لا يعلمون بمرور القطار إلا إذا وضعوا آذانهم على خط سكة الحديد.

تقع الطنطورة على الساحل الفلسطيني على مبعدة سبعة وعشرين كيلو متراً جنوبي حيفا، وكان الموج عندما يهيج بحر يافا يضرب جدران منازلها المحاذية للبحر، توجد فيها طيور البط والفر، وينمو في مستنقعاتها نبات السمار الذي يُنقع ويُصبغ وتُصنع منه الأطباق والصحون الجميلة.

تميزت الطنطورة بتكافلها الاجتماعي، إذ لم يكن الناس يدفعون ثمن ما يأخذون، ولم يعرفوا فيها موعداً ثابتاً للطعام. ومما يُسجل عن بساطة الحياة آنذاك أن الناس كانوا يرون في مدير المدرسة، الذي يتقاضى بضع جنيهات فلسطينية راتباً شهرياً، من الأغنياء.

---

* أديب وناقد أردني.

مما يُسجله المرحوم مؤلف السيرة خوفه من الليل ونُباح الكلاب، ومما زاد قلقه أن يراه أترابه خائفاً فيصير مثاراً لسخريتهم.

قضى السمرة في حيفا ست سنوات طالباً، أطلق عليها «سنوات الصبر المرّ»، وقد أطلق عليه أهل قريته لقب الأستاذ، وبعد خروج النتائج المدرسية وحصوله على الترتيب الأول تغيرت نظرة المعلمين والطلاب له، خاصة معلم الطبيعة الذي كان لا يستلطف السمرة ويرى فيه مجرد فلاح قادم من القرية، صار عنده الطالب المفضل وسارت أموره المدرسية محاطاً بالمعلمين والطلبة.

أقام السمرة في غرفة على السطح مع زميل دراسته عبد الوهاب، عند عائلة في حي جميل مجاور لضريح البهاء عباس الفخم وحديقته الغنّاء.

بَدَتْ هواية المطالعة عند السمرة مذ كان في الصف الرابع الابتدائي، فكان يقرأ آنئذ مجلة «الرسالة» المصرية، وروايات جرجي زيدان، والروايات الإنجليزية بلغتها كرواية «الأرض الطيبة» ورواية «ريح الشرق وريح الغرب» و«قصة مدينتين» وغيرها.

مما علق في ذاكرة الكاتب ثورة ١٩٣٦ والإضراب الكبير الذي عمّ فلسطين وأصابها بشلل تام، مما أثّر على تراجع الحالة الاقتصادية وإغلاق المدارس. وغادر السمرة نتيجتها حيفا وعاد للطنطورة، ودخلت البلاد في أجواء الحرب العالمية الثانية وصار منظر انتشار الجنود البريطانيين والأستراليين والهنود شيئاً مألوفاً، وقد كوّن اليهود لهم فرقة ضمن الجيش البريطاني تتدرب على القتال، حتى قال تشرتشل في ذلك مقولة تتهم الصمت العربي على ذلك (ص ٣٣). وبدأت طائرات النازي تقصف مصفاة البترول في حيفا مما تسبّب في هجرة القادرين ورحيلهم إلى القرى المجاورة، فامتلأت الطنطورة بالهاربين من القصف.

في عام ١٩٤١، وبعد سنتين من نشوب الحرب التحق السمرة بالكلية العربية في القدس التي كانت تستقبل أوائل الثانوية في ألويتهم. كان طموح السمرة أن يتجه لدراسة الفرع العلمي لتميزه فيه، لكن الريح لم تكن مواتية ولم تسر الأمور كما تمنى بسبب معلم الرياضيات، الذي فوجئ به الطلاب في حصته الأولى لتوبيخه لهم وسخريته منهم وقوله بذيء اللفظ. فكان ذلك سبباً في تغيير توجهات السمرة كلياً.

الكلية العربية متميزة وفريدة في مستوى التعليم فيها وبكفاءة معلميها، كانت جميلة في كل شيء بدءاً من موقعها على جبل المكبر وصولاً لجدّية امتحاناتها

ورصانتها وإدارتها الحازمة، كان أساتذتها غالباً من خريجي الجامعات البريطانية وكان تعليم المواد العلمية فيها باللغة الإنجليزية. ومما يلفت الانتباه أن الامتحانات فيها لم تكن تخضع للمراقبة بغية غرس الثقة في ضمائر الطلبة. ومما يذكره السمرة أنه ذهب إلى مصر لمتابعة دراسته في جامعة فؤاد الأول / القاهرة حالياً عام ١٩٤٧، وكان من المطلوب دراسة اللغة اللاتينية، والتي كان يدرّسها خريج قسم اللغات القديمة في نفس الجامعة، وقد كان مستوى السمرة في هذه اللغة أفضل من مستوى أستاذه الذي أسرّ له يوماً ألا ضرورة لحضوره الدروس بعد أن بدأ الأستاذ يشعر بالحرج.

يستذكر رحمه الله القدس قائلاً: من يغادرها لا بد أن يقف على حلويات زلاطيمو المشهورة برفقة زملاءه من شرق الأردن: المرحوم الدكتور ناصر الدين الأسد، والمرحوم ذوقان الهنداوي، والمرحوم نوري شفيق، والمرحوم مصطفى وهبي التل.

في آخر سنتيه في القدس رحل مع العائلة إلى يافا، وبهذا أصبح قريباً من المدينة الكبيرة وحي العجمي والمنشية والمنارة وسوق إسكندر عوض وشارع جمال باشا، وصار قريباً من الحراك الثقافي في «البيت العربي» ومتابعة نشاطاته، فقد أتيح للسمرة فيه أن يستمع للعقاد والمازني والجواهري وهو يلقي قصيدته الشهيرة «يافا»، ويستمع لأحمد الصافي النجفي معتمراً لباسه البدوي.

في نهاية دراسته في الكلية العربية تقرر لتفوقه أن يُرسل مبعوثاً لبريطانيا لدراسة التاريخ على حساب وزارة المعارف، لكن هواه كان يميل إلى الدراسة في مصر، بلد العلم والأدب والصحافة والفكر، وأن من أصدقائه محمود الغول وإحسان عباس قد سبقاه للقاهرة. تأخرت بعثته عامين، وخلال ذلك الوقت نظمت المدرسة التي عمل معلماً فيها رحلة إلى القاهرة، طلاباً ومعلمين. استقلوا القطار من محطة طولكرم إلى العريش ومن هناك إلى قاهرة المعز، مدينة الألف مئذنة التي لا تعرف الحزن كما وصفها نابليون عندما دخلها فاتحاً.

بعد وصول السمرة للقاهرة بشهور صدر قرار التقسيم عام ١٩٤٧، وبعد ذلك أعلن اليهود قيام دولتهم. ومما يستذكره أنّ رفقته للدكتور إحسان عباس لم تنقطع، كان الصديق والمؤنس والنجي في الغربة، كانا في الصيف يقضيان الوقت في مقهى كازينو الصيفي على النيل برفقة صوت أم كلثوم.

ظل السمرة يعيش في القاهرة بعقلية القروي، ويذكر أنه كان يقرأ في المكتبة فجاءت زميلته وجلست بجانبه، طالبةً أن يقرأ معها كتاب «أخبار أبي نواس» وهو من الأدب المكشوف، فما كان من السمرة إلا أن ارتبك وتصبّب عرقاً.

يـروي أنــه في عــام ١٩٤٨ قضى شهراً من شهور الصيف بحلوان، يذهب كل صباح للحديقة اليابانية برفقة كتاب يقرأ فيه، وصدف أن رأى أحدهم يأتي للحديقة بنفس التوقيت، واقترب الرجل من السمرة ودار بينهما حديث اكتشف السـمرة فيـه أن الـرجـل مطلع مثقف، وعـرف أنـه المرحوم سيد قطب الـذي لم يكن معروفاً بميوله الدينية آنـذاك، بل كان يهتم بالنقد والأدب.

في الكويت كانت محطة السمرة المهمة. عندما حطت الطائرة على أرض الكويت لم يكن مطاراً بل أرضاً خاليةً، بغرفة من اللبن وموظف لختم الجوازات. وقد علم السمرة من محمود زايد الذي كـان بانتظاره أنـه قد تم تعيينه معلماً في مدرسة المباركية الثانوية الوحيدة، وعندما سـارا ليلاً كـان الحـر لا يطاق، ورأى المـديـنـة تسبح في ظـلام دامـس. وفي الصباح خـرج ليتعرف على ملامح البلدة ببيوتها المتواضعة وشارعها الوحيد المسفلت، شارع الشيخ فهد. أما الطعام فـلـم تـعـرف الـكـويـت آنــذاك سـوى الـرز والسمك واللحم وبعض الخضار والفواكه المعلبة وذلـك للمقتدر مالياً، أمـا الفقير فقوته الخبز والشاي. ومن الطريف أن أهل الكويت لا يأكلون أحشاء الذبيحة ولا أطرافها. وكان الطوز هو ما يميز المناخ في ذاك الزمان، أما الماء فكان يُنقل للكويت بالسفن من البصرة، ويدور الباعة به على البيوت منادين «شُط شُط»، ثم تغير كل شيء بعد أن زاد دخل الكويت من النفط.

من محاسن الصدف أن المجلس الثقافي البريطاني في الكويت قد أعلن عن بعثة للدراسة في بريطانيا فحصل السمرة عليها، وسجل بذلك مغامرة أخرى كانت فيها زوجـتـه خـير مـعـين، واسـتـفـاد من الحـالـة الأدبـيـة والفكرية التي أضيفت لرصيده وتجربته في لندن.

بـعـد عـودة الـسـمـرة مـن لـنـدن تم تعيينه في دائرة الإرشاد والأنباء، وتعاون مع الدكتور أحمد زكي في إصدار مجلة «العربي» التي كانت إضافة ثقافية وفتحاً ثقافياً، وهـديـة قدّمتـهـا حكومـة الـكـويت للشعب العربي. من مفارقات عمله في «العربي» أن الشاعر بدر شاكر السياب قد أرسل للمجلة قصيدة ومعها رسالة يطلب فيها مكافأة النشر ليشتري الدواء، وتم تحويل مبلغ له، لكن الرسالة عادت وقد كُتب عليها «لم يتم التسليم لوفاة صاحب العلاقة».

كـان طـلـب نـاصـر الـديـن الأسـد لمحمود السمرة مُلحٌّ بضرورة الحضور للعمل على تأسيس الجامعة الأردنـيـة، السبب الـذي تـرك معه «العربي» وغـادر الكويت، تلبية للواجب الوطني.



عن كتبهم بأقلامهم

(إعداد وتحرير: كايد هاشم)

(١)

ذاكرة الأيام

عمر من التعلّم والتعليم والعطاء الفكري

الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر
مكان النشر: بيروت، عمّان
عام النشر: ٢٠٢٠

أ.د. علي محافظة*



هذا الكتاب هو عبارة عن مذكرات شخصية للدكتور علي محافظة. يحتوي على قسمين، أولهما بعنوان «ذكريات وأحداث (١٩٣٨-١٩٧١)». يشمل هذا القسم معلومات عن مسقط رأسه قرية كفر جايز شمال الأردن، التي تمثل في حياتها الريف الأردني في الأربعينات والخمسينات من القرن العشرين، بما في ذلك الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ركّز هذا القسم على الأسرة ودور كل فرد فيها في توفير العيش الكريم لها، وعلى كتّاب الشيخ الذي يعلّم الأطفال القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم وإتقان العمليات الحسابية (الجمع والطرح والضرب والقسمة)، والمدرسة البدائية ومعلميها.

ويشمل هذا القسم الدراسة الثانوية في مدينة إربد، ونكبة فلسطين وأثرها على المجتمع الأردني، وعلى تنمية الوعي السياسي بين الشباب. كما يشمل انتشار الأحزاب السياسية في خمسينات القرن الماضي وتأثيرها في طلبة المدارس.

* أستاذ شرف للتاريخ الحديث والمعاصر في الجامعة الأردنية.

كما يحتوي هذا القسم على مذكرات الدراسة الجامعية في جامعة دمشق بين سنتي ١٩٥٥ و١٩٦٠ على نفقة وزارة التربية والتعليم الأردنية ووزارة التربية والتعليم السورية، ونيل شهادة الإجازة في الآداب بتخصص التاريخ والدبلوم العام في التربية. يحتوي أيضاً على الحديث عن العودة إلى الأردن وممارسة التعليم في مدرسة رغدان الثانوية في عمّان بين سنتي ١٩٦٠ و١٩٦٢، ثم التعيين في وزارة الخارجية الأردنية بين سنتي ١٩٦٢ و١٩٧١، والعمل في السفارات الأردنية في بون وتونس والجزائر وباريس والقاهرة، ثم الحصول على شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر من جامعة السوربون في باريس سنة ١٩٧١. وينتهي هذا القسم بعرض الدوافع التي جعلت الدكتور محافظة يستقيل من وزارة الخارجية ويلتحق بالجامعة الأردنية أستاذاً مساعداً في قسم التاريخ في كلية الآداب سنة ١٩٧١.

ويتضمن القسم الثاني من هذا الكتاب وعنوانه «خمسون عاماً في التعليم الجامعي (١٩٧١- ٢٠٢٠)» معلومات عن ممارسة التعليم في الجامعة الأردنية لمدة عشر سنوات حصل خلالها المؤلِّف على رتبة الأستاذية. ثم عيّن رئيساً لجامعة مؤتة ومؤسساً لها بين سنتي ١٩٨١ و١٩٨٩، وانتقل منها رئيساً لجامعة اليرموك بين سنتي ١٩٨٩ و١٩٩٣. في أثناء رئاسته لجامعة مؤتة سعى سمو الأمير الحسن بن طلال، ولي العهد آنذاك، إلى إصلاح التربية والتعليم في مرحلتيها التعليم العام والتعليم العالي بين سنتي ١٩٨٥ و١٩٨٧، وتشرّف د. محافظة برئاسة اللجنة التي عينها رئيس الوزراء لهذه الغاية، وقدمت تقريرها النهائي سنة ١٩٨٧ وانتهى بمؤتمر التطوير التربوي الذي عقد في صيف ذلك العام. وأجريت في ضوء قرارات المؤتمر إصلاحات في المناهج المدرسية، وإعداد المعلمين، ووضع خطط دراسية جديدة في الجامعات الرسمية. وكان لسمو الأمير الحسن دور مميز في تحقيق الإصلاح المنشود الذي تم التراجع عنه فيما بعد.

واحتوى هذا القسم على النشاط العلمي للدكتور محافظة من المشاركة في العديد من المؤتمرات والندوات العلمية المحلية والعربية والدولية، وتأليف (٣٤) كتاباً كمؤلف منفرد و(٣٣) كتاباً كمؤلف مشارك مع آخرين، ونشر ما يربو على مئة وخمسين بحثاً في مجلات علمية محكمة.

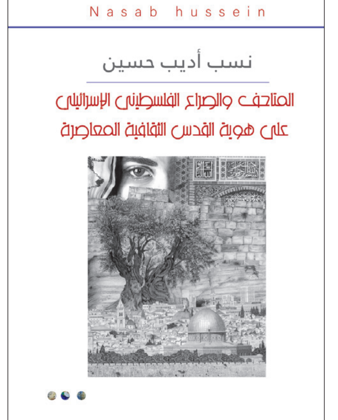
وعلى الصعيد التعليمي الإداري عمل الدكتور محافظة رئيساً لقسم التاريخ ومساعداً لعميد كلية الآداب، وعميداً لكلية العلوم الشرطية في بداية تأسيس جامعة مؤتة، ورئيساً لجامعة مؤتة ولجامعة اليرموك. وشارك في العديد من اللجان الجامعية والتربوية الرامية إلى إصلاح التربية والتعليم العالي. وأشرف على عشرات الرسائل الجامعية: الماجستير والدكتوراه، وناقش ما يربو على مئة رسالة جامعية.

(٢)

المتاحف والصراع الفلسطيني-الإسرائيلي على هوية القدس الثقافية

الناشر: وزارة الثقافة الفلسطينية
مكان النشر: رام ا لله
عام النشر: ٢٠٢٠

د. نسب أديب حسين*



بدأ الصراع الفلسطيني الإسرائيلي بشكل بارز في القرن الماضي، ومع الاحتلال الإسرائيلي لمدينة القدس، تطوّر الصراع ليشمل مجالات عديدة من الأرض والسّكان والاقتصاد والهوية الثقافية.

تولّد الاهتمام بإجراء هذه الدراسة سعياً لتسليط الضوء على أهميّة الصراع على الهويّة الثقافيّة لمدينة القدس، والتي تلقى محاولات تهويدية مختلفة عبر مجالات ثقافيّة عديدة، تحاول من خلالها تغيير الرواية والأسماء، والسّيطرة على المواقع، في سبيل اختلاق أحقيّة الوجود الإسرائيلي. فإنّ مواجهة الرواية الصهيونيّة العاملة على تغيير الهويّة الثقافيّة، تحتاج إلى مواجهة واعية من قبل جانبنا الفلسطيني والعربي، بالاطلّاع والإدراك والفهم لما يعرضه الآخر، وما هي القدرات المتاحة في سبيل تطوير عملنا الثقافي. هذا العمل القادر على بناء الوعي والإدراك لدى أبناء شعبنا ليبقوا محافظين على هويّتهم، قادرين على الصّمود أمام السّيطرة الإسرائيليّة.

---

* كاتبة وباحثة/فلسطين.

يوضح الكتاب في فصله الأول مفهوم المتحف كمركز ثقافي وتربوي قادر على حفظ التراث وتنمية روح الانتماء، وتدخل معايير معيّنة في تصميمه، لتساعده في تقديم رسالته، ودوره في البيئة التي يُنشأ فيها، وفي الصّراع. ثمّ يأتي استعراض سريع لمكانة المتاحف في الغرب وعند العرب، وفي إسرائيل وفلسطين.

فيما يُعرّف الفصل الثاني مفاهيم الهويّة والثقافة وتأثير الصّراع على الهويّة، باستعراض تجارب بعض الشّعوب التي تعرّضت للاحتلال، والفكر الاستعماري الذي وظّفه الغرب في النّظرة صوب الشرق، مع تفصيل لمكوّنات الهويّة الثقافيّة الفلسطينيّة التي تلعب الذاكرة والتجربة الفلسطينية المميّزة، دوراً مهماً في تشكيلها.

تظهر العلاقة بين الثقافة والهويّة كعلاقة تبادلية، فالثقافة جزء ومركّب من مركّبات الهويّة، وهي كذلك أداة تصيغ الهويّة وتعبّر عنها، وحين توجد الهويّة في صراع، فإنّها تتشبث بخصائص معيّنة تميّزها، وتحاول أن تزيد من إيجابياتها، وحين يحمل الصراع جانباً ثقافياً، فمن المهم أن يتم تطوير المجالات الثقافيّة، وصياغة رواية أساسية موحّدة تصيغ الهوية الثقافية.

وعبر بحث العلاقة بين الهويّة والثقافة، نشهد الدور الذي أدّته الثقافة الفلسطينيّة في الدّفاع عن الهويّة الفلسطينيّة. في هذا القسم تمّ الاعتماد على مقالات وأبحاث العديد من المفكرين والباحثين، أهمهم إدوارد سعيد وفيصل درّاج، اللذان أشارا إلى أهميّة الذّاكرة والحفاظ عليها كجزء من المقاومة، لصياغة ثقافة مقاومة، قادرة على التصدي للنسيان ولمحاولات تغيير الهويّة.

يطرح الكتاب فصلاً يقدم نبذة تاريخيّة وقانونيّة سعياً لفهم الظروف المحيطة بالقدس في الشأن الثقافي، وتشكيل خلفيّة معرفيّة للقارئ في الجانبين التاريخي والقانوني. يقدّم الجانب التاريخي استعراضا مختصرا للمشهد الحضاري والثقافي منذ عام ١٨٤٠ حتّى اليوم، انطلاقاً من استعادة العثمانيين للحكم في فلسطين من إبراهيم باشا، والإصلاحات والتّطورات التي أدخلت في القدس حتّى الاحتلال البريطاني. ثمّ تتم الإشارة إلى أهمّ التغييرات الثقافيّة في كل فترة من فترات تغيّر القوّة الحاكمة، حتى يأتي التفصيل حول التغيير في المشهد الثقافي في القدس في العقد الأخير.

في الجانب القانوني، يتم طرح الاعتداءات على الممتلكات الثقافيّة التي قام بها الاحتلال الإسرائيلي، والتي تشمل سرقة ٣٠,٠٠٠ كتاب من القدس الغربية بعد احتلالها عام ١٩٤٨، والسيطرة على المباني الثقافية ومصادرة وهدم بعضها. إضافة للحفريّات، ومنع الأنشطة الثقافيّة وإغلاق العديد من المؤسسات الثقافيّة عام ٢٠٠١. ثم تبيين القوانين والمعاهدات الدوليّة التي تحمي الحقوق الثقافيّة، وينقضها الاحتلال بارتكابه لهذه الاعتداءات.

ويستعرض فصل المتاحف في القدس كما رأيتها عام ٢٠١٧ المعلومات التي جمعتها الباحثة عن المتاحف الإسرائيليّة والفلسطينيّة في القدس والتي تدخل في الدراسة، مرفقة معها الصّور التي التقط معظمها بعدسة الباحثة. أمّا المتاحف التي يتناولها البحث فهي:

المتاحف الإسرائيليّة: متحف البيت المحروق، متحف ساحة الحيّ القديم، متحف برج داوود، متحف بلدان الكتاب المقدس، متحف على خط التّماس، متحف إسرائيل، متحف روكفلر.

المتاحف الفلسطينية: المتحف الإسلامي، متحف مؤسسة دار الطفل العربي للتراث الفلسطيني، متحف وجود.

يعتمد طرح البيانات التي جُمعت عن المتاحف بشكل أساسي على أسلوب الملاحظة والمراقبة الذي اتبعته الباحثة، إضافة إلى الدّليل الورقي الذي تقدمه المتاحف في مدخلها ومواقعها على الإنترنت. تُطرح البيانات بشكل وصفي وفقاً لخمسة معايير حول مبنى المتحف، أساليب العرض، التّواصل مع الجمهور، إمكانيّات الإرشاد، ورواية المتحف، يتبعها فرع نقدي يعبّر عن رأي الباحثة لما تمّ جمعه من معلومات.

من أجل الوصول إلى استعراض مقارن، والوصول إلى أجوبة أسئلة ظهرت خلال البحث الميداني، يأتي الفصل التالي (الخامس) معبّراً بصورة مقارِنة بين ما هو مطروح في المتاحف المختلفة، عن طريق المعايير الخمسة، مستعرضاً آراء الموظفين والمطّلعين على العمل المتحفي في الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي، وجاء هذا عن طريق مقابلات أجرتها الباحثة معهم بهدف الوصول إلى آراء ونتائج موضوعية.

أمّا الفصل الأخير والذي يأتي تحت عنوان «هويتنا الثقافية الفلسطينية في القدس إلى أين؟» فيسعى لتبيين إجمالي الاستنتاجات والتّوصيات التي

توصلت إليها الدراسة. ليعبّر عن مركبات الهويّة الثقافيّة الفلسطينيّة التي تتطرق لها المتاحف الفلسطينيّة، والمعيقات التي تواجهها هذه المتاحف، والأساليب التي يتمّ عبرها تغيير هويّة القدس الثقافيّة من قِبل المتاحف الإسرائيليّة.

ومن هناك نصل إلى تصورات تُمكّن من تطوير عمل المتاحف الفلسطينيّة في القدس على المدى البعيد، والتي تحتاج إلى إمكانات ماديّة أكثر توفراً وإلى ظروف أفضل، مثل تطوير العرض، والمباني والمسار السياحي، والجانب الإعلامي. وثمّة توصيات أكثر عملية ويمكن تنفيذها على المدى القريب، من تطويرات متاحة وأقل تكلفة في العرض والإرشاد والنشاطات والإعلام المحلي.

يقودنا هذا البحث إلى أهمية صياغة رواية فلسطينية قوية، قادرة على الرّد على الرواية التي تقف في مواجهتنا، لتزيدنا قوة وإيماناً بأنفسنا وبقضيتنا، وتجعل توجهنا الفكري يقف ثابتاً، لا تقدر الرواية الصهيونية على زعزعته. كما ويمكن من خلال هذا البحث ملاحظة عمل الطّرف الإسرائيلي المنظّم، لاستخدام المتاحف كمنبر مهم لتقديم رواية يهودية تدعم الحجج الصهيونيّة، لاختلاق حقهم في فلسطين، وهي مدعومة بخطط وبرامج وميزانيات ومواقع مناسبة. إذ يمكن ملاحظة توفّر المساحات الشّاسعة لمتحف إسرائيل، وتوفير موقف للسيارات لزائريه ولزائري متحف بلدان الكتاب المقدس، وقد وصل عدد زوار المتاحف الإسرائيلية التي يتناولها البحث إلى ما يقارب ١,٢٥٠,٠٠ زائر في عام ٢٠١٦، بينما بالكّاد يصل عدد زوّار المتاحف الفلسطينيّة المقدسيّة إلى ٨٨,٠٠٠ زائر لذات العام. وأمام هذه المقارنة لا يمكن أن نغفل وجود ٢٢ متحفاً إسرائيلياً، وتجهيز متحف جديد هو «متحف التّسامح» على أرض مأمن الله، مقابل ثلاثة متاحف فلسطينيّة، ممّا يجعل التحدي غير متكافئاً وصعباً على المتاحف الفلسطينية، التي تحتاج الدعم المادي والعلمي في سبيل التطوّر، وزيادة قاعدة زوارها.

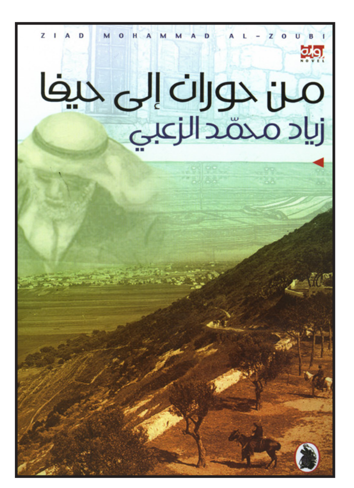
يشكّل العمل على تطوير المتاحف الفلسطينيّة الموجودة في القدس خطوّة ثقافية مهمّة، إذ يمكن استغلال المتحف كموقع ترفيهي وتربوي في إطار التطوّر العصري التكنولوجي، ليُعبّر عن الهويّة الثقافيّة بمركباتها المختلفة، ويُقدم رسالة قويّة وراسخة في ذهن الزائر بأساليب جذابة.

(٣)

من حوران إلى حيفا

الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر
مكان النشر: بيروت وعمّان
عام النشر: ٢٠٢٠

د. زياد محمد الزعبي*



«من حوران إلى حيفا» عمل روائي تاريخي، يسرد فيه الراوي الدكتور زياد الزعبي تجربة حياة أبيه في الانتقال من قريته شمال الأردن إلى مدينة حيفا في فلسطين في عمر الثانية عشرة، ثم عودته مجبراً إلى قريته بسبب النكبة الفلسطينية. يجسّد الراوي صورة والده ذي الشخصية المتمردة المغامِرة، الذي حُرم من التعليم وصارع مع واقعه في عالم الفلاحة، حتى خرج منه إلى عالم الوظيفة عند انتقاله إلى حيفا، هارباً من بيته، حاملاً معه قروشاً قليلة. تصوّر الرواية عمل والد زياد الزعبي في أعمال بسيطة، حتى أصبح تاجراً يكبر في عمله ويخسره تباعاً لتعرّض فلسطين للسلب والنهب الصهيوني عام ١٩٤٨.

* طبيب استشاري/الأردن.

اعتمد الراوي على شهادات الكتب والموسوعات والأشخاص في حقبة الثلاثينات والأربعينات في الأردن وفلسطين، فأحيا الجوانب التاريخية والاجتماعية والسياسية بحقّ في أحداث سرديته. وألمّ الراوي بتفاصيل مدينة حيفا عن طريق أحاديث والده وأصدقائه عنها، فوصف أحياء المدينة وأزقتها وأسواقها وعاداتها وتقاليدها، وحرص على إيراد الأمثال والأهازيج كما اللغة المحكية في ذلك الزمان، وكتب عن عائلاتها وشخصياتها خاصة الثوار المناضلين منهم. إضافة إلى شخصيات من وحي خيال الراوي، روّج من خلالها للأفكار القومية والوحدة بين الشعبين الأردني والفلسطيني في مواجهة ورفض المشروع الصهيوني وسايكس بيكو.

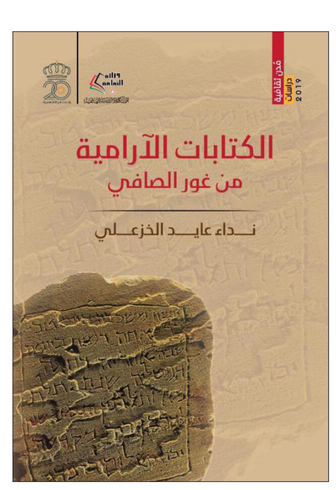
تناول الراوي علاقة الإنسان بالمكان، وسرَدَ المكان عبر حركة الإنسان إليه وفيه ومنه، شاهداً في أثناء هذه الحركة على المتغيرات الطارئة عليه، فتكون هذه الشهادة تاريخية ثابتة رغم تغير الزمان. كانت هذه الشهادات التي جمعها الراوي في عمله وصفة لسردية تحكي الماضي بروح الحاضر وتطلعات المستقبل، لتوثيقها الامتداد الجغرافي والتاريخي والحضاري بين الداخل والساحل، بين فلسطين والأردن.

(٤)

الكتابات الآرامية من غور الصافي

الناشر: وزارة الثقافة الأردنيّة
مكان النشر: عمّان
عام النشر: ٢٠١٩

نداء عايد الخزعلي*



وقفت في كتاب «الكتابات الآرامية من غور الصافي» على سؤال: كيف يمكن لشاهد قبر أن يعكس معلومات عن جوانب معينة من الحياة اليومية والدينية والسياسية والاجتماعية لسكان زُغر في الفترة البيزنطية؟ خصوصاً وأن جميع الشواهد التي دُرست في الكتاب لم تُكتشف ضمن سياق أثري واضح، إنما نتيجة لأعمال حفر غير قانونية قام بها سكان المنطقة منذ ١٩٨٠.

يتناول الكتاب شواهد القبور الآرامية من منطقة غور الصافي «زُغر» وعددها واحد وسبعون شاهداً، كُتبت باللغة الآرامية الفلسطينية بخط مربع وامتدت من القرن الرابع الميلادي إلى القرن السادس الميلادي، وتُعد من أبكر شواهد القبور التي تتضمن مجموعة من العناصر التي لم تظهر في المنطقة قبل القرن الثالث الميلادي، وقد ساهمت هذه الشواهد بتشكيل تصور عن سُكّان زُغر خلال حكم الدولة البيزنطية.

ويعد كتاب «الكتابات الآرامية من غور الصافي» الدراسة الأولى التي تُقدم على يد باحث عربي، إذ إن جميع العاملين في هذا المجال هم من الباحثين الغربيين وفي مقدمتهم

* باحثة في التأريخ الشفهي والكتابات القديمة/الأردن.

(الإسرائيليون)، حيث بدأ العمل على هذه الشواهد منذ عام ١٩٢٥ على يد كاولي، تلاه مجموعة من الباحثين الغربيين كان آخرهم ميمارس عام ٢٠١٦، والذي يعدّ كتابه مرجعاً أساسياً في الكتاب لشموله الشواهد المنشورة من زُغر. وقد جاءت جميع الدراسات السابقة لهذه الشواهد خالية من التحليل اللغوي للنقش والتعليق على المسائل اللغوية بشكل موسع، أو حتى دراسة المحيط الجغرافي واللغوي والديني للشواهد، كما أنها لم تتناول الرموز التي صُورت على الشواهد وبيان دلالاتها الدينية.

ولأن موقع الشواهد لم يَعد من الممكن المسح أو التنقيب فيه نتيجة الامتداد العمراني، فقد وقفتُ على إمكانية إجابة هذه الشواهد على تساؤلات لم تجب عنها الحفريات الأثرية، مثل الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية في المنطقة، ذلك بأن الشاهد الكتابي وثيقة مادية مهمة تحمل أفكار ومعتقدات كاتبيه، لذلك درست الشواهد ضمن إطارها التاريخي والجغرافي واللغوي والديني والحضاري في محاولة تفسيرها بصورة صحيحة.

وبدأت أولاً بدراسة موقع زُغر وتحديده بناءً على مجموعة من المصادر الدينية والتاريخية، حيث جاءت جنوب شرق البحر الميت، جنوب دير عين عباطة؛ وهي واحدة من مدن السهل الخمس (سدوم، عمورة، أدامه، زيدوم، زُغر) الوارد ذكرها في العهد القديم والمصادر التاريخية والجغرافية المتعددة.

وتتبعت اسمها نظراً لوروده في كثير من المصادر الدينية والتاريخية وارتباطها بوثائق وأحداث مهمة، إذ ذُكرت بتسميات مختلفة مثل «بالع» و«مدينة النخيل»، كما وردت بصيغ متعددة أخرى جاءت أغلبها مشابهةً لزُغر عند كثير من الجغرافيين العرب والقدماء، وذكرها بيركهارت باسم الصافي بناءً على معلومات من أهل مدينة الكرك سنة ١٨٢٢.

إن تداخل فترات الاستيطان في المدينة يعطي انطباعاً جلياً بأن الاستقرار فيها لم ينقطع منذ العصر البرونزي المبكر إلى العصور الإسلامية، وأنها لعبت دوراً مهماً خلال الفترات التاريخية المختلفة، لذلك نجدها تحتوي على عدد كبير من المواقع الأثرية. وعليه فقد ذكرت في الكتاب المواقع التي استخرجت منها الشواهد الكتابية فقط، مثل مقبرة النقع التي يعتقد بأن أغلب الشواهد قد استخرجت منها، وموقع قصر الطوبة، وطواحين السكر، وخربة الشيخ عيسى التي شهدت استيطاناً كثيفاً خلال الفترة التي كُتبت بها هذه الشواهد.

ولما كانت شواهد زُغر ذات نظام كتابي فريد فقد خصصتُ فصلاً كاملاً

للحديث عنها، إذ وصفتها وصفاً وافياً من حيث شكل الشاهد وطريقة الكتابة، وعرضت عناصرها الستة: الصيغ الافتتاحية، أسماء الأعلام، والألفاظ الدالة على الموت، وتأريخ الوفاة، والصيغ الختامية، والرموز التي صورت على الشواهد. وقمت بتفسيرها بالاعتماد على ما ورد من دراسات سابقاً وبعض أسفار العهد القديم، كما وعرضت الفترة الزمنية لظهور كل عنصر، وبيان أهميته التاريخية والدينية وأسباب استخدامه.

ولتكون دراسة الشواهد الآرامية في الكتاب متصلة بمحيطها اللغوي والديني والحضاري قمت بمقارنتها مع مخطوطات البحر الميت، من خلال استنباط المعلومات من الشواهد ومقارنتها بمخطوطات قمران والتي تُعد أكبر مصدر للكتابات الدينية في محيط البحر الميت، إذ احتوت على اثنين وثلاثين ألف جذاذة شكلت ما يزيد عن تسعمئة وثيقة منفصلة. وقد احتوت هذه الجذاذات على مجموعة من أسفار العهد القديم الذي يُعد ركيزة الديانة اليهودية، مما وفر بعض نقاط الالتقاء بين شواهد زُغر والمخطوطات، وذلك لأننا غالباً ما نعد شواهد القبور نصوصاً دينية يمكن أن تكشف لنا مجموعة من الدلالات الدينية والاجتماعية والسياسية. لذلك تضمن الفصل الثالث من الكتاب مجموعة من أوجه المقارنة مثل أسماء الأعلام، والألقاب والمهن الدينية، والعلاقات الأسرية، والأعمار، والتقويم وطرق التأريخ، والأيام والأشهر، والأعياد، ومفهوما البعث والحياة الآخرة في الديانة اليهودية.

ولما كان هذا الكتاب لا يشمل سوى جزء محدد من المكتشفات الأثرية بزُغر، وهي شواهد القبور الآرامية، فإنه من الضروري الاستمرار في إجراء أبحاث تساعد على فهم التاريخ الحضاري لمنطقة البحر الميت وجنوب الأردن في الفترة السابقة للإسلام، وذلك من خلال دراسة النصوص التي تظهر بالمنطقة من قبل الباحثين الأردنيين ليبينوا سياقها التاريخي الأردني الصحيح، والعمل على منع تهريب اللقى الأثرية خارج الأردن، كونها جزءاً من الهوية الثقافية للمجتمع.

(٥)

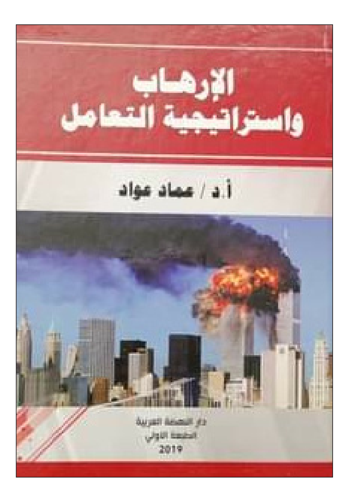
الإرهاب واستراتيجية التعامل

الناشر: دار النهضة العربية

مكان النشر: القاهرة

عام النشر: ٢٠١٩

أ.د. عماد عواد*



بالرغم من الصعوبات التي تحيط بعملية رسم الملامح الرئيسية لاستراتيجية التعامل مع الإرهـاب، فإن التحدي الأكبر يتمثل في كيفية التنفيذ الدقيق لكافة المحاور المقترحة من خلال خطط عمل على المستويات المختلفة: الوطنية والإقليمية والدولية. فمن الأهمية بمكان أن تنطلق الاستراتيجية من تحديد دقيق للخصم الذي يلزم التعامل معه، والهدف المراد تحقيقه، دون السماح لأية ظروف طارئة بتحويل المسار أو الانسياق إلى معارك جانبية لتحقيق أهداف فرعية أو ثانوية، قد تبدو مثمرة على المدى القصير وإن كانت آثارها مدمرة على المدى المتوسط والبعيد.

يركز الكتاب على المحاور الرئيسية التالية:

* دبلوماسي سابق وأستاذ جامعي في العلوم السياسية/مصر.

المحور الأول: توضيح بعض المقولات والمفاهيم الخاطئة:

- مقولة أن «الإرهاب لا دين له»
- التطرف له وجهان: الإرهاب وجرائم الكراهية
- خطأ مقولة «الإسلاموفوبيا».
- خطأ مقولة «التفوق العرقي».

المحور الثاني: تحليل الدوافع الكامنة وراء انتشار التطرف والإرهاب ونجاحه في استقطاب أعداد كبيرة خاصة من بين الشباب. وفي هذا الخصوص نركز على كل من عوامل الدفع وعوامل الجذب في كل من العالم الإسلامي والعالم الغربي، والتي تمكنت التنظيمات الإرهابية من استثمارها عبر وسائل التواصل الاجتماعي. ومن ثم فإن استراتيجية التعامل مع الإرهاب تتطلب التعامل مع كل من عوامل الجذب والطرد في آن واحد، والتي نجحت هذه التنظيمات في توظيفها لتضخيم صفوفها ولتبدو كأنها تمثل العالم أجمع. فيما يمكن أن نطلق عليه إعادة تقييم الأوضاع القائمة سواء في العالم العربي والإسلامي أو في المجتمعات الغربية لتجنب ما يدفع الشباب نحو الهروب إلى الأمام، وتقوية انتمائهم إلى أوطانهم وتمسكهم بتعليمات دينهم الذي يدعو إلى احترام الآخر والتعايش معه.

المحور الثالث: عرض لأبرز عناصر الاستراتيجية المقترحة:

• فيما يخص الإرهاب، لا يمكن الاكتفاء بالمواجهات العسكرية والحلول الأمنية، فالأولى تكون متاحة فقط عندما يتم تحديد موقع الخصم ومن ثم التعامل معه، وفيما يتصل بالتنظيمات الإرهابية فإنه يكون عادة من الصعب تحديد مكان وجودها على وجه التحديد، كما أنها تنقسم إلى قيادات وخلايا تتحدد درجة انتشارها بدرجة انتشار التنظيم في حد ذاته. أما الحلول الأمنية فمن شأنها التعامل مع مظاهر الإرهاب بمعنى القبض على خلية إرهابية أو إجهاض عمل إرهابي نتيجة لمعلومات استخباراتية، أو القبض على مشتبه فيه بالقيام بهجوم إرهابي. في هذا الخصوص، ذهب البعض إلى أن «السبب في عجز المواجهات العسكرية والحلول الأمنية وحدها عن علاج ما يُسمى بالإرهاب الإسلامي هو أن الإرهاب هو العَرَض وليس المرض. وطالما كان الاهتمام فقط بمعالجة أعراض المرض من دون مواجهة فعلية له، فلا يمكن علاج المشكلة أو اقتلاعها من جذورها».

• يتبنى الباحث فكرة وضع وتنفيذ استراتيجية ذات بعدين رئيسيين: أولهما وقائي وثانيهما علاجي.

• الشق الوقائي: يُقصد بالوقاية مجموع التدابير التي يتم اتخاذها تحسباً لوقوع مشكلة، أو لنشوء مضاعفات بعينها أو لمشكلة قائمة، ويكون هدف هذه التدابير القضاء الكامل أو القضاء الجزئي على إمكان وقوع المشكلة، أو المضاعفات، أو المشكلة ومضاعفاتها جميعاً. ويندرج تحت هذه الوقاية تضافر جهود العديد من المؤسسات المجتمعية للوقاية من الظاهرة والمساهمة في عملية التحصين، ونخص بالذكر في هذا الشأن: الأسرة، المؤسسة التعليمية، والإعلام بكافة صوره التقليدية والحديثة، والعمل على تكريس الاتجاه الوسطي والاعتدال وقبول الآخر التي تضمنها الإسلام، تطوير العلاقة بين المنظومة الأمنية والمواطن مما يسهل عملية التعامل مع الإرهاب في منبعه، ترسيخ تطبيق سليم لمفهوم الشرطة المجتمعية.

• الشق العلاجي: بالرغم من تعدد الأدوات العلاجية التي يلزم أن تتضمنها الاستراتيجية المقترحة، إلا أنّ تركيز الضوء يقع على أبرز هذه الأدوات التي يجب أن تتضمنها الاستراتيجية الناجعة للتعامل مع الإرهاب، وهي: استئصال النمطية وما يرافقها من مفهوم «الإسلاموفوبيا» والكراهية، والتصدي لخطر الذئاب المنفردة، والتعامل الجدي مع ما تم رصده من نقاط الضعف في أساليب التعامل والإرهاب في العالم أجمع.

• في أثناء تطبيق الشقين المشار إليهما يكون من الضروري الحرص على عدم الانسياق إلى معارك ثانوية تُبعد العالم عن مواجهة المشكلة الرئيسية، والذي يلزم أن يوحّد جهوده للتعامل معها. فمن المسلَّم به أن مثل هذه التنظيمات تسعى إلى تطبيق شكل من أشكال صدام الحضارات وهو ما يلزم تجنبه بكافة الوسائل.

(٦)

الربيع العربي وأثره على الاستقرار السياسي في اليمن

د. محمد عبدالله الحورش*

شهد الوطن العربي منذ أواخر العام ٢٠١٠ احتجاجات وانتفاضات شعبية ضد بعض أنظمة الحكم العربية، تحولت هذه الاحتجاجات إلى ثورات عارمة وعاصفة اجتاحت عدداً من الدول العربية، بدأت شرارتها من تونس وامتدت لتشمل مصر، اليمن، ليبيا، وسوريا، أُطلق على هذه الثورات مصطلح «الربيع العربي».

لذلك فإن دراسة موضوع الربيع العربي وأثره على الاستقرار والتنمية في اليمن أمر مهم ومطلوب، لأنها توفر أحد المفاتيح أو المداخل لفهم وتفسير واستعراض وتحليل وبحث حقائق هذا الموضوع، ولذلك فقد يكون الربيع العربي وثورة فبراير (٢٠١١) في اليمن عاملاً مساعداً على الاستقرار والتنمية فيه أو معوقاً له.

مع بداية اندلاع الثورة في اليمن ٢٠١١ عانى الاقتصاد اليمني من وضع اقتصادي وُصف بالركود التام والذي وصل إلى مرحلة الفشل وفقاً للمؤشرات الدولية، ما جعل هذا الوضع ينتقل إلى مرحلة الشلل الاقتصادي في معظم القطاعات، وتوقف الكثير من العقود والصفقات التي راحت تنتظر ما ستسفر عنه الأحداث الموجودة، وذلك نتيجة الاعتصامات والمظاهرات المطالبة بإسقاط النظام والأزمة السياسية التي دخلت فيها البلاد. أضف

* أستاذ جامعي، ومحلل سياسي، عضو نقابة الصحفيين اليمنيين واتحاد الصحفيين العرب/اليمن.

إلى ذلك أن قطاع البناء والتشييد وقطاع السياحة توقف بشكل كامل، ما أدى ذلك إلى امتناع البنوك من القيام بالإقراض وجعل العملة الأجنبية (الدولار) تختفي من السوق، وانخفضت بذلك أسعار العملة المحلية حيث وصل سعر الدولار الواحد إلى ما يعادل (٣١٢) ريال يمني، بعد أن كان يعادل (٢٠٠) ريال يمني قبل اندلاع الثورة.

ومنذ ذلك الوقت واليمن يمر بأزمة اقتصادية خانقة لا يزال الشعب اليمني يعاني منها. هذه الأزمة السياسية أحدثت نكسة كبيرة للاقتصاد اليمني وصلت فيها معدلات التضخم إلى نسب قياسية، فازدادت نسبة البطالة، وتوقف الاستثمار، وانخفضت فرص العمل، وارتفعت نسبة الفقر في المجتمع اليمني، فلجأ أبناء الشعب اليمني إلى استخدام مدخراتهم الضئيلة في إيجاد المواد الأساسية التي تحتاجها الحياة، والتي زادت أعباؤها نتيجة التضخم وانعدام المشتقات النفطية وانقطاع الكهرباء، الأمر الذي انعكس سلباً على الخدمات التعليمية والصحية، أضف إلى ذلك شروع الآلاف من اليمنيين إلى النزوح من المدينة إلى الريف، في حين هاجر البعض منهم إلى دول أخرى ولو بصفة غير شرعية.

ومع بداية العام ٢٠١٢ تنفس اليمنيون الصعداء وتفاءلوا كثيراً بتشكيل حكومة الوفاق الوطني، غير أن استمرار الانفلات الأمني غير المسبوق، والاستمرار في تفجير أنابيب النفط، وقطع خطوط نقل الكهرباء، وعجز الدولة عن فرض القانون، كل هذه العوامل أدت إلى ضعف الأداء الاقتصادي وعجز الحكومة عن تحقيق معدلات النمو المأمولة.

ونتيجة للأوضاع السياسية والانفلات الأمني وأعمال العنف والفوضى التي يمر بها اليمن فقد قلت عائدات اليمن من صادرات النفط إلى مستويات كبيرة، وذلك بسبب تراجع الإنتاج خلال النصف الأول من العام ٢٠١٣ والذي وصل إلى (١٤,٤) مليون برميل بعد أن كان (١٨,٢) مليون برميل في النصف الأول من العام ٢٠١٢، الأمر الذي اضطرت الحكومة فيه إلى استيراد مشتقات نفطية بمبلغ (١,٥٩٤) مليار دولار لتغطية النصف الأول من العام ٢٠١٤ وذلك لتغطية عجز الاستهلاك المحلي في اليمن.

وعلى الرغم من تردي الأوضاع الاقتصادية منذ العام ٢٠١١، إلا أن العام ٢٠١٥ وما تلاه من أعوام حتى

الآن تدهورت فيها الأوضاع الاقتصادية في اليمن أكثر فأكثر بشكل كبير جداً، الأمر الذي أدى إلى صراع دموي وحرب أهلية اندلعت في أكثر من محافظة يمنية نتج عنها إيجاد أوضاع اقتصادية مأساوية أدت إلى تدهور الحياة المعيشية وإدخال اليمن في نفق مظلم، ولا زالت هذه الحرب مستمرة حتى كتابة هذه السطور، حيث أُصيب النسيج الاقتصادي والاجتماعي في اليمن بالشلل، وانكمش فيه الاقتصاد والتنمية والبناء انكماشاً حاداً، ناهيك عن أن هذه الحرب وهذا الصراع المتصاعد منذ مارس/ آذار ٢٠١٥ قد أدى إلى تعطُّل الأنشطة الاقتصادية وتدمير البنية التحتية على نطاق واسع، وتوقفت صادرات النفط والغاز منذ الربع الثاني من عام ٢٠١٥، ونتج عن ذلك تراجع عائدات اليمن من العملات الأجنبية بشكل كبير، كل ذلك أدى إلى تراجع الانتعاش الاقتصادي في الجمهورية اليمنية وتفاقم الفساد وانتشار البطالة وارتفاع معدلات الجوع والفقر وارتفاع الأسعار، خصوصاً بعد توقف رواتب الموظفين منذ سبتمبر ٢٠١٦ وحتى الآن والذي أضر بحياة المواطن اليمني الاقتصادية والمعيشية.

فالمتتبع للواقع اليمني اليوم يدرك تماماً أن الوضع الاقتصادي والتنموي في انهيار كامل، خاصة في ظل الأزمات والحروب المستمرة وغياب الاستقرار الأمني، وهو ما شكّل عائقاً حقيقياً أمام أي تقدم للحركة الاقتصادية والتنموية. إضافة إلى أن البيئة الاقتصادية في اليمن شكّلت عاملاً طارداً للاستثمارات الأجنبية والمحلية وانخفاض بل وانقطاع عدد السياح الوافدين إلى اليمن، ناهيك عن أن هذه الأزمة والحرب الدائرة أدت إلى تراجع المانحين عن تقديم المساعدات والإيفاء بالتعهدات في ظل ضبابية الوضع الأمني والسياسي في البلاد، ومنها ما أعلنه البنك الدولي في العام ٢٠١٥ عن تجميد عملياته في البلاد والبالغة قيمتها ٩٠٠ مليون دولار. هذا كله أدى إلى انخفاض الناتج القومي للدولة اليمنية وساهم بشكل كبير في تراجع الحياة الاقتصادية في اليمن وتوقف البناء والتنمية، حيث توقفت العديد من المشاريع التنموية كالجامعات والمدارس والمستشفيات والطرقات والمطارات والموانئ، ناهيك عن تدمير ما كان مشيّداً نتيجة الحرب.

هنا يمكننا القول إنه إذا لم يكن هناك نية صادقة لوقف العمليات القتالية ورفع الحصار المطبق على الشعب اليمني، ووقف الحروب الأهلية في عدد من المحافظات اليمنية، وإخلاص النية في الدعوة الجادة لإقامة حوار يمني بين أطراف الصراع والعمل على وقف الحرب وإحلال السلام وتطبيع الأوضاع، فإن الوضع الاقتصادي سيستمر على ما هو عليه، بل إنه سيزداد تدهوراً، خصوصاً مع سيطرة بعض الأطراف المتصارعة على آبار النفط وتوقف الإنتاج النفطي، ومحاصرة بعض الموانئ والمطارات اليمنية وإغلاق البعض الآخر كميناء الحديدة ومطار صنعاء، وارتفاع البطالة بشكل غير مسبوق، وازدياد نسبة الفقر بشكل كبير جداً، وتوقف صرف رواتب الموظفين، وغلاء الأسعار، وارتفاع سعر الدولار أمام الريال اليمني المتزايد يوماً بعد يوم حتى وصل اليوم إلى ٣٠٠٪ مقارنة بما قبل اندلاع ثورات الربيع العربي ٢٠١١، وانتشار السوق السوداء، وانعدام الكهرباء، واستمرار تعطل المصانع، وانقطاع مشروع المياه الذي ينعدم يوماً بعد يوم من دون أن يكون هنالك أي خطوات جادة لحل هذه المشكلة، وغير ذلك من المشاكل المعقدة التي تزيد الوضع الاقتصادي اليمني تدهوراً، وتضع اليمن وشعبه في مواجهة مع المصير الذي ينتظره نتيجة المجاعة الكبرى التي حلّت به والكارثة الاقتصادية التي لم يعهدها من قبل.



حوار مع مؤلِّف

الشاعر الطبيب الدكتور عبد الحميد محمود

أجرت الحوار: شيرين نبيل *

د. عبد الحميد محمود مسيرة حافلة بالشعر والطب، صاحب أول عيادة للتغذية العلاجية بالإسكندرية، وله أربعة عشر ديواناً شعرياً، بالإضافة إلى الأوبريتات الغنائية والأعمال الدرامية وعشرات البرامج بالإذاعة والتلفزيون المصري.

عاصر نجوم الثقافة والإعلام في مصر في فترة السبعينيات والثمانينيات مثل توفيق الحكيم، ثروت أباظة، صالح جودت وغيرهم. وعمل مع الموسيقار والملحن محمد الموجي في العديد من الأعمال الفنية.

ومعه كان هذا الحوار:

* كبير المذيعين في شبكة إذاعة «صوت العرب»/مصر.

• د. عبد الحميد محمود الشاعر الطبيب أم الطبيب الشاعر؟

** الميلاد ميلاد شاعر، نطقت الشعر وأنا في المرحلة الإعدادية وبدأت أنشر وأنا طالب في كلية الطب. وفي سبعينيات القرن الماضي كان أول من نشر لي الشعر الشاعر والأديب الكبير صالح جودت في مجلة «الهلال»، ولم تكن «الهلال» تنشر إلا لكبار الشعراء.

• كيف كانت مرحلة التكوين الشعرى للشاعر عبد الحميد محمود؟

** بدأت علاقتي بالشعر من حواديت أمي، فجّرت عندي أحاسيس بالأشياء من حولي، وكان أي شيء يقع تحت يدي أقرأه بتمعن. قرأت لمعظم الشعراء من نهاية المرحلة الابتدائية، وفي نهاية المرحلة الإعدادية دخل أستاذ اللغة العربية في أول حصة وقال لكل طالب أن يكتب ما يشاء في موضوع إنشاء حر، فكتبت قصيدة عن الموت، وعندما راجع الأستاذ الأوراق استوقفته هذه القصيدة وقال لي: ستكون شاعراً عربياً كبيراً.

وفي المرحلة الثانوية وفي وقت الفسحة، عندما كان الطلبة يلعبون كنت أنا مع أساتذة اللغة العربية يناقشون شعري ويبدون آراءهم فيما أكتب.

وتدور الأيام وأنشر شعري في «الأهرام» أيام توفيق الحكيم وثروت أباظة في نهاية السبعينيات من القرن الماضي.

• لماذا فضلت أن تدخل كلية الطب مع أن ميولك كلها أدبية؟

** لو كنت التحقت بكلية الآداب أو دار العلوم ما كنت شاعراً، لأن الدراسة الأكاديمية قد تقتل الموهبة، أو كنت سأصبح ناقداً. أما الطب فهو حياة حقيقية، كل ما تتخيله في الحياة في الطب، الفنون الجميلة في الطب لأن الجراحة فنون جميلة، البناء والهندسة في الطب، الموت والحياة والميلاد في الطب.

كان من طموحاتي أن أكون ضابطاً بحرياً، وقد كنت رياضياً وسباحاً ماهراً ولكن إصرار أبي على دخول كلية الطب دفعني إلى ذلك، وقد كان اختياراً موفقاً من أبي، فكان يرى ما لا أراه حينئذ، حيث فجر الطب في الشعر ما لم يفجر بدونه.

• كيف وصلت إلى النشر في جريدة «الأهرام» ومجلة «الهلال» وأنت ما تزال طالباً بكلية الطب؟

** كان الشاعر العربي الكبير صالح جودت أستاذ نزار قباني وكان يكتب الشعر العمودي وكان من أعضاء مدرسة أبوللو مع أحمد زكي أبو شادي وإبراهيم ناجي وعلي محمود طه، وقد التقيت بصالح جودت في أحد الحفلات بجامعة الإسكندرية وأنا ألقي قصيدتي من خلال عينيها فقال لي: تعال إلى «الهلال» سأنشر لك، وفعلاً ذهبت إليه في الهلال بعد حوالي ثلاثة أو أربعة أشهر من لقائي به في الجامعة. وعندما وصلت إلى مكتبه سألني مدير مكتبه عن اسمي ونظر في ورقة أمامه، وقال لي: نعم هو ينتظرك. بالرغم من أنه مر على لقائي به حوالي ثلاثة أشهر لكنه ما زال يتذكر كلمته لي. لقد كان حقاً جيلاً من العظماء، فعندما دخلت إليه كان استقباله عظيماً وسألني: جايب شعر معاك؟ قلت له: طبعاً، والمصادفة أن الشعر الذي معي كان على بحور عربية هو لم يكتب عليها مثل المقتضب والمديد والمنسرح، وقد أعجب بها جداً، واختار قصيدتين أو ثلاثة وغيَّر بعض الكلمات ونشرها في الهلال والزهور.

أما بالنسبة لجريدة «الأهرام»، فقد كنت قد أرسلت بالبريد بعض القصائد إلى «الأهرام» وكانت صفحة الأدب في ذلك الوقت تحت إشراف ثروت أباظة، وبقيادة العملاق والأديب الكبير توفيق الحكيم. والجدير بالذكر أن الطابق السادس بمبنى الأهرام كان يجلس به عمالقة الصحافة والأدب: توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وحسين مؤنس وإحسان عبد القدوس وغيرهم من عمالقة الزمن الجميل. وكان الكثيرون لا يستطيعون الدخول إلى هذا المكان، كان الصحفيون والمبدعون يقفون خارجاً ويلقون بالتحية على توفيق الحكيم من بعيد. وعندما لم ينشر لي ثروت أباظة ذهبت بنفسي إليه لأعرف لماذا، وكنت وقتها في آخر سنة في كلية الطب بجامعة الإسكندرية، وطلبت من السكرتيرة الدخول وهو لا يعرفني من قبل، ولكنه قال لي: تفضل، فدخلت.

وكان ثروت أباظة ضخماً طويلاً جالساً وراء مكتبه في عظمة، فقلت له: يا أستاذ ثروت، بعثت لك بعض قصائدي ولم تنشرها. فقال لي بكبرياء: يا دكتور، «الأهرام» يشرّف أي شاعر عربي أن ينشر فيه، ونحن لا ننشر في السنة

لأي شاعر عربي سوى قصيدة واحدة، وأنت أرسلت إلينا، وعندما يأتي عليك الدور أنشر لك. قلت له: أنا جاي عشان أقول لحضرتك اني نشرتهم عند صالح جودت في «الهلال». فسألني: هل معك قصيدة؟ قلت له: معي قصيدة ميلاد جديد، وتقول هذه القصيدة:

اليــوم تـــورق في كفــيك آمــالي
وترتوي بالسنا من وجهك الغالي
يا من مشيت معي في مشوار غربتي
لم تضجري مرة من طول ترحالي

وعندما قرأ ثروت أباظة القصيدة وقف، فرأيت أمامي عملاقاً، ثم قال لي: هذه المرة يا أستاذ وليس يا دكتور أنا آسف، أنا لم أقرأ، أنا فوجئت من هذا العملاق العظيم الذي نادى للسكرتيرة وكانت الصفحة الأدبية قد اكتملت، وقال لها: شيلي كلمتي وضعي هذه القصيدة لعبد الحميد محمود، هنا قلت له: يا باشا لا، طبعاً ننشرها الأسبوع القادم، أنا لا أقصد كدة.... قال لي: ده حقك وقد تم بالفعل. وهذا كان حدثاً فريداً لكي تنشري وسط هؤلاء القامات وكبار الشعراء، وبعد شهر نشر لي قصيدة أخرى وكانت متميزة، فالتفت إليها الأديب العظيم توفيق الحكيم، فسأل ثروت أباظة: فين الشاعر ده؟

فذهبت إلى توفيق الحكيم في مكتبه وطلب لي فنجاناً من القهوة ومعروف عنه أنه لا يطلب مطلقاً القهوة لأحد، ليس بخلاً ولكن هو يعطي نفسه هذا المظهر وهذه الفخامة. بعد هذه المرة اعتدت أن أذهب إلى توفيق الحكيم كل أسبوع وأنشر كل شهر قصيدة «بالأهرام».

وذات مرة كنت عند توفيق الحكيم ومعي قصيدة بعنوان «أمطرني حباً» وهي من شعر التفعيلة، ودخل علينا ثروت أباظة، فقال له توفيق الحكيم: ما هذا الغثاء الذي تنشره في الصفحة الأدبية يا ثروت؟ فقال له: ليه يا باشا؟ فأعطاه قصيدة لي وقال له: عبد الحميد محمود أنا لسه ناشر له قصيدة الأسبوع الماضي، فقال له: ودي كمان تتنشر. وعندما خرجنا من عند توفيق الحكيم داعبني ثروت أباظة قائلاً: لو عملتها مرة تانية هموتك.

ومن المواقف التي لا تنسى أنني رأيت مع توفيق الحكيم نوتة في حجم نصف كف اليد، وكان يكتب بها يومياته ومذكراته ومذكرات مصر كلها في هذه النوتة، ورأيه السياسي والثقافي والاجتماعي فيما يحدث يومياً، ولكنها فقدت أو سرقت من ابنته بعد وفاته.

• ما حكايتك مع الشاعر والأديب والناقد د. عبد القادر القط؟

** ذهبت إليه في أحد مقاهي مصر الجديدة زمان، وأعطيته قصيدة «أربعة أقنعة لوجه عربي» وعندما قرأ القصيدة تبدلت قسمات وجهه، فاعتقدت أنه تضايق، فقلت له: لم أقصد أن تنشرها لي، أنا فقط أسألك رأيك فيها. قال لي: يا بني انتظر ما لكم مندفعين؟ كدة القصيدة دي تجديد في الشعر العربي، وهي مفتتح العدد القادم في مجلة «إبداع». واستمريت في النشر في هذه المجلة فترة طويلة.

وأصبحت صداقة بيني وبين د. عبد القادر القط، وكان ينشر لي كل شهر قصيدة، وكانت معظمها من شعر التفعيلة. وجمعت هذه القصائد في ديوان «غصون الحب مبتلة بقوس قزح» الذي حصل على جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٩٨.

• لك أربعة عشر ديواناً شعرياً، وقد حصل أحدها على جائزة الدولة التشجيعة، ولكن كانت له حكاية، فما هي؟

** أول ديوان لي كان باب الشمس صدر عن المجلس الأعلي للثقافة عام ١٩٧٧. ثم إنني مررت بتجربة حياتية مأساوية كان فيها إصابات وموت وأشياء أخرى أنتجت ديواناً اسمه «لن أنفيك من زمني» عام ١٩٨٨، وكنت في أواخر الثلاثينيات من عمري، وفي هذا التوقيت لم تكن تعطى جائزة الدولة التشجيعية إلا لمن هم فوق الخمسين، ولا تؤخذ التقديرية إلا في أواخر العمر أو بعد الوفاة، إلا أن هذا النظام تغيّر. المهم تقدمت بهذا الديوان لجائزة الدولة التشجيعية، وذات يوم كنت بمبنى الإذاعة والتليفزيون المصري بماسبيرو، وكان معي بعض الأصدقاء، فدخل علينا الناقد الكبير د. صلاح فضل وقال لي: أهنئك تهنئة ناقصة، الآن كان هناك اجتماع المجلس الأعلي للثقافة وأنت كنت فائزاً بجائزة الدولة التشجيعية

عن ديوان «لن أنفيك من زمني»، وهذه الجائزة تعطى لعمل محدد، ولكنها ذهبت لآخر، وما قيل إنه ما زال شاباً ولا أحد يأخذ التشجيعية قبل الخمسين، وما يزال أمامه فرص فلنعطها لغيره هذه المرة.

• وماذا فعلت بعد ذلك؟

** كان رئيس لجنة الشعر بالمجلس الأعلي للثقافة في لك الوقت هو الشاعر والناقد والاديب الدكتور عبد القادر القط، وكان ينشر لي قصيدة شهرياً ولكنه لم يأخذ موقفاً في لك الوقت.

ثم ذهبت بعد ذلك إلى مكتب الكاتب الكبير ثروت أباظة، وقد كان رئيس المجلس الأعلى للثقافة، وقد كان صديقاً لي، وعنما ذهبت إليه بادرني قائلاً: قدم الديوان السنة القادمة وستأخذه بالأمر وليس باللجنة، فقلت له: لا لن أقدمه. فسألني: طيب انت جاي ليه؟ قلت له: جاي عشان أقولك انك مش باشا. وكنت مندفعاً اندفاع الشباب ... وسمع مدير مكتبه، ولكن ثروت أباظة قال له: سيبه يقول اللي هو عايزه. فسكت ثروت أباظة بعظمة الكبار كأن ابنه أمامه ويعاتبه. وقلت له: لو كنت باشا ما كان ده حصل. وذهبت ولم أقدم الديوان كما طلب مني مع أنه وعدني بهذه الجائزة العام المقبل، لأنه كان قد علم بأنها أخذت مني.

وتدور الأيام وبعد عشر سنوات أقدم ديوان «غصون الحب مبتلة بقوس قزح» عام ١٩٩٨ لجائزة الدولة التشجيعية. ومن الصدف الغريبة أنني عندما كنت خارجاً من معرض القاهرة الدولي للكتاب يستوقفني الناقد الكبير د. صلاح فضل مرة أخرى ويقول لي: أهنئك تهنئة مؤجلة، فلم أبتسم لأنها تأخرت عشر سنوات. وقال لي: لأول مرة في تاريخ هذه الجائزة تؤخذ بالإجماع، وحكي لي أنه كان هناك الشاعر د. أحمد كمال زكي وكان أستاذاً للغة العربية بجامعة عين شمس، ورئيساً للجنة الشعر مدة وجيزة وكان عضواً بلجنة الشعر في ذلك الوقت، ودخل إلى اللجنة وقال لهم: فيه شاعر لا أعرفه شخصيا اسمه عبد الحميد محمود وديوانه اسمه «غصون الحب مبتلة...» هو الذي يأخذ الجائزة ليس غيره. فوافق الحضور جميعاً وكان من بينهم د. عبد القادر القط.

• عملت مع الموسيقار والملحن الكبير محمد الموجي في العديد من المناسبات، وقدمتما معاً قصائد ملحنة ومغناه للعديد من الفنانين، نتعرف على بداية تعاونك مع الموجي؟

** كنا مجموعة من الشعراء والأدباء والإعلاميين نجلس في أحد فنادق القاهرة على النيل و حوالي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل دخل محمد الموجي ولم أكن التقيت به من قبل، جلس معنا وكان هادئاً شديد الثقة بالنفس. حاول الشعراء الموجودون بالجلسة أن يسمعوه بعضاً من شعره ليلحن لهم، إنما أنا شعرت بأنه سمع بأذن ويخرج الكلام من الأذن الأخرى، وبعد ساعة قال: أنتم عرفتموني بـ د. عبد الحميد لكن لم أسمع منه شعراً. فقلت له: أنا لم أكتب شعراً ليغني إطلاقاً أنا كل شعري سياسي أو اجتماعي أو فلسفي، فقال لي: من قال لك إني أريد أن أسمع شعراً غنائياً، أنا أريد أن أسمع شعراً فقط. عندها انصرف الجالسون وأسمعته قصيدة «أربعة أقنعة لوجه عربي» وهي قصيدة سياسية، وكان منصتاً باهتمام شديد، ثم قال: أنا مسافر المغرب بعد عشرة أيام في أعياد العرش، هذا كان تقريباً عام ١٩٨٥ ولن أذهب إلى المغرب إلا ومعي القصيدة التي سأغنيها هناك، وأنت اللي كاتبها. وقد أسقط في يدي وترددت، وحاول أن يستفز فيَّ الشعر والإلهام فكتبت:

النور موصول والسعد مأمول

الشوق يدعونا لروضة يثرب

فالنور نور الحب من عند النبي

وكل هذا وكنا ما زلنا جالسين في نفس المكان، وقد قربت الساعة مِن الثانية والنصف بعد منتصف الليل. وقد كان الموجي يحترم جداً الشاعر الحقيقي ويفهم جيداً في اللغة العربية.

سكت الموجي حوالي ساعة ونصف، وقال لي: ليس هكذا الغناء. فقلت له: لن أغير شيئاً. فقال: اسمع كدة، وقال البيت الأول كما كتبته، ثم كرره مرة أخرى بالتنوين.

• ماهي ذكرياتك مع الشعر في البلاد العربية؟

** ذهبت إلى سوريا عام ١٩٩٨ في مهرجان المحبة في اللاذقية أيام كانت وزيرة الثقافة السورية نجاح العطار، وكانت أستاذة للأدب الإنجليزي، وكان معظم شعراء الوطن العربي في هذا المهرجان، وكان يعطي لكل شاعر حوالي ثلث ساعة يتلو فيها ما يروق له من شعره، وكان من ضمن الحضور الشاعر فاروق شوشة والشاعر أحمد عبد المعطي حجازي والشاعر عفيفي مطر. وبدأت بقصيدة «أربعة أقنعة لوجه عربي» وتفاعل معي الجمهور جداً. وفي الكوبليه الثاني ارتجت القاعة بالتصفيق الحاد. وبعد أن انتهى الوقت المحدد طلبت مني وزيرة الثقافة السورية أن أكمل وكنت قد تلوت شعري حفظاً، فعندما فتحت ديواني لأقرأ خرجت من الحالة الشعورية التي كنت فيها، فاعتذرت ونزلت من على المسرح.

وقالت لي الوزيرة نجاح العطار: أنت مفاجأة هذا الحفل وأنت ضيف سوريا الدائم ما دمت أنا وزيرة الثقافة في سوريا.

• قصيدة «أربعة أقنعة لوجه عربي» تكرر ذكرها كثيراً وهي من القصائد المهمة في الشعر العربي، لماذا؟

** هذه القصيدة تدور في تاريخ العرب كله، قناع قديم وقناع غريب وقناع رديء وقناع مستقبلي، مع استخدام الإسقاطات على واقعنا العربي دون إيغال. وفي هذه القصيدة نبوءة، وإذا لم يكن الشاعر بداخله هذه النبوءة أو لم يكن يرى ما لا يراه الآخرون سيكون هذا الشاعر محدوداً في رؤيته وقصائده. وقد أشاد وزير الثقافة أحمد هيكل بهذه القصيدة عندما سمعها في معرض القاهرة للكتاب.

• ماذا قدم د. عبد الحميد محمود في شعره من تجديد في القصيدة العربية؟

** أول التجديد كان في ديوان «لن أنفيك من زمني» لأنه كان تجربة حقيقية أثارت بداخلي أحاسيس خاصة لم يشعر بها أحد سواي، والشاعر إذا لم يمر

بمحنة في حياته لن يقول شعراً مثل المتنبي ونزار وشوقي وغيرهم كلهم تعرضوا لتجارب مريرة في حياتهم أنتجت أعظم الأشعار.

والتجديد هنا أنني حولت القصيدة من مجرد قصيدة عمودية تعبر عن لوحة واحدة إلى قصيدة فيها سينما أو تصوير كما في «أربعة أقنعة لوجه عربي» أيضاً.

ثم جاء التجديد الثاني من خلال ديوان «قالت الجن» وهو ديوان من شعر التفعيلة، وهي تجربة كأنها رواية شعرية. فكل قصيدة في هذا الديوان تكمل القصيدة التي تليها، وكل الديوان يدور في فكرة واحدة.

• ما هي التجربة الشعرية الحالية التي يعيش فيها د. عبد الحميد محمود؟

حالياً وجدت بعض القصائد، وأنا أكتبها ليست على موسيقي الخليل بن أحمد، فاستمريت في الكتابة، فجاء معي خلال الكتابة عدة من البحور غير الخليلية، لكنها بما أوحى لي به جن القصيدة.

وقد تابعه بالنقد والتحليل أ. د. بهاء عبد اللّه رئيس قسم الأدب العربي جامعة حلوان وأ.د. فوزي عيسى رئيس قسم الأدب العربي بجامعة الإسكندرية، وقد نقدوا هذه القصائد بقولهم إنها على موسيقى لم يستمعوا إليها من قبل. وهذه قصيدة عهد على بحر غير خليلي:

عاهدتها ولم أيــأس
ولم أخف من المحبس

من الغمام شـــردنا
والليل إن بنا عسعس

أن أرجع الصباح لها
وأجعل المدى يشمس

صرخت في روابيــها
والصوت لم يعد أخرس

• ننتقل مع د. عبد الحميد محمود إلى عمله في مجال الطب وهل كان بالتوازي مع الشعر والأعمال الفنية؟

** أنا لم أمارس الطب مدة أربع سنوات عندما كنت ما زلت منشغلاً بالشعر في الفترة من عام ١٩٨٤ إلى عام ١٩٨٨ وكنت مصاحباً للموجي وكل من يغنون ويكتبون في ذلك الوقت. وبعد تلك السنوات تركت القاهرة واضطررت أن أرجع إلى الإسكندرية لظروف عائلية، وفتحت وقتها أول عيادة تعالج بالتغذية في مصر عام ١٩٨٨. وكنت قد حصلت على دبلوم التغذية من المعهد العالي للصحة العامة بالإسكندرية مما أتاح لي فرصة افتتاح عيادة للتغذية.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن العلاج بالتغذية ليس معناه إنقاص أو زيادة الوزن، و لكن يعني اتباع نظام غذائي صحي متوازن لكل الأمراض التي يعاني منها الإنسان، حيث لا يوجد مرض ليس له نظام خاص بالتغذية – كورونا – سكر – ضغط – نزلات برد - سرطان – طاعون إلى آخره. بعض الامراض لا أعطي المريض بها دواء، إنما أعطي نظاماً غذائياً فقط، وأمراض أخرى يكون الدواء مع نظام غذائي.

• هل لك كتب في مجال التغذية العلاجية؟

** نعم لي كتابان هما «السمنة وأصول التغذية السليمة» و«ريجيمو فوبيا» بالإضافة إلى العديد من برامج التغذية في التليفزيون والإذاعة المصرية، مثل «طبيبك على الهوا» و«كل ولا تأكل».

دعوة للمشاركة بالدراسات والبحوث المُحكمة
في مجلّة «المنتدى»

محور العدد القادم:

• مئوية تأسيس الدولة الأردنيّة (١٩٢١ - ٢٠٢١)

تدعو المجلّة الباحثين والكُتّاب في الجامعات والمعاهد العلميّة ومراكز الدراسات والبحوث والمعنيين للمشاركة في الكتابة في المحور المشار إليه وما يتفرّع عنه من قضايا، وفقاً للشروط الآتية:

- أن لا تكون الدراسة أو البحث منشورة/ منشوراً من قبل في أي من المنشورات الورقيّة أو عبر الوسائل الإلكترونيّة، وأن يتعهَّد الكاتب بعدم نشره قبل تسلُّم رد هيئة تحرير مجلة «المنتدى» بقبول النشر أو الاعتذار.
- أن تتسم الدراسة/ البحث بالمنهجيّة العلميّة والموضوعيّة، والجدّة في الأفكار والطرح، ويُراعى التوثيق وفق قواعد البحث العلمي،
- الحرص على سلامة اللغة العربيّة نحواً وصرفاً والأسلوب الواضح. وعند إيراد نصوص بلغات أجنبية ضمن الدراسة/ البحث ترجمتها نصّاً.
- أن لا تزيد عدد صفحات الدراسة/ البحث عن (٣٠) صفحة مطبوعة على الكمبيوتر بحرف *Simplified Arabic 16*، وتُدرج الهوامش وقائمة المصادر والمراجع في نهاية الدراسة/ البحث بحرف *Simplified Arabic 14*.
- يُدرَج التوثيق في الهامش ويُعطى أرقاماً متسلسلة حتى نهاية الدراسة/ البحث، ويكون توثيق المصادر والمراجع بالشكل الآتي: (المؤِّلف/ الكاتب، عنوان الكتاب/ عنوان الدراسة أو المقالة، الناشر/ اسم الدورية ورقم العدد وتاريخه، مكان النشر/ الطبع، السنة (للكتب)، رقم الصفحة. وعند تكرار استعمال المصدر أو المرجع يكتب: اسم المؤلف، الكتاب/ عنوان الدراسة أو المقالة، اسم الدورية (ويُشار إليه بعبارة المصدر السابق نفسه، أو مصدر سبقت الإشارة إليه).

- تُرسَل الدراسة/ البحث إلى البريد الإلكتروني لمدير تحرير المجلّة (kayed@atf. org. jo)، أو تُسلّم على CD لمدير التحرير في مقرّ المنتدى، في موعدٍ أقصاه شهر واحد قبل صدور العدد الذي يتضمَّن المحور المتعلق بموضوع الدراسة/ البحث، مع السيرة الذاتية للكاتب وصورة شخصيّة حديثة.
- تحوَّل الدراسات والبحوث الواردة وفق الإجراءات التحكيمية المتبعة إلى أساتذين متخصصين في موضوعها، وتؤخذ النتيجة من حاصل مجموع العلامتين مقسومة على اثنين، ويُبلَّغ الكاتب بالقبول أو الاعتذار.
- لا تنشر المجلّة إلاَّ الدراسات والبحوث التي تنجح بالتحكيم، وهيئة التحرير غير ملزمة بإعادة ما لم يقبل نشره أو إبداء أسباب عدم القبول.
- لهيئة التحرير أن تستكتبَ أو تكلِّف باحثين وكُتَّاباً للكتابة في موضوعات معيّنة، وتُعامل دراساتهم وبحوثهم وفق هذه الشروط ودون استثناء أيٍّ منها.
- تدفع المجلّة مكافآت رمزية لأصحاب الدراسات والبحوث المقبولة للنشر.

المنتدى

قسيمة اشتراك
في المجلة وفي كتب المنتدى

أرجو قبول اشتراكي في: مجلة المنتدى ❑

مجلة المنتدى : الإصدارات السّنوية (الكتب) ❑

الاســم: ....

العنوان: ....

قيمة الاشتراك*: طريقة الدفع: **نقداً** .... ❑

حوالة بنكية (صافي القيمة): بنك الاتحاد / الجبيهة

رقم الحساب/ بالدينار: IBAN JO 46UBSI1090000160101556615101

رقم الحساب/ بالدولار: IBAN JO 05UBSI1090000160201556620102

سويفت كود: **SWIFT:** UBSIJOAXXXX

التوقيع: ....

التاريخ: ....

* تملأ هذه القسيمة وتُرسل مع قيمة الاشتراك إلى العنوان الآتي:

منتدى الفكر العربي: ص. ب ١٥٤١ عمّان ١١٩٤١ الأردنّ

	المجلة	المجلة + الكتب
داخل الأردن	للأفـــراد: (٢٠) عشرون ديناراً أردنياً للمؤسسات: (٤٠) أربعون ديناراً أردنياً	للأفـــراد: (٥٠) خمسون ديناراً أردنياً للمؤسسات: (١٠٠) مئة دينار أردني
خارج الأردن	للأفـــراد: (٥٠) خمسون دولاراً أمريكياً للمؤسسات: (١٠٠) مئة دولار أمريكي	للأفـــراد: (١٥٠) مئة وخمسين دولاراً أمريكياً للمؤسسات: (٣٠٠) ثلاثمائة دولار أمريكي